نصري الصايغ

لو كنتُ يهودياً

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

لـوكنـتُ يـهـوديـاً

نصري الصايغ

لو كنتُ يهودياً

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

IF I WERE JEWISH

By

Nasri Sayegh

First Published in January 2005
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21186-2

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٥

المحتويات

إهداء	٩
المقدمة: العبور إلى غرناطة اليهود	١١
القسم الأول: لو كنتُ يهودياً	٣١
القبور المتبادلة	٣٣
من أقتل يا بورخيس؟	٤٥
الطلاق قبل الزواج	٥٥
الشتات وطني!	٧٣
من الظلم ... يجيئون	٨٧
البحث عن اثني عشر فلسطينياً!	١٠٧
سأخون الصهيونية	١٢٩
يوم القيامة ... بعد فوات الأوان	١٤١

لو كنتُ يهودياً ٨

الحرب الأولى ... مرة أخيرة ١٦١
الديموقراطية المميتة ١٨٥

القسم الثاني: ولكنني فلسطيني ٢١١

ملحق: شهود وشهادات ٢٤٣
يوجين يونيسكو:
أنا إسرائيلي ولا حاجة للتذكير بذلك ٢٤٥
ناديا تويني:
الرواية الإسرائيلية لنتالي ساروت ٢٥١
جابوتنسكي:
طبيعي أن يرفض العرب دولة إسرائيل ٢٥٧
أميرة هاس:
أفرح لموته ٢٦٣
إيريت غال ـ إيانا هامرمان:
جنين... بيروت أخرى ٢٦٧
أهارون شبطاي:
الحسوا ط.... ي ٢٧١

إهداء

إلى من كلامه مقيم جداً

إلى واحد أكبر من جمع

إلى فلسطيني بلا تخوم

إلى رجل حقيقي جداً

إلى عزمي بشارة

العبور إلى غرناطة اليهود

I

لو كنت يهودياً

لماذا أعبر من انتمائي، إليه؟ كيف أنتقل من فلسطينيتي إلى إسرائيليته؟ وهل سألتزم بأمانة الانتقال فلا أخلط بين نقيضين ولا أصير عدواً لي؟

يحدث أن عبوري إلى يهوديته في إسرائيل، لا يتناسب مع مواسم الدم الفلسطيني والانكسار العربي والضياع الثقافي وغلبة الفوضى واشتداد الظلامية القاسية.

يحدث أن عبوري وفلسطين في حالة يتم: العرب يروّجون لسقوطهم ويتبنون منطق الانهيار وينتظرون

الإقامة في بلاط السلام، خدماً صغاراً. الأحزاب تقشر كلامها الخشبي وتتمرَّن على صلافة القول تعويضاً عن الغياب المزمن عن دور فلسطيني، والمثقفون يروجون لعولمة كاسرة كقدر لا مفر من شروره ونعمه، والأنظمة تعرج على قمع إلزامي لشعوب ترطن في الجبن والعار.

يحدث أن عبوري إلى إسرائيليته، وفلسطين لم تعد عنواناً أوروبياً. فبعد مجزرة الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، دخلت أوروبا في بيت الطاعة الدولي، ورضخت لمنطق مكافحة الإرهاب، وباتت تختلف مع واشنطن على التسميات والتعابير وتحاول ألا تغضب الخطوات الأميركية في فلسطين.

يحدث أنني أجازف في الانتقال إلى العدو، وفلسطين بين يديه تموت كل يوم مراراً، وتنهض دوماً ضده وحيدة، وحيدة، وحيدة.

يحدث أنني ذاهب إلى أن أكون يهودياً، والانتفاضة بحاجة إلى أن أكون فلسطينياً جداً.

يحدث هذا.. فمن سيفهم رحلتي إليه والإقامة عنده وفيه ومعه؟ من سيصفعني غداً؟ أصدقائي أولاً، والمتربصون بي طبعاً!

ومع ذلك، فلي أسبابي في هذا الانتقال الاختياري والموقت، كي أمتحن اليهودي في محنته، لأعيش

هواجسه، لأعاين جراحه، لأتلمس يأسه، لأفهم أسئلته الوجودية، لأقنع بقلقه، لأفتش له عن مخرج، لأنتظر معه «غودو»، الذي سيزورنا دائماً، ويقول: لن آتي أبداً.

أريد أن أعرف إن كانت مأساته حقيقية. أريد أن أتأكد من عبث مصيره. فهو مصاب بخوف. يبدو أنه ينتمي اليوم إلى جيل الانهيار.

أريد أن أقرأ الأسئلة التي طرحتها الانتفاضة الثانية عليه، أريده أن يحدثني عن الموت واللذة والحياة، عن الشتات والاقتلاع، عن الرغبة بالسلام والقتل معاً، عن الدافع إلى الاستيطان، عن العجز عن التقدم خطوة نحو المصالحة مع الذات والعالم. أريد أن أتعرف إليه إنساناً ولماذا هو مختلف. واختلافه ميزته وأزمته.

إنه كائن مأزوم... ولذلك أنا ذاهب إليه، لأكتشفه بكل أحاسيسه ومشاريعه وأحلامه وكوابيسه، لأرى معه إن كان النفق كالحاً ودائرياً.

II

لماذا أصير يهودياً؟

كانت الفكرة غامضة، فمكان إقامتي الفلسطيني يريحني. البوصلة دقيقة الاتجاه. رفضت الذهاب مع بن لادن وتياره المفاجيء، والمضي معه إلى الانتحار والإجرام. رفضت الانتقال إلى أفغانستان والشيشان. رفضت الاستمرار في الطاحونة اللبنانية، وكلامها

المطحون والمعلوك والمجتر مراراً. فضلت فلسطين، لأنها واضحة جداً. الجملة تتألف من احتلال تواجهه مقاومة. لا يكتمل معنى الاحتلال بدون رفضه. الرفض يعطي الاحتلال مضمونه ومعناه ويفصح عن جريمته. بدون الرفض، يصير الاحتلال تواجداً، تحالفاً، ضرورة، تسامحاً، تدريباً، أمناً، استراتيجيا، مصلحة مشتركة. وحدها المقاومة تؤكد معنى الاحتلال... هنا كانت راحتي الفكرية، ومحبرة دواتي.

تعرّضت لسؤال في باريس، وكنت ملزماً بالإجابة. ولدي نصري يكمل اختصاصه الجامعي، وعدد من زملائه من اليهود اليساريين المتعاطفين مع قضايا العالم الثالث، ويناقشون ويتفلسفون ويملأون الحياة الجامعية فكراً وسياسة وصخباً، ولم يكن ولدي ليجرؤ على المناقشة إلّا إذا كانت مجدية. ولكنه لم يكن يجد السبيل إلى ذلك، وغالباً ما كان يؤثر اجتناب الحوار والعزلة، مما يعرضه لتهمة الغباء السياسي، أو الحرد الموروث، أو اللاسامية. فالصمت في مثل هذه الحالات إدانة.

حاول، ولكنه لم يقتنع بمحاولته، فسألني: كيف أتعامل معهم؟ فهو تربى على حرية المعتقد، والانفتاح الفكري، والتفتح الفردي، والاستقلالية، والرأي الخاص. وكان يعيش تناقضاً بين مبادىء يعتقدها، وسلوك غير طبيعي ومتكلف لا يقنعه. قلبه «ينقز» من الحوار مع يهودي مثقف ويساري ومن سلالة الهولوكوست، وتقدمي

جداً. لم يكن مدرباً على مواجهة الأمور ومعاينتها كما هي في الواقع، ولم يكن مخطئاً. فهؤلاء الطلاب كانوا، إلى جانب يساريتهم وتقدميتهم وفكرهم الحرّ، مؤيدين بحرارة لإسرائيل بالبديهة.

كنت أعرف عنه أنه حضر عدداً من الحلقات والمحاضرات التي زوّجت كل يهودي إلى الصهيونية، واعتبرت اليهود، كيهود من دين يهودي، أعداء لأمتنا منذ الولادة، وبسبب انتمائهم البيولوجي لهذا الدين، بمدلول «شعب الله المختار» و«أرض الميعاد» ولا خلاص لليهودي من صهيونيته، إلّا بإنكار دينه، وبعض المعتقدات الخاصة رفض ولدي هذا المنطق، بحس المقارنة. فالناس لا يختارون أديانهم. إن الدين يولد معهم في الفراش الأبوي.

ولدي كان يرفض هذه الحجج واعتزل سماع هذه الآراء المغلوطة.

تجرأت: «كن يهودياً. حاول أن تلبس شخصيته. ألست تدرس التمثيل. افعل ذلك. سترى عند انتقالك إليه أنك قادر على فهمه والقبض على مشكلته. ستتعرف إليه، إنساناً يتعرض في الشتات، للعذاب والاضطهاد والمحارق والنبذ والعزل واللاسامية. وهذا ليس ادعاءً ولا هو اختيار للمأساة، وليس كذلك انتداباً لمهمة سيزيفية تتقن تكرار العذاب ولعب دور الضحية. ستجد ذلك في قاعه النفسي، قد ترى في مواقفه من تاريخه مبالغة

وتجارة متقنة، لكنك لا تستطيع إنكار عذاباته وعزلته ولجوئه القسري إلى الغيتو. إن مأساته حقيقية، في اصطدام ثقافته بثقافة مجتمعات مختلفة، وفي اصطدام مصالحه مع بنية ذهنية دينية اقتصادية يتحمل فيها عبء سلوكه وأعباء ردود الفعل والفعل إزاء انتمائه».

قل لهم: «لو كنت يهودياً، لربما، ولعلى الأرجح، كنت مثلكم، إلّا إذا كنت يهودياً مستنيراً ونقدياً وميزانه بكفتين متساويتين، يرى إلى نفسه كما يرى إلى غيره ويتعامل مع الآخرين كما يتعامل مع ذاته».

قل لهم: «لكنت مثلكم... افتراضاً. ولكنني فلسطيني بالانتماء، فهل تستطيعون أن تكونوا فلسطينيين مثلي؟ هل تفهمون تاريخي الحديث، المكتوب بالدماء، على جلجلة شاهقة ومزمنة، والمسفوك بأيدٍ يهودية إسرائيلية، ويهودية منتشرة داعمة بالمال والإعلام والثقافة والانتشار الكثيف في مراكز القرار الدولي؟».

قل لهم: «إن عذاب اليهودي من صناعة لا سامية عنصرية أوروبية، بينما عذابات الفلسطيني من تأليف اليهودي في إسرائيل وفي الشتات. فكيف يكونون مع المظلومين في العالم ويؤيدون الظالمين في إسرائيل. بل، وينتسبون إليهم ويتبنون ظلمهم، ولو استطاعوا لقتلوا أكثر، ويسمون ذلك حضارة في مواجهة البربرية؟».

وأثمرت التجربة عبوراً، عرف فيه اليهودي أنه مظلوم

يظلم الفلسطيني، فيما الفلسطيني لم يصفع أحداً من قبل. ولم يتعلم فن ممارسة الحياة على حافة الموت، إلّا بعدما سُحق ودُمِّر وقُتل وشُرِّد واضطُهد وأُجلي عن أرضه، من قبل صهيونية وظّفت اليهود في عقيدة عنصرية أنشأت دولة على أنقاض وجوده الهزيل المتبقي كأطلال دامية.

حدث ذلك ذات يوم... وها هو أنذا أكرره، ولي أسبابي.

III

إعجاب ولكن؟!

لا أكتم إعجابي الشديد بمسرح يوجين يونسكو، ولا أخفي مشاعر الإعجاب بنتالي ساروت في إبداعات «روايتها الجديدة»، وأتشوق دائماً لقراءة بورخيس بدهشة وإعجاب، وقبل ذلك، انتميت في سنوات دراساتي الجامعية إلى وجودية جان بول سارتر وحفظت نصوصاً من مؤلفاته الفلسفية ومسرحياته وقصصه، إلّا أنني كنت أصاب بدوار وحزن شديدين، لأن هذه النخبة الإبداعية، كانت تسقط بكلامها، على عتبة المشكلة الفلسطينية.

لم أكن أجد سؤالاً لجوابي: لماذا تتبنى هذه الضمائر اليقظة مبادىء إنسانية عالمية سامية، وتدافع عن الضعفاء والمظلومين والمستعبدين والمحتلين، وتقف دائماً ضد الظلم والطغيان والدكتاتورية والاستعمار والاستبداد

والاستلاب، وعندما تصل إلى إسرائيل، تضع إشارات عسكرية، وتتحول إلى جنرالات وتصير كلماتهم رصاصاً وجملها جحافل، كأنها ولدت للتو من الترسانة العسكرية.

ظن سارتر أنه يريح ضميره بعد زيارة لبؤس غزة المثالي، ويرتاح في الوسط، عبر عدد من مجلته «الأزمنة الحديثة» وضعه بتصرف كتّاب إسرائيليين وفلسطينيين. ولكن هذا الحياد لم يدم طويلاً. فقد فضحه قبوله لقب دكتوراه فخرية من جامعة إسرائيلية، فبدا منتمياً إليها، فيما هو رفض جائزة نوبل للآداب.

يونيسكو ليس متعاطفاً مع إسرائيل، إنه يقطر تعصُّباً لها، ومقتاً للفلسطيني والعربي، ويتبنى يهودية إسرائيل الإنسانية ويرفض بربرية العرب. الفلسطيني إضافة شنيعة. وكتاباته عن الحرب اللبنانية تنم عن كراهية بيولوجية للفلسطيني الذي خرّب فلسطين وتسلّل إلى لبنان ليخطف وطن المسيحيين في لبنان، ويقترح حلاً «إنسانياً»، لا نجد له رديفاً غير الشذوذ، وهو التبعثر في القارة العربية الواسعة التي تتسع لهم، كما اقترح جان دانيال على قادة الثورة الجزائرية بُعَيد الاستقلال، وربما لم يدم ذلك في كتابه الأخير: «السجن اليهودي».

نتالي ساروت، تتخلى إزاء إسرائيل، عن المواربة واللمح الأدبيين وتلجأ إلى المدح والتمجيد، وتطحن بقلمها اللاذع الشعب الفلسطيني وتحمّله مأساة اليهودي والعربي لأنه خطيئة هذه الأرض.

يبدو أن هؤلاء يشبهون طلائع الغزاة التبشيريين، عندما كانوا مقدمة الاستعمار الكلاسيكي الأبيض، في أفريقيا والهند وأنحاء كثيرة من مواطىء أقدامهم.

عندما أقرأ قصائد بورخيس وأناشيده الحماسية التي تبرع بها للجيش الإسرائيلي في حروبه العدوانية ضد العرب والفلسطينيين أشعر بأن هاوية تفصلني عنه، ويلزمني جهد كبير، لأستعيد حيوية قراءته. وهذا ما يحدث معي عندما أسمع عبقري الأغنية الفرنسية سيرج غينسبور، وأعفو عنه أحياناً، لأنه خجل مما ارتكبه صوته في حرب حزيران/ يونيو. فأغنيته المؤيدة ليهوديته وإسرائيليته، لم تظهر إلّا بعد وفاته.

لم تقنعني الإجابات الجاهزة، التي اعتدنا تكرارها: «كل يهودي صهيوني... إلى آخر المعزوفة الدعائية التبسيطية الخاسرة والمهينة للعقل والمعرفة». وددت لو أعرف لماذا تتبنى هذه النخب الفكرية والثقافية والإبداعية طوباوية الثورات الداعية إلى التحرر وتقف إلى جانب استعمار استيطاني اقتلاعي عنصري في فلسطين؟ ألأنهم يهود؟ إن عدداً من الكتّاب اليهود، لم يقع في هذا التناقض المستفحل، فهناك نخبة موضوعية تنظر نظرة متساوية للقضايا المتشابهة. لماذا ألان غريش لا يشبههم؟ لماذا رفضت نخبة من عقول رجال ينتمون إلى الدين اليهودي أن توقّع بياناً يعبر عنها كيهود. لقد نشر بيان بأسماء عدد من المواطنين الفرنسيين، من الدين اليهودي، يرفضون فيه إصدار بيان باسمهم، كيهود.

فهم مواطنون فرنسيون فقط. دينهم ليس موقفاً ولا هو منصة لمواقفهم. تعبيرهم الراقي لا يحتاج إلّا إلى إنسانيتهم وانتمائهم إلى مبادىء أخلاقية وقيمية إنسانية. لقد وقّع ذلك البيان كل من المقاوم (اليهودي) ريمون أوبراك ورئيس سابق لأطباء بلا حدود روني بردمان والفيلسوف دانييل بن سعيد والطبيب اللامع مارسيل ـ فرنسيس كان والمحامية جيزيل حليمي والعالِم الرياضي لوران شوارتز والمؤرخ بيار فيدال ناكي، واستنكر هؤلاء إصدار بيانات بأسماء شخصيات يلجأون إلى انتمائهم اليهودي وليس إلى انتمائهم الوطني: «نحن مواطني هذا البلد حيث نعيش. ونحن مواطني هذا الكوكب ليس لنا الحق في التعبير عن آرائنا كيهود».

حاولت أن أجد جواباً: يهودية اليهود ليست شرطاً لتأييده للصهيونية ولإسرائيل. فعدد المؤيدين لإسرائيل من المسيحيين يكاد يكون أكثر من اليهود الصهاينة. يهودية اليهودي، قد تكون انتماء دينياً فردياً وحسب، وفق تصنيف ماكسيم رودنسون، كما قد تكون انتماء ثقافياً ولغوياً وحضارياً، وقد تكون أيضاً، انتماء إلى اليهود كجنس وشعب. وفي هذه الفئة الأخيرة، ينتظم عدد من الكتّاب والشعراء والمؤرخين والمثقفين اليهود في العالم. إن صهيونيتهم هي نتاج اختيار وانتماء إلى اليهود كشعب، لا تتحقق يهوديته إلّا في أرض، هي أرض فلسطين. لكن هذا الانتماء لا يعفيهم من معاينة الظلم. الذي ارتكبته إسرائيل والصهيونية بحق شعب بأكمله. ذلك أن الوثائق اليهودية المعلنة أشارت إلى هذا الظلم

ورواد الصهيونية الأوائل أشاروا إلى صعوبة قيام إسرائيل بدون اقتلاع الفلسطيني من أرضه، أي مبادلة الشتات اليهودي بتشتيت الفلسطيني عن أرضه. ولو أنهم يؤمنون بالمبادىء الإنسانية، بمهمة المثقف، لاستنكروا كيهود، ما ارتكبته الصهيونية وإسرائيل.

إن آراء يزرائل زانغويل كانت شائعة ولا يمكن تصور أن هذه الطبقة من الكتّاب والمثقفين يجهلونها: «لذا علينا أن نستعد إما لطرد القبائل (العربية) صاحبة الملكية، بحد السيف، كما فعل أجدادنا، وإما أن نتعامل مع مشكلة وجود عدد كبير من السكان الغرباء» و«إذا أردنا أن نعطي بلداً لشعب بلا بلد، فمن الحمق بمكان، أن نسمح بأن يصبح في هذا البلد شعبان. فهذا لا يجلب سوى المتاعب.. ثمة واحد من أمرين، يجب إيجاد مكان آخر إما لليهود وإما لجيرانهم».

إن هؤلاء الكتّاب ليسوا عمياناً عن قراءة نص قديم لبن غوريون، كتبه إلى موشيه شرتوك، رئيس اللجنة السياسية في الوكالة اليهودية:

«لو كنت عربياً ذا وعي قومي سياسي... لقمت على هجرة من شأنها بعد مضي زمن ما في المستقبل، أن تسلم البلد وأهله أجمعين إلى الحكم اليهودي. من هو العربي الذي لا يعرف الحساب ولا يفهم أن هجرة بمعدل ستين ألفاً في العام تعني دولة يهودية في فلسطين بأسرها».

هذه النخبة الفكرية ليست محايدة، فهي متورطة بتبني عقيدة أفضت إلى تنصيب شعب في أرض عاش فيها شعب آخر. عقيدة يقتضي نجاحها أن تقوم بطرد السكان الأصليين ظلماً، ومصادرة أراضيهم، ومنع عودتهم، وتشريدهم على مدى نصف قرن ونيف.

إن هذه النخبة الأدبية ساقطة من علم الإنسانية الأدبي. ويجب ألا يعتد بمواقفها أبداً، فهي منحازة، ومواقفها منخورة أخلاقياً.

وعلى عادتي في ملاحقة ومتابعة وقراءة كتّاب يهود وفلاسفة متفوقين قرأت ليرمياهو يوفل نصاً يعبّر فيه عن مأساته. فهذا المفكر اليهودي اللامع، صاحب المؤلفات الفلسفية المعمقة، لدى كانط والفلاسفة الألمان، وقع بعد الانتفاضة الثانية في حالة انعدام الرؤيا: «إننا نعيش أسوأ أيامنا»... حالة حصار... إننا نقرأ ألبير كامو. إنه الطاعون إذاً!

لم يكن متوقعاً أن يرمي يرمياهو يوفل، الشخصية الفكرية المرموقة في إسرائيل، رحى اليأس في معركة مصيرية لليهود، ولكنه فعل.

لدى قراءتي ليوفل، قلت: لا بد من الانتقال إلى الضفة الأخرى. وهكذا فعلت لأن اليهودي، الذي يقرأ كامو، على وقع الانتفاضة، يعيش حالة حصار وجودي. أردت أن أكون ذلك اليهودي، الباحث عن خلاصه ولا يجد الطريق إليه.

IV
كيف أصير يهودياً... إسرائيلياً؟

كان عليَّ أن أتجرد بصعوبة بالغة من الأحاسيس والمشاعر والانفعالات والحماسة والغضب والأحزان. كان عليَّ أن أتخلى عن التطلع عميقاً في الجرح الممتد من أول المستوطنات إلى اغتيال جنين ورفح ومحاصرة المدن والبلدات الفلسطينية حتى الاختناق. كان عليَّ وأنا أشاهد الشاشات تنقل الاغتيالات الجماعية للفلسطينيين بطائرات «الأباتشي»، أن أقرأ اليهودي وأتأمله وأفكر معه وله وعنه وفيه. كان عليَّ أن أنفصم: أنا للألم والغضب والتمرد والقبضة في فلسطين، وأنا الأقرب لمشاركة اليهودي في إسرائيل، مشكلته وأحاسيسه وانفعالاته وغضبه. وكان عليَّ أن أقيم فاصلاً بيني وبيني. فعندما أكون يهودياً، أكونه كما هو، بالدقة المطلوبة، أو كما أعرفها على الأقل. كان عليَّ أن لا أغفر، فيما أنا أقلب الصفحات: صفحة اغتيال فلسطين عام ١٩٤٨، صفحة التهجير الكبيرة، لثلاثة أرباع مليون فلسطيني بعد ذبح أهلهم ووطنهم وأرضهم، كان عليَّ أن أقلب صفحة العدوان الثلاثي على مصر، وحرب حزيران/ يونيو وهزيمة العرب المدججين بالكلام وصدأ الأسلحة وخرق القرارات، وقمع الناس. كان عليَّ أن أطرد أشباح بن غوريون وموشي دايان وغولدا مائير وليفي أشكول، كان عليَّ أن أجد حيلة قاسية لأستبعد عن ذهني وأطرد من قلبي صور اجتياح بيروت وعشرات آلاف القتلى والجرحى. كان عليَّ أن أجد معجزة تنقلني من مذابح صبرا وشاتيلا إلى أماكن أقل قتلاً.

كان عليّ أن أكظم غيظي السياسي والقومي والإنساني وما يفرضه عليّ ضميري، لأستطيع العبور مطهراً من مقدساتي السياسية، لأصل إلى اليهودي، كما هو، صهيونياً، مؤمناً بإسرائيل ويدافع عنها حتى القتل.

ولقد فعلت ذلك، بكثير من الجهد والقراءة والتأمل والصبر.
ولم يكن ذلك سهلاً.

استبعدت الذهاب إليه عن طريق الدين. فعلى الرغم من خصوصية العلاقة بين اليهودية والصهيونية، وعلى تماس تأويلي ما بين الاثنين، فقد آليت ألا أدخل من هذا الباب الخاضع للتفسير. فليس النص الديني اليهودي في مستوى واحد من التفسير والتأويل، فقد خضع مراراً لتأويلات متناقضة، حتى إن القراءات المتعددة لرموز «نشيد الإنشاد» تكاد تكون بالمئات، إلى جانب القراءات اليهودية والمسيحية والأدبية. وعرف الفقه اليهودي تفسيرات كثيرة، لما قيل عن وعد أقيم بين الله «وشعبه». منهم من رأى أن أرض الميعاد ليست من هذا العالم، وأن الشعب المختار، صاحب دعوة لإقامة الدين حيثما كان وليس في فلسطين.

قلت هذا باب يلجه غيري ولا قناعة لي به. فليكن دخولي إليه من باب السياسة. فصراعي ليس مع دين اليهود ولا مع أي حضارة. صراعي حول حقوق ونقطة دم على السطر.

يرمياهو يوفل فتح لي الباب، من ألبير كامو، وبطله ميرسو، عبرت إليه. من خلال حصار مدينة وهران عندما أصيبت بالطاعون، دخلت وأقمت في العبث والعذاب والانتظار معه.

اليهودي الإسرائيلي، بعد اندلاع الانتفاضة الثانية، تشظى. كان عليَّ أن ألتقطه وأن ألبس هيئته وبواطنه. إنه صورة الذي ينجو للتو من قنبلة تنفجر أو من حافلة تشتعل، أو من قذيفة تتصيّد. إحساس عميق بالخطر والخوف واللاجدوى. مشبع بالأسئلة، متورط في العنف. مؤمن بأن خلاصه بعيد، أو لا خلاص أبداً.

وبدأت أجمع من شتات الكتب والمقالات والدراسات اليهودية والصهيونية، ما أحتاج إليه في رحلتي مستبعداً السياسيين الذين يتقنون فن التعمية، تحت سيل وافر من الكلام المستعاد والمدروس والمنقّى والذي يخدم غرضاً آنياً. قرأت طلاق أموس أوز، رمزية بورخيس، نبوءة ميرون بنفنستي، يأس حاييم هنغبي، وداع الصهيونية مع أبراهام بورغ، اعترافات بني موريس الأبوكاليبتية، عسكريتارية برنار هنري ليفي، صهيونية دنيس شاريت، حلم شارل أندرلان المكسور، رحلة اليهود في عالم المال والناس لجاك أتالي، وشرب البحر في غزة لأميره هاس، وكيف تدمّر فلسطين لتانيا رينهارت، ومحاولات طوني جودت اليائسة لإيجاد حلّ، وإعادة امتلاك فلسطين لإيلي برنابي، وردود آن هاليفي الدقيقة والمقفلة.

تعمدت ألا أذهب إلى اليهودي، لأكتب ما لديَّ عنه، أو لألقنه أفكاري أو لألحقه بالكتب العربية. فضلت أن أعيش معه ثقافته وأفكاره ومشاريعه كإنسان بنى تجربته من معاناته ومن خلال قراءاته لكتّاب ومفكرين ومثقفين ومؤرخين يهود وصهاينة أحياناً.

لم أجعله عربياً أبداً. تركته في حاله اليهودية، وسط متاخه السياسي والثقافي المأزوم، الذي تتجلى تعبيرات أزمته لدى هؤلاء المفكرين ولدى سواهم الكثير من الكتّاب السياسيين.

كان عليَّ أن أكون هو من دون زوادتي المعرفية المستقاة من المراجع والأبحاث والتجارب العربية، باستثناء ما هو محمول ثقافي عام يمكن أن يكون مشتركاً بيني وبين الآخرين، مع وجهات نظر متباينة.

لم أذهب لأكون هو فقط، فذلك ليس من طبيعة المهمة التي جهدت لتنفيذها. فلقد حاولت أن أجيب معه عن الأسئلة التالية:

متى ينتهي هذا الصراع؟ أو، هل يمكن أن يكون له نهاية؟
كيف يمكن أن ينتهي؟ هناك شعبان يتنافسان على أرض واحدة. وهي لا تطيق غير شعب واحد.

هل يمكن إقامة دولة ثنائية القومية يعيش عليها الفلسطيني واليهودي في ديموقراطية وفي مساواة في

الحقوق والواجبات؟

هل مشروع الدولتين قابل للتنفيذ؟ وماذا عن عروبة فلسطين وصهيونية إسرائيل؟

هل كان المشروع الصهيوني نافعاً أو ضاراً باليهود، إذا اعتبرنا أن المشروع الصهيوني كان بالضرورة مدمراً للفلسطينيين؟

أما كانت الصهيونية تعد اليهودي بوطن مريح وآمن، فجاء حاملاً معه قبره ومعولاً ليحفر قبر الفلسطيني؟

هل إسرائيل قابلة للحياة؟ وبأي شكل؟ هل ستكون بشعة كما يقول بورغ؟ أم لن تكون أبداً، لأن عالم الديموقراطيات المعاصر لا يحتمل قيام دول وأنظمة على قواعد دينية تميّز بين المواطنين؟

هل سيستمر العنف المتبادل بين الشعبين؟
كيف تعيش إسرائيل في أجواء معادية، وبين شعوب لا تطيق وجودها؟
هل الاحتلال هو الحل، أم هو الغرغرينا الإسرائيلية؟
هل يمكن تفكيك المستوطنات لإقامة دولة فلسطينية أو ميني دولة؟

هذه الأسئلة وسواها، هي التي دفعتني أن أحصر قراءاتي في الفكر اليهودي الذي نشأ وترعرع في كنف الصهيونية، وليس خارجها أو معترضاً عليها.

زادي في رحلتي إليه، كانت أفكار معاصريه اليوم. لذلك جاءت شخصيته في هذا الكتاب فوضوية، متنقلة، متناقضة، عنيفة، مسالمة، مسامحة، إنسانية، عدوانية، إلى... لأنني أردته صورةٍ عن هذا التجمع اليهودي في إسرائيل. إنه ليس نموذجا. إنه يحمل وجوه الأسئلة الإسرائيلية القلقة والمأساوية والراغبة في الخلاص، بأي وسيلة: وسيلة العنف، أو وسيلة السلام.

هل كنتُ أميناً؟
لا أعرف.
هل كنت دقيقاً؟

حاولت. ولكنني لم أرغب في كتابة بحث أستعيد فيه أفكاراً بطريقة جامدة، وأعيد صياغة تحليلها في ضوء أفكاري وأفكار كتّاب عرب. بل أردت، كما فعلت في كتاب «بولينغ في بغداد»، أنسنة السياسة. أي أن أكتب الشعور والانفعال المصاحب للعقل السياسي. ولقد شجعني على ذلك اختيار دار فايار الفرنسية للنشر، لكتابي «بولينغ في بغداد» لترجمته إلى الفرنسية.

إلى أين وصلت؟
إن اليهودي في إسرائيل، يشك في أن يكون لأسئلته أجوبة. لا يعرف إذا كانت إسرائيل ستبقى يهودية؟ لا يعرف إذا كانت إسرائيل كيفما كانت ستبقى. ولا يعرف إن كان السلام ممكناً، وما الثمن؟ وكيف

ستكون علاقته بالفلسطيني، وبأرضه، وبالشعوب العربية الأخرى؟

إنه كائن معلق... يؤمن بالعنف خبزه كفاف يومه... وليس كفاف مصيره.

٧

ماذا بعد؟

أنا مدين في رحلتي هذه لمن فتح عيني على الجرأة وعلى تحدي الممنوع السخيف والعقيم. أعترف بأنني لولا نصاعة فكر ومواقف عزمي بشارة، لبقيت آسناً في سبقيات عنيدة، أقعدتني سنوات عن معرفة فلسطين الأخرى، فلسطين المحتلة أولاً، والمحتلة ثانياً. ما شجعني وسهّل عليَّ المهمة عمقه الإيماني والمعرفيّ بالقضية القومية، طريقته الحرة في استعمال آليات متعددة وأساليب مختلفة، مستمدة من أدوات الواقع المتميز. فهو الذي نقلني كي أذهب، بدون ذنب، إلى اليهودي، وأعود إلى الفلسطيني، أكثر وثوقاً. عندما تتعرف على مأزق الإسرائيلي الوجودي، وتقارن بينه وبين مآزقك الكثيرة، تتنبه إلى أنك على أرض صلبة، فيما أفكار الأرض والدولة والمجتمع، والبقاء، تميد تحت إيقاع الحدث الفلسطيني.

عزمي بشارة أعاد إلينا الشطر الفلسطيني الذي وضعنا أهله في قفص الشكوك وتعاملنا معه بإنكار فظ. دعانا عبره، لاكتشاف فلسطين، وعرفناها منه وعبره كثيراً.

لذلك، اخترت إهداء الكتاب إليه، وفاء وتقديراً ومحبة وشكراً.

أما بعد...

أشكر الزميل حلمي مدرس، لأنه أعطاني مفاتيح الخزنة الإسرائيلية، عبر ترجمته لمقال ميرون بنفنستي وحاييم هنغبي. كان هذا المقال، دليلي لاكتشاف تانيا رينهارت ويرمياهو يوفل وسواه من الكتّاب اليهود، الذين يطرحون اليوم، أسئلة المصير.

أشكر من شجعتني على المثابرة، وأمّنت لي الظروف الملائمة لتأليف هذا الكتاب، أشكر ناهية رفيقة الدرب الطويل، والتي عارضت ونقدت ورفضت الفصول الأولى من الكتاب، بحجة أنني يهودي وقاسٍ ومعتدٍ. أشكر ولدي نصري، فتجاربه في الغربة حقنتني بجرأة، فدفع ثمنها كتباً اختارها لي من مكتبات فرنسا. أشكر روني ألفا الذي ساعدني في ترجمة فصول هامة عن الفرنسية. كما أشكر الآنسة ميليا جودت إبراهيم، لعنايتها بطباعة وتصحيح المادة قبل دفعها إلى الطبع.

القسم الأول

لو كنتُ يهودياً

1

القبور المتبادلة

في كل يوم يمضي في كل يوم آتٍ
يستيقظ هذا الشعب وسط حلم
يقيس الزمن الذي بقي له
النوم والنظر عنده ألمان توأمان
يقيس موته في كل يوم آت

.....

غرناطة في عذابها لا تأمل بصباح
أراغون ـ مجنون إلسا

«سأقتل عربياً، أو عرباً. ميرسو الأبله في «غريب» ألبير كامو قتل عربياً لسبب تافه، وربما، بلا سبب، وصار بطلاً. هذا ترف أدبي. كلمات. رواية كاذبة. ابتداع مسلٍّ لنقد يحترف العبث».

«أنا لديَّ عشرات الأسباب لأقتل أول عربي ألقاه في أي مكان. لدي عشرات الأسباب لقتله عشرات المرات دفعة واحدة».

وقف أمام المرآة، فامّحت العبارات عن وجهه. تثاءب قليلاً، فلم تقلّده المرآة، كأنها لم تتعرّف عليه. اختارت الحياد الباهت. مارست صمت الحركات. بدت فراغاً أبيض لا يبحث عن شكل أو لون.

قال: «كل شيء تغيَّر. لا بد من حذف ما».
البارحة تعرَّض لنوبة سكر، احتفالاً بالخراب. انفجارُ الحافلة بركابها في شارع مكتظ بالحياة، قذفه بعيداً. دفعه للبحث عن مكان إقامة جديد. أيقيم في الفزع؟ أيحتضنه الرعب؟ أيلازمه الهول؟ أيستضيفه الموت المؤجل قليلاً؟ أيكون ليله في النهار؟ قال: «سأتخذ اليوم قراري. لن أفرَّ إلى الضياع. لا شفاء لكم مني. سأطاردكم حتى آخر الحياة».

كان على وشك الخروج من بيته المشطور بين غرف عرفت أفراحاً وغرف دهمها بكاء مفاجىء، يحضر بعد كل مقتلة. الحافلة التي اغتالت طمأنينة المدينة، المشاهد التي نقلها بث مباشر شره لصور الإثارة والبكاء المترع بالدم الأسود وشظايا الصراخ وصفارات سيارات الإسعاف والأغطية البلاستيكية والجثث المحترقة والممزقة والملفوفة بأكياس مجهزة سلفاً... الأعضاء الموزعة بين حثالات زجاج منكسر بطيش المفاجأة وإسفلتٍ يستيقظ على دهشة البلاط الذي تنازل عن أرصفته وتبعثر في فوضى الانفجار... الواجهات المبتورة كالعيون الأسطورية العمياء.... كل تلك المشاهد الفظة، دفعته إلى اتخاذ قرار حكيم: «سأتبنى الجنون».

لم يكن بحاجة إلى جهد كبير لتبرير ذلك: «اليوم قد أُقْتَل، أمسِ لم أُقْتَل، غداً من ينفذ وصيّتي؟».

«أنا اليهودي في إسرائيل قررت أن أسمعكم ضجيجي. أن أقلق راحتكم، أن أزعق في وجوهكم، أن أعلن عصياني على مصيري الأسود. لا يهمني إن كانت ولادتي كيهودي فألاً حسناً، أو عبئاً على البشرية. أريد أن أحيا. وكبشر لي الحق في ألا أموت، في ألا أطارد، في ألا أقتل، في ألا أحرق، في ألا أعيش في غيتو، في أن أكون سوياً. ولا أرغب في أن أكون جلاداً. التراجيديا ليست قدري».

نزع عنه وجهه. فهمت عليه المرآة، وقلَّدته، وبانت عارية كلياً. تُرى ولا تَرى. أعاد ترتيب أعضائه بشكل معقول. ثم: «لا اسم لي بعد اليوم. أنا كل الأسماء. لا أرغب في التعرف إلى أحد. لا أحب أن يرانى أحد كما كنت. سأرى الجميع، واحداً واحداً، أو جموعاً جموعاً. سأخلع عني اسمي، كمن يخلع ثيابه المعروقة التي تعرف أنفاس مسامه وأسرارها. سأقاوم انحرافاً قد ينتابني لانتقاء لقب ما أتفيأ حروفه. لا. أريد الخروج مني إليَّ. أريد أن أعرف نفسي من خلالكم. أريد أن أعرفكم من خلالي. يحق لي ذلك. سأخرج من الحصار الخانق والدامي. المحاصر يشبه مدينة يضربها الطاعون من الجهات الخمس، بشكل مفاجىء وسريع. والمدينة المحاصرة، تشبه كذلك الإنسان في أيامه الأخيرة ـ أراغون يضعني في موقف درامي: حصار مدى الحياة ـ أنا لم أصل بعد إلى آخر أيامي. لم أتسلق حياتي كلها. لم أصل إلى طرف الأمكنة كلها. لم ينهكني العمر. لن ألقي التحية الأخيرة باكراً، أو قبل الأوان: «وداعاً أيها العالم».

لا اسم لي. أنا يهودي في إسرائيل. وهذا يكفي كهوية تعرفونني بها. يشبهني الكثيرون من أبناء جيلي، وأبناء الجيل الجديد. تربيت

على مثاليات الصهيونية، والوطن السماوي، والخلاص المشترك. ولكنني اليوم، سأداوم في إعادة قراءة حياتي، علّني بذلك أعثر على جواب لسؤال: «متى ستقفل هذه الجحيم هنا أبوابها؟».

عندما ينفجر فلسطيني في أحياء المدينة، على عتبات الحوانيت، داخل قاعات الرقص، في ملاهي الأفراح، تحت النوافذ والأسرّة، يخلّف أحقاداً ميؤوس من شفائها، ويبدد أجساداً وملذات طيبة. كان اليهودي الذي بات بلا اسم، يعتصر غضباً وحقداً ويحاصر دائماً بحمّى الأسئلة: «هل اليهودي، كي يكون إنساناً جيداً يجب أن يكون ميتاً؟ أهو منذور للمحرقة أم عليه كي يبقى حياً، أن يحفر قبوراً للآخرين؟ لماذا أنا مختلف، أو لماذا يرونني مختلفاً؟».

وكان الذي صار بلا اسم يغرق في إدمان الاستحالة. فلا إجابات لأسئلة ملحّة تكشف له المعنى. لا يريد المعاني السياسية فهذه تحمل أحجاماً من النفاق لا طاقة له على احتمال تصديق نسبة يسيرة منها. غير أنه تمسك بالبحث. قال: «أنا أبحث إذاً أنا موجود». سأبدأ من لحظة ما، ولا بد من إعادة ترتيب الأيام والأزمنة والأحداث، ولا بد من استدعاء الشخصيات والحوادث والآثار المكتوبة لأجد الجواب».

«سأفعل، مهما كلفني ذلك من مشقة الإنكار والقبول أو التنازل أو ممارسة الجنون، أو قتل أول عربي ألقاه، أو فهم لماذا أقتله كلما رأيته، مراراً بالنوايا، ومرة بالطلقة».

اهتاج لما تذكر ما حصل أمس. أصيب بمس صاعق عندما انفجرت الحافلة، وتدلت الأجساد من ثيابها، وتوزعت في دخان ملتهب.

قال:
«يلزم أن يتوقف البرابرة عن حثالاتهم المخزية. إنهم يقتلون كالعميان. يا إلهي، من ينقذني من هذه اللعنة؟ ما زلت ممتلئاً بالشهوات والرغبات والأحلام. كنت أظن أنني سأكون عبقري الأيام العادية. فلا زلت ألاحق أحلامي وأتذوق طعمها وألامس أوهامها السخية بكثير من الشغف... أتدفق ميولاً. أبحث عن يوم يفوق بقامته الليل والنهار. يتفوق على الأربع والعشرين ساعة. أنا مفتون بالحياة حتى الثمالة. أحبها لنفسي بأنانية جميلة، ولغيري بغيرية بهية. لديَّ مشاريع لا حصر لها: سأحب كمن لا يكسل عن جنس القبل. سأمتع حواسي الخمس بكل الأجساد المتاحة والثمار الحلال والحرام، بلا ندم. الليل المتأنق بملذاته سيكون ملاذي. النهار المفطور على ابتسامات الصباح، سأجعله مرسوماً على تقاسيم حياتي. الصبايا اللواتي يراودن الحبل الكاذب، سأجعلهن قصائدي المكتوبة بمسام الفراش ولمس الشراشف العارية. المسرح المنتظر: «غودو»، سأدعوه للحضور كل يوم ليقول لي: سآتي غداً. الطعام المتشوق إلى لذة الأفواه سأنذره إلى متعة الشراهة... نعم. لديَّ أمنيات معصومة من البؤس: الرحلة إلى كل العمر مصحوباً بذكريات الشواطىء وثرثرة الأعشاب، وعناق أجنحة الطيور ترتمي في الأزرق السماوي، وإنجاب أولاد لا ينكرهم فرح، وابتداع عائلة تكون دائماً أوسع من البيوت والشرفات والحدائق العامة».

من المتوقع أن يكون الرد الإسرائيلي نموذجياً في قصاصه. صوت المذيع في القناة الثانية ينقل صور القصف لمدينة غزة. ينتقل إلى رفح. يبيد حجارتها. يبدد سكانها. يصوب ألفاظه إلى مخيم بلاطه. يتصاعد منه صراخ وأنين. يتوغل في نابلس. الدبابات الجميلة تنتقم. الطائرات تثأر. «قوس قزح» دموي يدشن ليلاً

فلسطينياً عتيقاً دائم الحضور. ها هم الفلسطينيون يخرجون مع إلههم الكبير إلى الشوارع، يتدفقون حول النعوش الخضراء كنسلٍ فوضوي. ثم: اللعنة! «الجنيريك» يعزف إيقاعاً غير ملائم للانتقام أو لشفاء الأحزان. ثم: اللعنة! المحلل السياسي يتحدث عن عشرات العمليات الانتحارية القادمة.

هكذا أقفلت الدائرة. الحصار بدأ مرة أخرى. متى يبدأ الخط المستقيم أو الخط المتعرج؟

يقفل الشاشة ويتعرى من اليقين، ويجلس على حافة لسانه:
«لماذا أدخلوني في جوقة التراجيديا؟ كومبارس إلزامي!؟ كنت موعوداً بوطن مريح جداً، وطن أعيش فيه كيهودي، بعيدٍ عن المذابح المنظمة ضدي في أوروبا، بعيدٍ عن رعب الإبادات في الهولوكوست، ناءٍ عن اللاسامية الأوروبية المستفحلة على مدى قرون، مطمئنٍ إلى أنني بلغت بلداً آمناً، بعد شتات محفوف بالكراهية، وعلامات فارقة إلزامية تتصيدني في شوارع فارصوفيا وبودابست وروسيا وبرلين، ومدن أوروبية ناصعة البياض العنصري ... كنتُ موعوداً أنني سأجد وسادة ألقي عليها ترحالي المأساوي المضطهد، وأعيش في وطن أستعيده، بعد حنان موروث، منذ السبي الثاني، أي منذ ما يقارب الألفين من العذاب والأشواق».

يتنفس خوفه:
«جئت حاملاً الوعد. فلماذا أنا وليمة الموت يقتاتني بنهم فج؟ لماذا يطاردني الانفجار كوحش داشر أو كلغم سري ويجعلني ألوذ كالجرذ بين فخديّ؟ قيل لي وصدّقت، إنني موعود بوطن على

قياس راحتي وبمقام عذابي. وجئت من كل الأمكنة إلى هنا... لأعيش، لا لأُقتل. تمتعت بقناعة لا تهتز، إننا دولة الخائفين على مصيرهم ووجودهم والتي تخيف الآخرين كثيراً، ومع ذلك فأنا أرتجف من الرعب، ويطاردني ظل الموت الجاف. أتحسسه في جلدي. كلما لمحت وجهاً أسمر السحنة، عاقد الحاجبين، وشعره يستدير كأنه أسلاك شائكة، وعيونه كثيفة التطلع، وجسده مغطى بقماش لا لون له، أظن أنه يخبىء تحته موتي».

يعود إلى نقطة البداية يرتب أفكاره المتعثرة، و:
«أنا اليهودي، يلزمني وقت لإعادة طرح الأسئلة واستقراء الأحداث واستدعاء الشخصيات التي صنعت لي مصيري. هل قلت ذلك قبلاً؟ حسناً! سأكرره. لا مفر من قرار يبقيني على قيد الحياة، أنا، ومن يشبهني، ومن يعيش مثلي في هذا الوكر، في هذا الوطن، الخائف والمخيف. أقول: لا مفر من ذلك، لأنني أخشى أن أستيقظ ذات يوم قريب، وأجد جسدي مبعثراً من شباك حافلة محترقة، معدنها ممزق كورقة ممسوسة، أبحث عن عيني فأجدها معلقة على نافذة أغمضت شبابيكها على سواد ودخان. أبحث عن يدي، فأتركها كي يصافحها مسعف جاء يلمها ليوضبها في كيس بلاستيكي ذي برودة حيادية، لا يشبه شفقة القماش وحنان القطن الأبيض. لا أريد أن أنهض ذات يوم، وأجد قدمي على رصيفين نائيين، لا ينتظمان في إيقاع المشي. لا أرغب أبداً في أن أتبعثر في ملاءات تحمل إلى مستشفى مختص بإلباس الجثث: العلم الإسرائيلي الفضفاض. إنني مستعد أن أبيعكم أشيائي كلها، مقابل أن أموت كما يجب. أريد أن أموت بعد اكتمال الثمانين، وأن أمنح ميتة تشبه بلوغ نهر سخي التعرجات والانحناءات والثرثرة إلى بحره الحميم. أريد أن يصلني الموت كقبلة أصيبت بإغماءة الشفتين على

جسد سخي العري والشهوات والحواس والهوس. أريد موتاً يشبه لحظة التلاشي بعد أوان الجنس وقبل ارتداء الثياب، والحمام الساخن، والصابونة العارية، والزبد المنطفىء، والشهوة الخاسرة... هكذا أريد أن تنتهي حياتي».

يحلم بكامل وعيه بيوتوبيا الموت الجميل:

«أطمح إلى موت هادىء بعد حياة صاخبة تحاذي الجنون، أتقدم إليه كمسنٍّ يعرف أن من الحكمة تمرين العينين على النوم الطويل والهدوء الساكن ولذة الجلوس الفارغ والانتظار تحت شمس زائلة. هكذا يكون الموت جميلاً أنيقاً فاخراً ولائقاً. لا أريد أن يقتلني البرابرة... الآن، أو بعد قليل. إذا كان ذلك حتمياً، كما يبدو لي، ورهين الصدفة فقط، فسأختفي. أنا الذي لا اسم لي، أرغب في أن أخبىء جسدي كذلك. سأغمره بحنان وأضعه في مكان آمن، في ذاكرة مريحة. سأحتضنه بأنوثة غامرة وأحتفظ به شهياً. لن أعيده إليَّ إلّا بعد الاطمئنان على سلامة الطرقات المؤدية إلى يقين الإجابات الصعبة: متى يحل السلام؟ متى أشرب القهوة المرّة على الرصيف بلذة ونهم وأتحول إلى سائح أجول في بلادي من الجليل إلى النقب؟ متى أشعر بأن الذي جئت من أجله قد تحقق، وأن جسدي ليس مباحاً، لأنه يهودي... يا إلهي! من أباح هذه البلاد النبوية للدم القاتم؟».

كأنه يقرأ شهادته أمام نفسه ليبرر قراره:

«لا، لست جباناً، شاركت في حربين، خرجت بوسام وعدد من زملاء لي، فقدتهم على جبهة الشمال».

«دخلت بيروت وعرفت طعم الانتصار على عاصمة، ومرارة الهزيمة عندما خرجنا منها، هاربين من غضب البنادق الغادرة. خدمت في

جنوب لبنان، قبل أن يتحول إلى وادي الدموع وننسحب منه في «يوم العار». لا، لم أكن جباناً. كنت جندياً صارماً عندما تدعو الحاجة، أقاتل بشراسة، وأستغل طاقة الأسلحة حتى ثمالة القتل. إنما في ساعات وقف إطلاق النار، وفي فترات المناوبة والاستراحة، أو في لحظات الهدوء على الجبهة، كنت أطرح على نفسي أسئلة سياسية كالهواة فقط: متى نعود إلى بيوتنا؟ لماذا علينا أن ندافع عن بيوتنا في الأمكنة البعيدة؟ هذه هي الحرب الخامسة، فهل ستكون الأخيرة؟ ولم أكن أجد جواباً، ولكنني كنت أسأل متمنياً الشفاء من حالة القتال. وأحياناً كنت أكتب على أعقاب البنادق كلمات كثيرة: غناء، أناشيد، رثاء، وكنا ننشد معاً، بحناجر محاصرة، كلمات تنم عن رغبات فائقة بالحياة. وأحياناً، كنت ألامس النقد، وأتجرأ على التعبير بصمت مطبق: متى أعود؟ أبي ينتظرني، وقد فقد جزءاً من عمره في القتال. أمي المريضة بحاجة إلى من يطمئن قلبها المعطوب بحنان حزين؟ وكان العنف الذي يحيط بي يوقظ فيَّ جنوناً إلى استعجال السلام. فالجندي المقاتل في الجبهة، وسط المعارك، يعيش تجربة فريدة وصحيحة مع الحياة والموت كتوأمين في اللحظة ذاتها، ولكنه يحاول النجاة بكل ما أوتي من حيلة وقوة ومكر وقتل، وأحياناً جريمة، وتوق إلى الهرب وشغف بوقف إطلاق النار، والعودة إلى أقرب حانة لكرع كوب من البيرة. ومداعبة صديقة مشتاقة وعناق أحبة أنهكهم خوف قراءة اسم ولدهم في لائحة الموتى... أو المفقودين».

يفكر:

«حدث ذلك عندما كان النصر طربنا الأصيل، ونشيدنا اليومي وخبز كرامتنا ومنصة لتوسيع رقعة بلاد ضيقة ليهود، يقال أن بهم شوقاً مدمناً للصعود إلى الهيكل».

يندم اليهودي البلا اسم والبلا جسم:
«أرض الوعد التي عدنا إليها من أصقاع نائية، وبلغات مختلفة، وصلوات معتقة. أرض العهد والوعد هذه التي اشتقنا إليها ألفي عام، لماذا صارت أرض القبر؟ لماذا يحمل اليهودي هنا قبره في جسده؟ كنت موقناً أننا سنكون أمة رائعة، لشعب نابغ حافظ على الوعد والعهد».

واستعاد اليهودي أسئلته:
«بعد نصف قرن، صرنا البلد الفائق القوة، الفائق السطوة، الفائق الأخلاق، الصديق المتقن لأعظم قوة كونية عرفها التاريخ... ومع ذلك، فإننا نعيش مطاردين في أسرتنا، والعرب الذين هزمناهم في كل المعارك، لم يستسلموا أو لم يرفعوا الأبيض، ولا رأيناهم حمامة تطير. إنهم قبضات تولول بالحقد والقتل، وتستدعي المعارك الأبدية. لا أقصد حكّامهم الفارغين، بل تلك الشعوب التي تحتل شاشات التلفزة بأقوالها المتعطشة للثأر. أما الفلسطينيون الذين قاسمناهم الأرض، فقد تكاثروا برغم فظاعة وقسوة حياتهم اليومية، وهم يهددوننا بالعودة، ويمارسون الانتفاضات البائسة ويقتلوننا في شوارعنا. يا إلهي! حكّامنا وعدونا بعد كل حرب، وبعد كل معركة، بالتوقيع على السلام، ولم نحصل بعد هذه الانتصارات الساحقة، على أمن يتيح لنا أن نأكل وجبة بلا مرارة. إن الوحوش تتجول بين أجسادنا الطرية... إن لها أسناناً أقوى من قنابلنا الذكية، وهي تنهش ما تبقى من جرعات الأمل بحياة طبيعية، أو أدنى من ذلك بقليل. إن ساعة الحقيقة قد دنت، وعليَّ أن أكون مستعداً لدخول المسرح وإغلاق الستارة أو لطلاق الجمهور. سأجازف وأبحث عن الدور الذي كتب لي ولسواي، وأسأل: لماذا كان نصي دامياً وسلسلة من الأوجاع والولادات المستحيلة؟ لماذا لا يحتضن

نصي فقرة وحيدة: «وداعاً للسلاح»؟ لماذا نُذِرْتُ للحروب عليَّ والحروب على الآخرين؟ سأجازف وأبحث عن المؤلفين وعن الأنبياء الذين ارتكبوا حقوقاً لا تغتفر. سأبحث حتى ولو كان طريقي سيقودني إلى الجحيم كأورفيوس ودانتي. سأجرؤ على الممنوع، حتى ولو كنت أتوقع أو أتوجس سقوط غرناطة اليهودية في فلسطين والخروج من أندلس أورشليم التي نتمناها بصدق الوعد وقبضة الرعد وعرق الجباه وسلاح لم يهدأ عن النطق بالقوة».

«المسرحية أفضل محاكمةً. ستكون سريعة جداً. سأسمع الشهود وأتقصى الحقيقة. أملك حقاً طبيعياً في استدعاء من صنعونا وابتكرونا شعباً وأبدعونا وطناً فريسة. من حقي أن أواجه الجميع بوثائق وأقوال أحياء وأموات. من حقي إعادة السيرة الذاتية لهذا البلد، وفهم مقاصد الكتّاب والشعراء والأدباء والروائيين. من حقي استدعاء أجدادي كلهم ليقدموا لي أو لنا، تقريراً يفيدنا في معرفة مآلنا، وما وصلنا إليه، وإلى أين سنصير. من حقي لأنني كنت وفياً جداً لخياراتهم ومبادئهم ومعاركهم وحروبهم. كنت يهودياً كاملاً وإسرائيلياً ممتازاً. من حقي أن يشرحوا لي لماذا أنا مقيم اليوم في الجحيم بعد وعود النعيم؟ لماذا هذا الفردوس اليهودي يشبه الخطيئة الأصلية التي لا تغفر ذنوبها، مهما صدقت الكفارات؟».

يحزن ويكاد يبكي أمام مشهد المأساة القادم:

«ساعدوني. من واجبكم أن ترأفوا بي. اصدقوا معي. أريد أن أسمع الحكم منكم عليكم، قبل أن أنطق به على نفسي. مهما كان هذا قاسياً. أريده حكماً عادلاً. كي أستعيد اسمي وأنتمي إلى وطني وأتصرف ببقية عمري بأسلوب إنساني راقٍ، لا أكون فيه قاتلاً أو مقتولاً. أشفقوا عليَّ قليلاً، فأنا متعب من الأسئلة إلى درجة أنني

أرى في هذا الغموض الأسود، مراسم دفني تتكرر كل يوم.

«سأطرد عني الدماء. لا قيمة في رتب المعرفة والوعي بعد كل هذا الجنون. رجاء اسمعوني. الآن سأنادي على الأسماء التالية:».

2

من أقتل يا بورخيس؟

أنا البائس الذي مثل المرايا
تعكس الصور ولا ترى
.....
أمسى كل شيء مظلماً في غرناطة
جناح أسود يجر نفسه على أكعب التلال
فلا يرى المستقبل يلتهب
والحاضر يخبئ كل أشعة الروح
تنطفيء المرايا
الكل ليل، حتى الصباح نفسه
آراغون ـ مجنون إلسا

أنقذني يا بورخيس من عماي. أضئ لي عدوي. قل لي من أقتل. أنت ابتدعتَ قتلاً إنقاذياً. هلاّ ساعدتني على اختيار ضحيتي، ونسكب بعد الخلاص منها دمعتين، ونتعانق كقاتلين، بأخوة بائسة، كما حدّثت قرّاءك عن الأخوين كريستيان وإدواردو

في كتابك «تقرير برودي»؟

من حقك أن تسألني لماذا اخترتك أنت، وما علاقتك بي وبمشكلتي المصابة بجنون التكرار. بكل احترام أقول لك، اخترع لي ضحية أخرى. فما جئتَ به في قصتك، جريمة سهلة متقنة الصنع وجاءت غير متوقعة. وهي جريمة لا تفيدني أبداً. لا أطلب منك ذلك لأنني مجرم. بل أنا مجرد إنسان أبحث عن حل لمشكلتي بغير القتل. وإذا كان لا بد من القتل لمرة أخيرة، فسأنفذ المقتلة بكل صدق وقوة. أنت عبقري الحبكة والقص، ساعدني في البحث عن المخرج وعن النهاية السعيدة، بقليل من الدموع التي تمسحها مناديل النجاة والمواساة.

الأخوان نلسون، كريستيان وإدواردو، يمضيان أيامهما معاً، دائماً معاً، لا ينفصلان ولا ينفصمان. توأمان في واحد. يكدحان معاً في عمل روتيني. يزرعان، يحصدان، يبيعان، يمتطيان الجياد... أربعة سواعد وأربع أقدام، وقلب واحد. يتقدمان من الحياة بشهية ورجولة. يخافهما الجميع. من خاصم واحداً فقد اختصم مع الآخر، وجرّ لنفسه معركة حاسمة. الأخوان نبعا ماءٍ ينسحبان من نبعيهما بأفراح زائدة وجلبة لا بد منها.

أخوان يعيشان بقلب واحد.

لا تسألني لماذا اخترت هذه القصة من بين مئات القصص الرائعة التي كتبتَ. قد لا تعجبك طريقة سردي المفذلكة لنصك الهادىء والمتقن والعاري من جماليات متعبة وزخارف إضافية، فمن عادتك أن تكتب وقد تعريت من جموح اللغة. الجمال عندك ولادة غير عسيرة، بل هي ولادة لذيذة وسهلة، كأس ينسكب كأنه يلتهم من

شوقه الشفتين للمرة الأولى، يسكر النبيذ من طعمها. إنما هذه المرة لم تقنعني قصتك أبداً، أولاً لاختيارك الرائع للضحية، وثانياً، لأسلوب القتل. إنه قتل جميل.
قتلنا اليومي الذي نَفتك به ويُفْتَك بنا، هو من أبشع ما اخترعته البشرية.

ما علاقة هذه القصة بمشكلتي أنا؟
سيدي. ظننتُ أن اختيارك للضحية يخرجني من بؤسي وخوفي، ينقذني ويخلصني، أنا الجالس هنا داخل أفق مغلق من جميع أبوابه والجهات.

تريدُ أن تكمل قصتك كما رويتَها؟ سأصغي إليك:
«أحب إدواردو فتاة جميلة كان قد استقدمها إلى المنزل أخوه الأكبر كريستيان. فلما عرف ذلك قال لإدواردو: سأترك لك جوليانو. إن كنت تريدها، فخذها.

ومنذ ذلك اليوم أقاما معها معاً. اقتسماها في الليالي، ولم يكن أحد يعرف تفاصيل هذا التدبير الثلاثي الذي أثار الشكوك في الحي. ومع ذلك فقد سارت الأمور سيراً حسناً لبضعة أسابيع، إلى أن اكتشف الأخوان أن صمتاً ثقيلاً حلّ بينهما. فلم يكن الواحد منهما يلفظ اسم جوليانو أمام الآخر. وتبين لهما، أنهما يختلفان على أتفه الأسباب، ويستدرجان أسباباً أخرى لاستمرار الخلاف. فاختلفا حول البيع، وتشاجرا حول الحيوانات... ولكن خلافاتهما كانت متأتية من مكان آخر. من جوليانا طبعاً.

كان الحسد يأكلهما. كريستيان الأكبر يصرخ في وجه أخيه، فيلوذ

إدواردو بالصمت والقهر والغيرة.

كان الأخوان عاشقين لامرأة واحدة ويتقاسمانها بالتراضي... ولم يكن ذلك ليدوم إلى الأبد. فهي إما له أو لأخيه. فلمن تكون؟ وفيما كانت جوليانا تخدمهما، وتمارس معهما طاعة حيوانية، لم يكن باستطاعتها أن تخفي حبها لإدواردو.

ذات يوم، ومن دون كلام، طلبا من جوليانا أن تضع كرسيين في الدار وألا تمر بالمكان، لأن بين الأخوين كلاماً لا بد من قوله. بعد قليل طلبا منها أن تحزم أمتعتها وتأخذ معها عدة الصلاة: المسبحة والصليب. ومن دون أي تفسير أوصلاها إلى العربة ومضيا في سفر متعب أثقله صمت الثلاثة معاً.

وباعاها لحانة وقبضا ثمنها وعادا فرحين معاً إلى المنزل في قريتهما. وسارت الأمور بودٍّ بينهما. إلى أن برزت لديهما عادة الغياب عن البيت بالتناوب وبشكل دوري تقريباً. تارة يغيبُ إدواردو وتارة كريستيان. وذات يوم، فيما كان كريستيان يتسلل إلى الحانة للقاء جوليانا رأى فرس أخيه في الخارج. فدخل الحانة وانتظر دوره ريثما ينتهي أخوه من وصالٍ معها.

قال كريستيان لأخيه: سنتعب كثيراً على هذا المنوال. من الأفضل استعادتها لتكون معنا. وهكذا صار. دفعا المال واستعادا جوليانا الجميلة. وظنّا أن الأمور ستسير على ما يرام. غير أنه تبين لكل واحدٍ منهما أن الكذب سائد والغش منتعش والاغتياب دائم والخيانة مستمرة.

انتهى الأمر. جوليانا أفسدت ما بين الأخوين مرةً أخرى وبشكل عميق.

ذات يوم آخر قال كريستيان لأخيه الصغير:
«هيّا إلىَ العمل. سيكون للطيور الكواسر عمل تقوم به عنا. لقد قتلت جوليانا اليوم. سنتركها بثيابها. لن تؤذي جوليانا أحدنا بعد اليوم».

تعانقا. دمعا. ونشأ بينهما رابط قوي ومتين: المرأة المقتولة الواجب نسيانها.

شكراً يا عزيزي بورخيس واسمح لي أن أسألك: ماذا فعلت بالمرأة المعشوقة؟ لماذا منحت الحياة للقساة؟ أما كان بإمكانك أن تعطي المرأة لمن أحبها أولاً؟ أليس من حقه الاستحواذ عليها كلها؟ أو، لماذا لم تعطها لمن أحبها بعد ذلك، خصوصاً أن جوليانا أحبته؟ ألم يكن بمقدورك أن تشطح وتقدم تبريراً مأساوياً، تهديها للأخ المتيم الصامت وتبعد الأخ الكبير عن المصير الأسود الذي قدمه لها؟ أما كان بإمكانك أن تخترع ضحية أخرى، كأن ينسحب الصغير للكبير، الضعيف للقوي، لأنه أقام معها ردحاً قبل أن يأوي إليها؟ ألم يكن بإمكانك أن تشحذ سكين أحد الأخوين فيقتل الأخ أخاه؟ قايين قتل هابيل على دخان نار غير مقبولة؟ ألم تشر في نصك إلى قايين يراودها؟ أظن أن لديك متسعاً من الخيارات الأخرى، ولكنك انتقيت أجملها... ولم تقنعني.

حالتي يا سيد بورخيس، ميؤوس منها. ولا يجديها هذا الحل الذي اقترحته على كريستيان. وضعتني يا سيدي أمام مستحيل. نحن، أي

اليهودي والفلسطيني نحب هذه البلاد. أنا ورثت حبها عن ديني من قديم الزمان، وربما من قبل الأزمنة كلها. ورثت حبها من عقيدتي كما تعلمتها ورضعت حروفها وفق إغراء إلهي بأرض الميعاد، ولذلك عدت إليها بعد شتات دام ألفي عام. فما أعظم هذا الحب وكم هو شاهق ومزمن! أما الفلسطيني فكان يقيم معها منذ أجيال تعود إلى بدايات التاريخ وبلا انقطاع تقريباً. نام في فراشها وأنجب من أحشاء تربتها البكر ثماراً كالبشر، ومن حجارها صنع معابد وهياكل وبيوتاً وقرى ومدناً. سيدي، لقد كان لكل واحد منا أسباب لا تحصى ليحب هذه المعبودة، هذه الجغرافيا النبوية، هذه البلاد المتألهة في البشر والحجر والصلوات... فماذا نفعل؟

أنت يا سيدي قتلت المرأة المعشوقة، وانتهت القصة بعناق الأخوين، ونقطة على سطر المأساة. نحن لا نستطيع أن نقتل امرأة لا تموت. فلسطين امرأة مزمنة. امرأة أبدية. حواء على مدى الحياة. من كنعان إلى إبراهيم إلى نسلٍ بعدد الرمل إلى محط الأنبياء والمرسلين، إلى المسيح وخياره النوراني، إلى عرب فتحوها وأقاموا فيها مقدسات وزيتوناً وقصائد... كلنا عرفنا هذه المرأة الطاهرة المعشوقة العاشقة.
يا سيدي، لمن تكون هذه المرأة؟

نحن هنا لم نوفر إغراء أو سلاحاً للاحتفاظ بها. سقطنا مراراً، مضرّجين بموتنا لأجلها. فهي المرأة الأم والصديقة والحبيبة والعشيقة والأخت والخليلة والابنة وكل صفات الأنوثة والرجولة. هي الأرض التي نتنازع عليها وكل واحد منّا يدّعي أنها أمه وحده، وكل واحد منا يرفض أن يكون لها ابن آخر... فهي لم تزنِ مع أحد.

لماذا نحبها؟ لماذا يحبونها؟

لدينا من الأسباب، كيهود، ما يجعلنا نوظف الله في خدمة عهده. ولديهم، كفلسطينيين من الأسباب ما يجعلهم يتصوفون بها ويحيون موتاً لأجلها. لا تسألني إذا كانت هذه الأسباب حقيقية وتاريخية ومثبتة. إنها يقينية وذاتية وتبلغ مرتبة الإيمان، وما يصل إلى درجة المقدس يخترع أسطورته الخاصة ويتوكأ عليها في تأييد حقيقة وفي إنكار الحقائق المضادة لها. باختصار، هو حقيقي لأني كيهودي مؤمن به. وهو كفلسطيني كذلك. كلانا يلجأ إلى التاريخ، والتاريخ قصة، كما في «تقرير برودي». إنه صناعة بشرية. تفسير الآيات، وفق مقتضى الحاجة، بضاعة بشرية. نصوص الديانات لم تنج من هذا التأليف.

أليس التاريخ بدعة بشرية ويتحول إلى حقائق عندما نقتنع بها؟ إن لم نفعل فهي تدليس وتشويه وفتاوى ووجهات نظر. لذلك لكل منا تاريخه الخاص. له حقائقه وإيماناته وتفسيراته للأحداث والنصوص. وهي تواريخ متناقضة في العناوين والتفاصيل والأسماء... ثم إن المسألة التاريخية لا تهمني ولا أعوّل عليها كثيراً في الراهن، ولن أعوِّل عليها عندما أتخذ قراراتي، ولن أهتم بذلك التاريخ السحيق الذي يعيدنا إلى اللامعقول الزمني، حيث تختلط الآلهة بالبشر والأحداث، ويتفق السحر مع الواقع، وينجب المقدس أساطير وينسبها إلى ربه.

لا يعنيني من أحب تلك المرأة أولاً ومن أحبها لاحقاً. المأساة أننا نحبها الآن معاً وسنحبها دائماً ولا خلاص من هذا العشق.

قل لي يا بورخيس ما الحل؟ هل أقتل لأبقى حياً مؤقتاً؟ هل أقتله كل يوم لأفوز بها يوماً بعد يوم بانتظار موعد لا يأتي. إنه ينازلني

في فراشي معها وأقاتله في مضجعه معها. لا أعرف. ما زلنا اليوم، نحفر الخنادق. نسرقها بالتوالي. ندمر المنازل علينا من أجلها. ننثر الجثث للانتصار معها. إننا نعيش عرسها في جنازاتنا المتبادلة. ما زلنا يا سيدي نموت في حروب ماضية وحروب حاضرة وحروب بلا غد.

الحقد؟
يكفي أن تنظر يا جدي العزيز بورخيس إلى الأجساد الملغومة والعمليات الانتحارية والمسيرات المتناسلة بفوضى والقبضات الهمجية، كي تعرف أنه لا طاقة لي بعد اليوم لاحتمال هذا الحقد. حقدهم وحقدي المضاد.

الحقد؟
يكفي أن تشاهد شاشات التلفزة وهي تنقل صور الأباتشي الشجاعة والفاخرة وهي تقصف المخيمات وتلاحق المتظاهرين وتتصيد الرجال والنساء والعجائز وتلامذة المدارس، وتشرد الحقول عن نباتها، وتغتال القيادات في أوكارهم... يكفي أن ترى الدماء والجثث هنا وهناك، حتى تدرك أننا نتبارى بالحقد ونفوز به ونتفوق به على الجميع... ونموت معاً به. يا إلهي، الحب الفائق والمجنون يستولد جرائم متفوقة وغير مسبوقة.

هذا هو حالنا يا جدي العزيز بورخيس.
ماذا تقول؟ أن نقتسم المرأة ونكف عن؟
إن عبقريتك الفذّة تستطيع أن تذبح بلداً. ولكن ذلك لن يحدث إلّا في النصوص. هذه المرأة المقدسة لنا. وهي غير قابلة للقسمة. إنها واحد أحد. فإما أن تكون لي وإما أن تكون له، وأن يموت

واحدنا، لتحقيق ذلك، موتاً أبدياً، أو يرحل إلى دهر الداهرين.
وأظن أن ذلك مستحيل.

أمسى كل شيء مظلماً في غرناطة
دمُنا يصنع جحيمنا المشتركة. إننا برسم الموت أو برسم الانتحار المتبادل.
تخجل المرآة من جنوننا، فتقفل بياضها وتمنحنا مشهد النهاية.
تشفق علينا يا جدي وتنصحنا بتقسيم البلاد إلى إسرائيل وفلسطين؟
ألا ترى أن هذا مشروع قديم جداً ولم يتحقق وقد مضى ....

شكراً يا بورخيس.
وداعا.
أموس أوز أفضل من يدافع عن الطلاق:

3

الطلاق قبل الزواج

هل كان بيننا شيء مشترك غير رائحة القتال؟
كل شقاء هو مملكة فيه أحدنا ملكاً.

....

الدم لا ينقطع عن النزيف على مدار العام
نفس الألم يصدر عن الروح والجسد
سماؤنا بلا حس يبدو غفرانها عبثاً
يا غرناطة الزمان
ما يفعل المراقب من أجلنا معاً؟
أراغون ـ مجنون إلسا

هو صراع بين ضحيتين
ماذا أقول لك يا كاتبنا الفذّ ... أيها العزيز آموس أوز، زميلك بورخيس أنهى قصته بعناق الأخوين بعد قتل المرأة المعشوقة. أما أنت فلم تكتب قصة تقتل فيها أحداً، بل تجرأت على السياسة وكتبت نصاً يبشر بالطلاق بين ضحيتين، يهديان إلى بعضهما موتاً

فجاً منذ سلام موعود «يركض ولا يجد خطاه».

كيف غامرت بحل مستحيل؟ لعلك اقتنعت بأن البتر خير من القتل. على اليهودي في إسرائيل والفلسطيني في فلسطين أن يتخلى كل واحد منهما، غصباً عنه، وبألم بالغ، عن أحدا أعضائه، ويرضى بوطن قصير القامة، يعرج أحياناً، ولا يبصر بشكل جيد، ولا يسمع إلّا بأذن واحدة، ويمشي على عكاز واحد، يدعى قدماً.

لا أشوه اقتراحك. فله من الرجاحة والرصانة ما يجعل البعض يصدق إمكانية تطبيق الطلاق الذي تقترحه، على الرغم من أنه طلاق غير مسبوق، ولا شبيه له في التاريخ، ولا في الكتب.

تعتبر يا عزيزي أموس في لقائك مع مفكرين وفلاسفة وكتّاب أوروبيين أن الحل المقترح لا يفترض أن يحب الفلسطينيُّ اليهوديَّ الإسرائيلي ولا أن يتغزل الثاني بالأول. لا بأس إن كانا يسكنان معاً ويقيمان علاقة كراهية. وتبرر ذلك بأن الفلسطيني يريد فلسطين، وله حججه ومبرراته، وأن اليهودي يريد بالتحديد البلد نفسه، وللأسباب نفسها التي للفلسطيني ... فالاثنان بلا وطن، «وهذا يؤسس لتراجيديا مرعبة».

أجل، معك حق. إنها تراجيديا قد لا يبقى فيها أحد على قيد الحياة، باستثناء الآلهة... وربما.

إذاً المسألة ليست سوء تفاهم بين الفلسطيني واليهودي، علاجه الحوار والتعارف والتحابب واحتساء القهوة ومقاعد الزمالة والاشتراك في مباريات وإقامة احتفالات موسيقية، وتمثيل أفلام ميلو درامية

يتزوج فيها الإسرائيلي فلسطينية، أو يصاهر اليهودي فلسطينياً. المسألة كما ترى ليست خلافاً على دين أو مذهب أو حضارة أو مصالح متنافرة.

إنه ليس سوء تفاهم، بل سوء تواجد، أو سوء تواطن. إننا موجودان معاً في مكان واحد. ووجودنا ضديّ. وجودي ضد مجرد وجوده. ووجوده ضد وجودي بالكامل. وجود الواحد ينفي وجود الآخر. ومع ذلك، يجب أن يتعانق النفيان في طلاق أبدي... مفهوم؟ ألا يبعث هذا على ارتكاب الجنون؟

لعبة قمار لا يربح فيها أحد.
المأساة، أنه لا خيار لنا، حسبما ترى، غير الإقامة في هذا المكان. فكلانا بلا وطن، ووطني هو وطنه، ووطنه هو وطني. ونحن أعداء حتى شبه الإبادة.

رجاء... أعطوني نوبة من المهدئات. هذه حالة تحتاج إلى علاج نفسي. بت أخشى أن تتبعثر نفسي، قبل أن يتشظى جسدي على قارعة انفجار يرتكبه فلسطيني، يقيم معي، في شقتي التي أسميها وطناً.

هنا أيها العزيز آموس لم تفعل كبورخيس، الذي استهلَّ حلاً بالقتل وكتبه نصاً أدبياً. مغفورة له خطيئته الجميلة. فالأدب الكاذب نقي وبارع السراب. أنت وضعتني أمام معضلة طلاق قبل زواج. ثم، كيف يكون طلاق بين شعبين يعيشان معاً تراجيديا العلاقة القدرية والاختيارية، مع المكان الذي اتخذ صفة المقدس، ومقام الديني، ومرتبة الحيوي، وسمة التوحيد؟ كيف

يكون طلاق حي، يضطر فيه الطرفان إلى ممارسة نصف موت؟

تقترح تسوية الطلاق، وهي تسوية مؤلمة كما تقول، لأن اليهود والعرب متجذرون في المكان الفلسطيني.

دعني أتخيل الأمور بالمقلوب. إذاً سيكون موعد شهر العسل بعد الطلاق؟ بصراحة إنني لا أفهم، ولكنني مستعد لمجاراتك حتى النهاية، فقد أجد جواباً عن سؤالي الحالي: كيف أطلق، بدل كيف أقتل ومن أقتل؟

لا أصدقك بأن الطلاق ليس شيئاً سارّاً، ولكنني مستعد لقبوله بشرط أن يكون طلاقاً لا رجعة عنه، ينفصل فيه الواحد عن الآخر إلى الأبد، وبشرط أن تفسر لي ذلك في الواقع. لمن تهدي الأرض؟ لمن تكون دية القتيلة؟ لي أم له؟ أين سيقيم وحده؟ وأين سأقيم وحدي؟ تعبت منه حتى الفزع، وتعب مني حتى الإنهاك. كلانا لا يطاق. أتربص به ويتربص بي. رجاء خلّصني منه، وخلّصه مني.

طبعاً سيكون هذا الطلاق سارّاً، عكس ما تفترضه أنت، لأنه ينقذني وينقذه. فليذهب كل واحد منا بعد ذلك إلى الجحيم إن أراد أو إلى السماء إن استطاع. ولكن فليذهب كل منا بمفرده، وحده، كخطين متوازيين لا يلتقيان.

ماذا تقول؟ تصر على أن هذا الطلاق الذي تبشر به لن يكون سارّاً للطرفين؟ لماذا؟

مفجع. تريد أن يحدث طلاق لا يؤدي إلى انفصال الطالقين. هذا

زواج بالإكراه. بل تصرّ على أنه يحتم علينا البقاء في شقة واحدة. أي هو طلاق من دون أن يترك واحدنا الآخر، ولأن الشقة صغيرة جداً، يتوجب علينا توزيع الغرف على المقيمين.

آموس ... ماذا ارتكبت يداك؟ تبرر طلاقك بأنه أفضل حالاً من الجحيم الذي نعيشه في بلادنا. ومن قال إن ذلك الطلاق لن يورثنا جحيماً من نوع لا مثيل له أيضاً؟

دعني أتجرع كأس الطلاق حتى الانهيار. هل أنت مقتنع بذلك الحل اللامنطقي؟ وهل ما تقوله عن الفلسطيني المقموع يومياً والمحروم دائماً والمضطهد باستمرار والمذل بمهانة والمجوَّع إلى اللقمة، من قبل حكومة إسرائيلية تتهمها بالإجرام، سيتوقف عن إرسال الهدايا المفخخة وتصدير العمليات الانتحارية لقتل أولادنا الطيبين ونسائنا الجميلات ورجالنا المشتاقين إلى طعم الطمأنينة والفرح الحلو؟ هل سيتوقفون عن الإنجاب السريع والتوالد العشوائي وتوظيف أطفالهم في مهنة الموت والوقوف أمام رصاص الجنود ليصابوا بالشهادة كما وصفهم بدقة برنار هنري ليفي، بعد مقتل محمد الدرة؟

أشك في ذلك سيدي آموس ... إن قتل بورخيس للمرأة أكثر واقعية من طلاق، يقيم فيه الطالقان، بعد التوقيع على مراسم الطلاق، في فراش واحد.

ها أنت تكرر حججك بأسلوب آخر بهدف إقناعي بحلك المستحيل. «الفلسطينيون في فلسطين لأن فلسطين وطنهم. وطنهم الوحيد. اليهود الإسرائيليون هم في إسرائيل، لأنه لا يوجد في

العالم بلد يخصهم وحدهم كشعب أو كأمة أو كوطن».

فهمت. أنت تطلب أن تقسم البلاد إلى فلسطين صغرى تقيم متعرجة على تخوم إسرائيل صغرى. هذا يعني أن يعيش الفلسطيني على حافة وطنه، وأن يعيش اليهودي على الحافة الأخرى.

من يضمن لنا أن لا يحفر كل منا تحت الحافتين هاوية بلا قرار؟ «فالموت موجود هنا كواقع وحيد».

لا أنكر ذكاءك. تستحوذ على منطق ومقدمات متوازنة، وتجد التبرير لوضع الأمور في سياق يخدم غايتك النبيلة، توفير الظروف والقناعات الملائمة لطلاق مؤلم: حاول اليهود أن يعيشوا في بلاد العالم ولكن اللعنة طاردتهم. تعددت الأسباب والاضطهاد واحد متنوع ومبتكر. لقد اضطُهد اليهود وطُردوا وتشردوا. نعتوهم بالقذارة والتجسس والربا والسرقة والخيانة والانغلاق. بات اليهودي أحياناً شراً يسير على قدميه. «لسنا أسوأ من غيرنا» لدينا أخطاؤنا، كما لدى سوانا، ولكن الذي حصل، أن العالم ألبس اليهودي ثوب الذنب الأبدي، والخطيئة الأصلية، ومنع عنه الغفران، فتقوقع، وأنشأ «الغيتو» واضطر إلى حماية نفسه بالمال والثقافة والتعاضد والعصبية الدينية. «لسنا ملائكة» وأيضاً «لسنا أبالسة». باختصار، قالوا لنا، ارحلوا عنا. طردونا من أوروبا. أمرونا: اخرجوا إلى فلسطين. بعضهم حاول تحريرنا من عقدة الانغلاق بالدعوة إلى التفاعل والانصهار. كان تياراً راشداً، إلّا أنه اختنق بعد ذلك. كارل ماركس حاول تحريرنا من الدين والاستغلال. صنع لنا يوتوبيا لا دينية ولا طبقية في عالم يضع اليوتوبيات في برد المتاحف أو في برودة القبور. وحده تيودور هيرتزل، صنع لنا حلم العودة الجميل.

أنشأ صهيونية تنقذنا من أوروبا واضطهادها، إنما لا أعرف إن كانت ستنقذنا في إسرائيل.

الغريب، أنه بعد عودتنا المتأخرة إلى فلسطين، مطرودين، مذبوحين، ومحترقين في محارق النازية، صرنا نقرأ على جدران المدن الغربية «اخرجوا من فلسطين».

فليقولوا لنا إلى أين؟ أرشَدونا بقوة القهر والقتل والتمييز واللاسامية إلى فلسطين. والآن، يريدون منا أن نخرج من هنا. هل نحن برسم سماسرة السياسة أم أننا بشر حقيقيون؟ هيا. قل لي يا آموس؟ هل يجوز لنا أن نغفر لهم؟ هل نسامحهم أم نبقي سيفنا الإعلامي مصلتاً فوق رؤوسهم، كي لا يرتكبوا حماقة مأساوية جديدة بحقنا؟

إذاً ... لنا الحق في بلادنا. لأنه لا بلاد لنا سواها. وكل البلاد الأخرى شتات ومنافٍ.

والفلسطيني ... ما قصتُه معك؟ حاول الفلسطيني أن يعيش لدى إخوانه وأشقائه العرب، في بلاد أخرى غير بلاده ولكنهم رفضوه. وهناك، تعلّم ألا بديل له عن وطنه فأصرَّ على هويته الفلسطينية. و«كما حافظنا في الشتات على حلم العودة، حافظ الفلسطيني في مخيماته على حق العودة».

لنفرض أن تعليلك هذا صحيح، فكيف السبيل إلى الخلاص؟ تعرض علينا تسوية وتلقبها طلاقاً. وتمتدح التسوية لأنها الحياة، و«عكس التسوية، يعني التعصب والموت». قول جميل. جملة مأثورة. اسمح

لي، أليست التسوية نصف استسلام! أنت تضفي عليها الصفات الحسنة تبرئها من الجانب الأخلاقي، وتدعي أنها تؤمن الظروف المثلى كي لا يكون الفلسطيني مهزوماً ومهاناً ومذلولاً.

هكذا وبسرعة سيتم ذلك؟

أنت قلت، إن اليهودي يرى إلى «الفلسطيني كأنه نازي يلبس كوفية...».

«إنه مضطهدنا السابق» .... وتضيف: «إننا، كيهود، لا نتصور أن شعباً فلسطينياً كان يقيم هنا وله حقوق مشروعة وحقيقية». هذا ما نردده، ونعرفه، وما تربينا عليه. الفلسطيني أجنبي كريه وكفى. أنت وعيت هذه المرارة، وسميتها حقيقة. فليكن ذلك كذلك، ولو موقتاً، لاستكمال سياق براهينك على الحدث السعيد: التحضير للطلاق المؤلم. قبلك شنَّ كتّاب وأدباء كثيرون غارات كلامية واتهامية على الفلسطينيين والعرب. حتى أولئك الذين لم يكن متوقعاً منهم ذلك أيدونا وباركوا ما نفعله للفلسطينيين. اعتبروا أن وطن الفلسطيني بعيد عن فلسطين. فبلاد العرب واسعة، وبإمكان الفلسطيني أن يكون عربياً فقط، بدون فلسطين. ألا تذكر ما كتبته نتالي ساروت التي فاجأت المثقفين العرب فاضطرت لبنانية أنيقة القصائد، الشاعرة ناديا تويني، أن تكتب رداً بليغاً. ألا تذكر ما كتبه أيضاً المسرحي يوجين يونيسكو، الذي لم ينتبه لدعواته الكتّاب العرب، وظلوا يتعاملون مع مسرحياته بإتقان وطليعية. ثم ألا تذكر فيلسوفنا الذي يطربني في مدائحه للصهيونية، عنيت به برنارد هنري ليفي. خطابه في الجامعة العبرية نال استحساناً كبيراً. ولكنهم يا عزيزي آموس، لا يعيشون مأساتنا... العذاب هو قوتنا اليومي. إنهم يتناولون عذاباتنا كالحساء في أمسياتهم الأوروبية. يهود الرفاهية هؤلاء لا يعرفون أننا العذاب الصافي قطرة قطرة، ويوماً بعد يوم.

قد يصح القول: العدو البعيد خير من صديق قريب. فلنُقم حدوداً فاصلة بيننا وبينهم.

هل أنت مقتنع يا آموس بخرافة الدولتين؟ لا تقل لي أنها رؤيا شبيهة بالرؤى التي تنتاب الرئيس الأميركي جورج دبليو بوش. هل تعرف كم عمر هذه الخرافة التي لم تتحقق؟ الكتاب الأبيض حمل هذا الاقتراح، وقد كان ممكناً، قبل استفحال سوء التواجد المشترك. مشروع التقسيم دعانا إليه. قرار الأمم المتحدة فعل ذلك. هذه خرافة حقيقية، أقرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة ووافق عليها الجباران آنذاك بسرعة مذهلة. ونتيجة لذلك، قامت دولتنا وشُرقت دولة الفلسطينيين في شرق الأردن وغزة، وقمنا نحن بالاستفادة من حرب رابحة، فتوسعنا، وبات لنا رئة صغيرة نتنفس من خلالها رائحة نصف الوطن.

اللامنطقي أننا في حرب الأيام الستة، حررنا الضفة الغربية وقطاع غزة، أي القسم الفلسطيني من مشروع التقسيم، واستعدناه لنا، فصارت لنا «يهودا والسامرة»... وهي لهم. وأنت يا آموس، تريد أن تعطيهم مما لهم عندنا.

ترى، ألم ندفع ثمنها حرباً؟
ألم نشيِّد المستوطنات ونُقِمْ فوقها أعراس العودة؟ إلى متى هذا العبث الحربي وهذا الجنون الدموي؟ دعني أتقدم قليلاً: دولتان على دعامة التوزع الديموغرافي أو على الحقائق الديموغرافية. ولذلك تقترح أن تعود إسرائيل إلى حدود العام ١٩٤٨ مع جائزة ترضية، إذا جاز التعبير، وبعد ذلك يحدث التوازن، ويكون بديلاً عن هذه الفوضى القاتلة: دولة مقابل دولة، استقلال إزاء استقلال، اعتراف

مترافق باعتراف، أمن بموازاة أمن، حسن جوار متبادل، واحترام بالتساوي... وكاسك يا صديقي.

جميل ومجحف... جميل هذا الابتداع المتأخر أكثر من ثلاثة أرباع قرن. ومجحف لأنه يحرم اليهودي من تحقيق وعده بتمام أرضه، ولأنه يطلب من الفلسطيني أن يقول مرة وإلى الأبد، بقناعة إلزامية، وبحسرة فاجعة: وداعاً حيفا. وداعاً طبرية. وداعاً أيها الشاطىء السماوي. وداعاً عكا. وداعاً لكل حبة تراب، لكل زيتونة عتيقة متعبة. وداعاً لهذه الفلسطين الماضية إلى يهوديتها إلى الأبد...

مؤلم وفاجع ومأساوي... كيف ترتكب هذه المخيلة؟ ألم ترَ في حياتك أن الزلازل تزور المدن والقرى وتدمرها، فلا يهجرها أهلها، بل يعيدون بناءها، تماماً، في الموقع التراجيدي ذاته. «ماذا نسمي هذا الشغف بالمكان، حتى في عز الكارثة؟» هذا هو الإثم الإنساني غير المفهوم، وتريد أن تشفي الفلسطيني منه، وتُبرئهُ من مرضه الوطني، وتحمله على التخلي.... وما يصح على الفلسطيني ينطبق على اليهودي. ألا ترى إلى حائط المبكى وقد ذاب من القبل أكثر مما حتّته الدموع؟ فسِّر لي هذا اللامعقول.

أكمل مسيرتك باتجاه الحل المستحيل: على الفلسطيني أن يلقي تحية الوداع الأخيرة، ثم يدير وجهه صوبنا ويقرّ ويعترف بأن إسرائيل ليست طارئاً تاريخياً، بل هي حقيقة غير قابلة أبداً للاهتزاز. فهي دولة يهودية لليهود، ونقطة على السطر النهائي في كتاب «الصراع الطويل».... هنا ينتهي التاريخ، ويبدأ الغزل. هنا، ينتهي الأخوان اللدودان، إلى عناق جاف، بعد اقتسام جسد المرأة.

حلم! وهم! يقظة متأخرة! تصوّر طوباوي؟
لا أعرف ... لا أعرف ... مع أنك تعرف أن العرب حاولوا إلغاء إسرائيل، كل إسرائيل. سموها الدولة المزعومة. تصوروا أنهم قادرون على إلغائها وإعادة زرعها في قارة أخرى. حاولوا ذلك ثلاث مرات وأحبطوا.

هل كفوا عن ذلك؟
من يؤكد لك أنهم سيكفون عن ذلك؟ في مخيّلتهم أسطورة أنجبت تحريراً. لقد هزموا الغرب الصليبي الذي جاءهم فاتحاً. عندما يولد الفلسطيني يولد معه ظل صغير، يشبه خيال صلاح الدين الأيوبي.

ثق يا سيدي، أن حكامهم الكريهين جداً عندنا، هم أكثر عرضة للكراهية لدى شعوبهم. وأن اعتراف بعض حكامهم بإسرائيل، لا يعدو كونه حقارة وخيانة في نظر جماهيرهم. العربي في قرارة نفسه، في أدق تفاصيل أمله، يحلم دائماً بإسرائيل وقد غرقت في البحر. فكما غرق بعض العرب في الصحراء، ودعوا بالعرب البائدة، هكذا سيغرق الإسرائيلي في البحر. إنها إبادة بالمخيلة، تلك المخيلة المصابة باليقظة الزائدة، أو المعتلة بوهم الانتقام.

تتهمني بالتشاؤم. معك حق. الأمل عدوي الدائم. لأنه يكذب عليّ. هل تريدني أن أبيعك كذباً أفتن به حتى يدهمني انفجار قاتل! هل ترغب في أن أنفق ساعاتي في تركيب كلمات متقاطعة في مربعات. بعضها بحروف عبرية وبعضها بحروف عربية؟

هل تلعب لعبة الكلمات المتقاطعة؟ حاول أن تحل ذات يوم أو أن

تؤلف كلمات متقاطعة بلغتين متضادتين. هذا التأليف العبثي غير المفهوم، يشبه في استحالته، قيام دولتين متقاطعتين في مربع وطني واحد.

عزيزي آموس، تدّعي أن نوبة وعي اجتاحتنا، وأن نوبة أخرى ستجتاح الفلسطيني،فقد اكتشفنا مؤخراً عبارة «الشعب الفلسطيني» وهذا ما كنا تمقت سماعه. كنا عمياناً. نرى أن وطن الفلسطيني يقع في قلب البلاد العربية الواسعة. لم نكن نريد أن نراه. لم نكن نريد سماعه، وهو يقيم معنا أو تحت وطأتنا.

قل لي، متى حدث هذا الوعي المفاجىء؟ منذ عقدين، كانت جدتي غولدا مائير تنكر وجود الفلسطيني، عندما تُسأل عنه. وها أنت تتبرّع بسهولة وتعترف بوجوده. موجة الاعتراف هذه على اتساعها الضيق، مشوبة بالنعوت الملصقة بالفلسطيني. فهو ليس إنساناً سوياً. هو شبه إنسان. هو دون الإنسان. هو في طور ما قبل الإنسان.

ثم، ألم يكن الاعتراف بالفلسطيني ممكناً قبل هذا التاريخ؟ لماذا حصل الآن؟ هل قذف الله نوراً في صدورنا بعد خمسة حروب وانتفاضتين وأجساد تطأها القبور على جانبي الحقد المشترك؟

أي عقوبة تكبدناها خلال نصف قرن من القتل المجاني الدؤوب؟ نحن اقتنصنا فرصة التقسيم فأخذنا أكثر مما أعطينا، والعرب رفضوا مشروع القسمة، واقتنصوا ما بقي من فضلات التركة الفلسطينية.

رحم الله بورخيس. قتل المرأة المعشوقة.... انتهى الأمر. أما أنت

فستُدخل المرأة إلى المسلخ. تصور التقسيم في نصك يا عزيزي آموس، بأنه يشبه دخول مريضين مستشفى منهك يعالجهما أطباء فقدوا مهارة الجمال. وبعد العملية الجراحية يكتشف كل واحد منهما، أن ساقاً قد بترت من جسده.

ما أبشع هذه العملية التي تستحيل بعدها أي عملية تجميل: وطنان مبتوران.

«هذا ما يجب أن يحصل في الشرق الأوسط. العملية الجراحية لا مفر منها. يجب تقسيم الأرض». وطن تقيم فيه أكثرية يهودية لأن من حق اليهود أن يكونوا أكثرية في وطنهم...

وماذا لو أنجبت بطون النساء العربيات في إسرائيل أكثر من اليهود؟ فهل نخصي الرجال أم نعقم النساء؟ إن قنبلة الديموغرافيا أقلقت أجدادنا الذين بنوا هذا البلد، وأنت تشطح وتسطح المشكلة: أكثرية يهودية وانتهى الأمر.

وهم!
حتى العملية الجراحية لن تكون عادلة أو متساوية. سيكتشف الفلسطيني بعد الجراحة، أن عملية البتر طاولت يده وأطرافه وسمعه وبصره. أنت تقول ذلك يا آموس: «الشعب الفلسطيني سيكون له وطنه، ولكن بالتأكيد أصغر من إسرائيل».

فلنكف إذاً، بأمر منك عن الحلم بإسرائيل الصغرى، أو إسرائيل الوسطى، ولنكتفِ بـ«ميني» وطن وليكف الفلسطيني عن تمرين مخيلته وتدريب ذاكرته. عليه أن يقبل طوعاً أو غصباً، بفلسطين

الصغرى، على أن تحل مشكلة اللاجئين خارج حدود دولة إسرائيل.

هكذا، سيتوقف القتال المتبادل، وسيولد سلام متبادل، على أشلاء وطنين. فلنقبل هذه القسمة الجائرة. إنما، من يضمن أن السلام سيكون ثابتاً وفق منطق الحدود والتخوم وقواعد الجغرافيا؟ ماذا عن الناس هنا وهناك؟ إننا نعيش ضد بعضنا البعض، نقتات الكراهية، نتكىء على الحقد. أجمل الأحلام عند الطرفين: الإلغاء المتبادل، وهذا مستحيل. نحن لا نقدر على إلغائهم، وهم عاجزون. أي أمل مرعب هذا الأمل الكاذب!

كيف سيعيش من يفطم عن ثدي أمه عنوة؟ سيقتات أصابعه ويعض عليها بلثته الطرية، بانتظار أن تنبت له أسنان حاسمة. كيف سيعيش اليهودي في إسرائيل من دون يهودا والسامرة؟ أنت قلت يا سيدي: «اليهود لا يعرفون مدى تعلق الفلسطيني بأرضه ولا يفهمونه، والفلسطينيون لا يعرفون مدى تعلق اليهودي بهذه الأرض... المعرفة المشتركة طريق مؤلمة لنهايات أشدّ ألماً». ثمة حاجة لفهم التأصيل الكامن لدى الطرفين. إذا اتفقنا على الجغرافيا، عنوة، فكيف نتفق على إلغاء البشاعات المتبادلة، الصور الشاذة، التصورات العنصرية، التاريخ الملبّد بالخناجر؟ إن عمليات التشويه المتبادلة متأصلة في النفوس. إننا نتنفس ونتنشق ونزفر كراهية.

لم تقل لي أي ممحاة سنستعمل كي نمحو الصور القبْلية الشائعة عن بعضنا؟ لم ترشدني إلى دواء يشفينا معاً، من النزوع الوحشي المتبادل والتفوق البربري والعطش الزائد لارتكاب أشد الموبقات.

هل تسمح لي سيدي آموس أن أضع أمامك حقائق تعرفها، عن برامج التعليم في إسرائيل: البروفيسور أدير كوهين، وهو باحث في أدب الأطفال، أجرى استطلاعاً بين طلاب الصفوف الرابعة والخامسة والسادسة في مدارس حيفا نشره في كتابه «انعكاس شخصية العربي في أدب الأطفال العبري»، وشارك في الاستطلاع ٥٢٠ طالباً وطالبة.

سأتوسع قليلاً في الشرح: طلب إلى الطلاب أن يكتبوا حول خمسة موضوعات:

١ ـ ما هي التداعيات التي يثيرها سماع كلمة (عربي)؟
٢ ـ كتابة قصة عن لقاء (عربي). قصة مفترضة طبعاً.
٣ ـ تلخيص كتاب قرأوه ينطوي على وصف (للعربي).
٤ ـ شرح أسباب النزاع مع العرب.
٥ ـ المجاهرة بآرائهم في ما إذا كان إحراز السلام ممكناً...

لن تفاجأ بنتائج الاستطلاع، لأنك مثلي، تربيت على ذلك، وتشربت ثقافة التشويه واقتنعت بها لزمن. ولما صرت من النخب، بتَّ ترى الأمور بنظافة أكثر.

جاءت النتائج حاملة النسب التالية والأوصاف المرعبة والمقززة:

١ ـ ٧٥٪ يعتبرون أن العربي خاطف أولاد. قاتل. مخرب. مجرم. إلى آخر الصفات والنعوت الخسيسة والدنيئة.
٢ ـ ٨٠٪ يرون إلى العربي أنه يعيش في الصحراء. صانع خبز. يلبس كوفية. راعي بقر. ذو سحنة مخيفة. في وجهه ندبة. قذر ونتن تنبعث منه رائحة كريهة.

٣ ـ يجهل اليهودي جهلاً تاماً شكل العربي وهندامه وتاريخه وعاداته. قال البعض: العرب أصحاب شعر أخضر. العرب لهم ذيول.
٤ ـ ٩٠٪ ينكرون حق العرب في البلاد. يؤمنون بأنه ينبغي قتلهم أو شنقهم أو ترحيلهم.
٥ ـ أكثرية قالت أن العرب ينوون قتلنا وتشريدنا من البلاد واحتلال مدننا وقذفنا إلى البحر.
٦ ـ غالبية الطلاب الذين يرغبون بالسلام، يرون أن السلام يعني أن يسلم العرب بالسيادة الإسرائيلية على أراضي إسرائيل الكاملة، بما في ذلك الضفة وقطاع غزة. ١٠٪ من الطلاب فقط أيدوا فكرة السلام مع العرب.

أما كتابات الطلاب المستطلَعين فتدل على أن الإناء ينضح بما فيه. ويسجل ما تعلمه في البيت والمدرسة وعلى أيدي رجال الدين ووسائل الإعلام والكتب المتعصبة في صهيونيتها.

كتب ي. ع.: العربي، سحنته غريبة، عصبي المزاج. حاد. شرير. مجنون متشرد.
كتب ثانٍ: عدو. خنزير. لص.
كتب ثالث: يجب أن نقتل العرب يجب أن نجلسهم على كرسي كهربائي. أن نعلقهم على أعواد المشانق. أن نطردهم من البلاد. أنا كاهانا.
ع. ك. كتب: يجب طرد العرب من البلاد إذا استمروا في سفك الدماء اليهودية لمجرد كونهم يهوداً. يجب طرد العربي ثم طرد قريته. لا نستطيع التوصل معهم إلى سلام، لأنهم يعتقدون بأننا أخذنا أرضهم.

باختصار: العربي الجيد، هو العربي الميت.

ولما طلب من العينة أن تكتب رسائل إلى عربي، جاءت النصوص معبرة عما في النفوس. كتبت إحداهن «أتمنى لكِ أن تموتي وأن تصبحي مريضة. أنتظر أن تموتي وليت كل عائلتك تموت».

كتب آخر: «لا توجد هنا فراشات. فقط انتفاضة. إنكم تحبون الحروب كثيراً، وهذا أعتبره كراهية. إننا جميعاً بشر. أنت عديم الأهمية عندي. إنكم برابرة. أغبياء. متخلّفون. وسنظل نقصفكم حتى لا تقوم لكم قائمة. أليس هذا ما تطلبونه؟ تفضلوا. كلوا مما جنت أيديكم».

تفضل يا سيدي آموس، إننا نأكل مما جنت أيدينا كذلك، ألا ترى أن هذه التصورات مشتركة لدى أكثرية اليهود في إسرائيل؟ لا تسألني عن التصورات الفلسطينية والعربية. إنهم يكرهوننا كرهاً بيولوجياً. ومن سمع خطبهم ويقرأ نُخبَهم ويستطلع عقائد أحزابهم وتفسيرات دينهم بحق اليهود، يعرف أنهم مثلنا متعصبون، واليهودي الجيد بالنسبة إليهم، هو اليهودي الميت.

«ليس بيننا شيء مشترك غير رائحة القتال». كما يقول آراغون. أخشى أن نكون قد دخلنا في الرؤية الأندلسية أو على وشك النهايات.

اعذرني يا عزيزي آموس... إني أمرّن نفسي لأصبح قديس اليأس، إني أستسلم لعذابي. إن قلبي يكاد ينطفىء. من يساعدني لأُخرج من دوامتي... أبحث عمن يريحني من يقظتي وجنوني. أكاد أصبح

كميرسو. بطل العبث. أتسلق قامة سيزيف وأتدحرج حتى أرتطم بذاتي، كصخرة تتعب من الانحدار.

وداعاً آموس ...
من القادم الآن ...
أنت ...
انتظرني يا يرمياهو يوفل. سأتناول حبوباً مهدئة، ونبدأ معاً، جولة عبثية:

4

الشتات وطني!

رأيت مذابح مزدوجة من أجل لا شيء
وأعداء يتصادمون عبثاً
يفرون يجرون أحشاءهم المتدلقة
وفي المعسكرين نفس الضراوة
رأيت الفم ينسى القبلة
رأيت الحديد يذبح الصمت
رأيت الموتى يستشهدون مائة مرة
(حصار غرناطة)
آراغون ـ مجنون إلسا

وقف أمامي وكاد يشبهني.
كأنه كان يقول ما أتلوه في قلبي.

جاء يرمياهو يوفل بكامل عدته الفلسفية. رأيته متعباً جداً. يركض في مكانه ولا يجد مكانه. يبحث مثلي عن إقامة آمنة. بدا لي أنه

خرج للتو من كتب ألبير كامو. وكأنني سمعته يقول: «إنها الفوضى. لم أتوقع أن أجد نفسي ذات يوم وظهري إلى الحائط، ولا أمام أمامي».

كنت أحاول أن أبدو على حقيقتي، فلا يقلدني أحد، زيادة في الوضوح. لكنني وجدته مثلي ولا يحق له أن يكون كذلك. فيرمياهو يوفل مفكر وفيلسوف ومؤرخ، وعليه واجب الإجابة عن الأسئلة، لا أن يرزح تحت عبئها. قلت: لا يحق له، فهو لا يشبهني. لم يعد إلى أورشليم من الشتات. فقد وُلد في حيفا، وترعرع هنا. وهنا وطنه وأرضه منذ القدم، وهنا درس وأنتج وكتب وعلّم. ومن هنا، من إسرائيل، وصلت سمعته إلى الجامعات في العالم، من إسرائيل إلى جامعات نيويورك. هو من صلب النخبة والعبقرية اليهودية. تجرأ على الفلسفة الألمانية، وكتب عن «كانط وفلسفة التاريخ» ولاحق الهراطقة مع سبينوزا، وبحث عن اليهود عند هيغل ونيتشه.

وقلت أيضاً: لا لست مثله. أنا أفكر بالتقسيط. مثلي مثل الناس العاديين. نتميز اليوم بعمق الكلام، بسبب ضراوة التجربة، والانسحاق الذي يأكل معنا في الصحن. عادة، تحكمنا الضرورة، فنفكر بطريقة بدائية. نفكر لنسد حاجاتنا اليومية. العادة، فلسفتنا كل يوم. نعيشها بلا وعي. كل يوم: ننهض، نغتسل، نعمل، نأكل، نحب، نكره، ننام، ننجب، نسكر. نـ، نـ ... نحن هكذا ولا نتذمر. إنما حصل منذ عقود أننا صرنا مشكلة وجودية. يعني أن ما نتعرض له هو حرب وجود لا حرب حدود. وإننا نُقتل كالنعاج فيما ينظرون إلينا كالذئاب. أنا، إذا تناوب عليَّ اليأس، فهذا مفهوم، أما أن ييأس يوفل، فهذا ما لا أفهمه أبداً.

استوضحني. كشف ما في محفظتي من الأسئلة. قرأني:
«حسناً، دعني أختصر لك معاناتي. إذا كنت أشبهك اليوم، فلأننا معاً داخل الأبواب المغلقة. عزيزي، فقدت الأمل من اليمين الإسرائيلي ومن اليسار أيضاً. فقدت الأمل من معسكر السلام عندنا، ومن الفلسطيني الذي يُراكم قبضات القتل، ويوزعها مجاناً علينا».

هكذا تراءى لي أنه يحدثني. لأن هذا المناخ، هو الذي نقله إلى جريدة «لوموند» الفرنسية وشرحه بلغة سياسية دقيقة: «كان اليمين منذ أول الدعوة الصهيونية، يعدنا بإسرائيل الكبرى (من البحر إلى النهر، من جبال حرمون إلى أطراف الصحارى)».

قلت: أعرف ذلك. تعلمنا كيف كنا مشبعين بأمل سماوي يصنعه رجال من سبط النبوة، يحملون السيف والقول. ويزوجون الأرض النائية للحلم التوراتي السحيق. وفجأة، وبعد انتصارات حاسمة وصاعقة، وقفنا مضرجين بأضغاث حلم تحوَّل إلى كابوس. فلا إسرائيل كبرى بعد اليوم، وعلينا أن نقتعد وطناً بطول أقدامنا. أظن أن إسرائيل الصغرى تكفينا. فليس الفضاء العالي مستعداً لقبول هذه المغامرة اليائسة، ولا الديموغرافيا تؤيد هذا الشطح السياسي اللامعقول.

قال يرمياهو: ألم تلاحظ أننا نتشابه؟ قلت بنفسك ما كنت أود قوله بطريقة أخرى. اللغة ثيابنا. جسدنا هو المعنى.

قلت في نفسي، فلأتحمل فلسفته. المثقفون يطربون لغنائهم وكلامهم. وقليل منهم من يفصح عن نقد لنشازه ذات مرة. وبعد شرح مستفيض منه، فهمت أيضاً أنه يائس من اليسار الإسرائيلي

كذلك، لأنه كان يعدنا بسلام شامل وثابت ونهائي بعد كل انتصار. لقد انهار السلام مراراً. لم يثبت على الورق.

«أوسلو» انتهى. «كامب ديفيد» انهار. «طابا» لم يرَ النور. السلام سرابنا المشترك. كنا نهرب من الفلسطيني وننفيه من الوجود. وكنا نظن أن ذلك ممكن. واستعضنا عنه بالحكّام العرب. ومؤسف، أنه عندما وقع بعض الحكام العرب على السلام، ساءت أحوالنا أكثر. لم تعد حروبنا بالوكالة، صرنا وجهاً لوجه أمام الفلسطيني الذي تنام نواياه القاتلة تحت نوافذنا، وتندس في وسادات تروي لنا الكوابيس. مسكين يرمياهو يوفل. لقد فقد الأمل بمعسكر السلام، وبدا لي وكأنه من دعاة العنف:

«هذا المعسكر مدّ لنا وليمة كاذبة. صوّر لنا السلام على أنه رهن إرادة الإسرائيلي والفلسطيني. أصيب هذا المعسكر بوهم وخيبة. على مدى ثلاثين عاماً ونحن نقتات هذه الخيبة، وها نحن على مشارف محاولات يائسة لاستعادة المفاوضات، عبر الهروب منها إلى مزيد من العنف، أو إلى العنف الأقصى».

وبدا لي أن يرمياهو ليس يائساً منا بل من الفلسطيني. فالفلسطيني لم يفهم أبداً المجتمع الإسرائيلي. لم يدرك بعد أن إسرائيل تاريخ وليست حدثاً طارئاً يمكن تجاوزه. فالفلسطيني ضحية دعاياته ومخيلته الخرافية. يرفض عمق الأسباب للسؤال: «لماذا إسرائيل؟». لا يعرف ما هو أساسي وما هو غير ذلك. لم يفهم أن لبنان لا أهمية له، «ولا تجوز المقارنة بين احتلالنا للبنان ووجودنا هنا في بلادنا».

قلت في نفسي: ولماذا أرسلونا إلى لبنان؟ لماذا دخلنا العاصمة بيروت؟ إذا كان لطرد الفلسطيني منها، فقد فعلنا ذلك، طردناه

وطاردناه إلى أن وصل إلى مخدعنا الإسرائيلي. ثم لماذا أقام جنودنا عشرين عاماً في الجنوب اللبناني؟ عفوت عنه واستمعت إليه:

«الفلسطيني يقارن بين وجودنا هنا، ووجودنا في لبنان. إذا كانوا يتطلعون إلى فقداننا الأمل بإسرائيل بإعلان انتفاضتهم فهذا أمر مستحيل. وإن فتحهم لملف العودة، يناقض مبدأ قيام دولتين، ويؤكد الرغبة بتدمير دولة إسرائيل، كدولة لليهود. مؤسف أن الفلسطيني ضحية أوهامه».

قلت له: وأنا لم أكن يائساً من إسرائيل. إنما، لماذا فقدت الأمل الآن؟ وهل سيدوم ذلك وهل نستمر في عبور نفق مقفل من طرفيه؟ وإلى متى هذه المسيرة المصابة بعمى الخطوات؟

أقنعني يرمياهو بأننا نتشابه، ولا خجل في ذلك، بل هناك قرابة وطنية في هذا اليأس الموقت: «إننا في أسوأ حالاتنا منذ تأسيس دولة إسرائيل». هذا يعني أن الأمل غادرنا من نوافذ اليسار الكاذبة وقبضات اليمين القاضية والقاتلة. أشعر بالمرارة. لم تفرغ إسرائيل مرة من الأمل. كان الانتصار أملنا الدائم، والسلام حاجة غير ملحّة. إذا حصلت، كان ذلك حسناً، وإذا لم تحصل، فأعداؤنا بعيدون وضعفاء وجبناء ومتخلفون وحالمون ويكتفون بإطناب الكلام، ويعتبرون أن التهديد بالأقوال، يساوي القصف والمعارك العسكرية. لم نكن نخاف منهم أبداً، وقصة رمي إسرائيل في البحر، كانت هدية إعلامية ثمينة، كسبنا من خلال الترويج لها رأياً عالمياً. باختصار، لم نكن نخاف أبداً. اليوم، عدونا يسير معنا في الشارع ويصافحنا ويبتسم لنا قبل أن يقتلنا.

هذا ما فهمته من فقدان الأمل، ومن «نحن في أسوأ حالاتنا».

سألت: «ما العمل يا يرمياهو. إنك ترسم صورة كالحة؟».

قال: «أقرأ ألبير كامو. هذا ليس خياراً مريحاً للإسرائيليين. بل هي أسوأ حال وصلنا إليها. كثير منا يرى أن هذا الوضع لا يطاق، وهو فوق الاحتمال، ولا قدرة لنا كي نستمر في هذا الأسلوب من الحياة»، أي يجب البحث عن وسيلة للخروج من النفق، لاجتياز هذا الطاعون. إن وهران خرجت من الكتاب، وأقامت هنا في بلادنا، واستنفرت الفزع ورعب الأسر داخل الأسوار المغلقة.

قلت: إنه الطاعون إذاً. إننا نسلم لحمنا ودمنا لهذا الوباء يعبث بهما. إنه لألم جسدي يحيل الأجسام إلى وحوش أو يلويها، بينما يقيء الفم وتخرج الدمامل القاسية كالعقد الخشبية قيحها وصديدها. لقد أغار الوباء الفلسطيني على المدينة. فتغير وجه «وهران» هنا، وأضحت الدمى بشراً يتعذبون، وحلّ الألم محل الحياة الآلية، فيبس الأمل بعد تلك الحياة اليومية الدقيقة التي كنا نحياها ونترعها وننتعش بها ونرشفها بحلوها ومرها، ونتذوقها بابتهالاتها وأخطائها. لم تعد إسرائيل وعداً وأرضاً وشعباً. باتت كما نراها من خلال عيوننا التائهة سوداء، قاحلة، مرعبة. يكاد القلب يختنق في الانتظار، والحب في تمزقه الأقصى «ينطفىء رويداً رويداً ويموت». يا إلهي، إننا نرى العذاب رؤية مباشرة من دون أن توقظ فينا قبس التمرد. سنكتشف عبثنا يا يرمياهو: «أنا أعلم أنه ليس ثمة ما يبقى. إن البشر يموتون وهم ليسوا سعداء» (كاليغولا) ولكننا نعيش ولا نعرف هذه السعادة. ألا ترى يا يرمياهو أننا نعيش في عالم فاجع جداً. هو عالم «الطاعون» وعالم «الحصار». هل هذا قدرنا أم أنه أمر موقت؟ أخشى أن نكون على خطأ مميت. وأن يكون قدومنا إلى هذه البلاد خطيئة لا تغتفر وإقامة دولة معصيةً

لإرادة فوقية، لا شفاء منها. فمنذ أيام، أقلعت عن قراءة العبث ولم أتشبه بك في قراءة كامو. ووقعت على نص قذفني بعيداً. مزّق روحي. فتّت تماسك أيامي وسياقها الطبيعي. كنت أتابع رحلة قام بها إلى فلسطين نيكوس كازانتزاكي مؤلف زوربا، إله الرقص والمفاجأة المستمرة. فبين عامي ١٩٢٦ و١٩٢٧ أوفدت صحيفة «أليفيتروس لوغوس» اليونانية هذا المؤلف الروائي إلى فلسطين لتغطية احتفالات عيد القدس، وقد نشرها، مع كتابات أخرى في كتابه «ترحال». إنه يصف قدومنا بأنه كارثة ويتنبأ لنا بوطن لا وجود له.

اعذرني يا يرمياهو. كنتَ سياسياً من السياسيين في إسرائيل فيما أنت يائس من السياسيين فقط. أنا أكاد أفقد الأمل باستمرار الوجود. فأحياناً نقع على سياسة تدير ركام دولة، وأحياناً أخرى تدير انتصاراتها. طمعي ليس بالفهم السياسي. لا أقيم وزناً كبيراً في هذا المصاب إلّا لأمور ذات طابع مصيري. اليسار واليمين تناوبا على إسرائيل بتحالفات غريبة وشاذة، وقادا البلاد بطريقة حسنة أحياناً وبطريقة سيئة أحياناً. تعرضوا لتجارب صاعقة فازوا بها، وأحياناً خابوا. وهذا يحصل في سياسات كثيرة في العالم اليوم. ما يثير عقلي ويحفزني على القلق أنني أشعر بعبثية ما بعد السياسة. أنت تقول يا يرمياهو، إسرائيل ليست جنوب لبنان، فماذا لو كانت إسرائيل غرب الضفة الغربية؟ وما يقلقني ويثير فزعي هو إسرائيل بعد أيام وسنوات وعقود. أنا وأبنائي ماذا سيحل بنا؟ تقلقني غرناطة ومصيرها الملعون.

اسمعني يا يرمياهو. أنا مواطن بسيط، لا أتفلسف. إنما أحس الأشياء وأتمعن بمشاعري، وأخمن حدسي، وأصيب أحياناً في هلوساتي أكثر مما أصيب في تحليلي. قد تقول هذا هراء. فليكن،

ولكن دعني أتلو عليك قلقي، وأقرأ لك ما سجله كازانتزاكي عنا نحن، أنا وأنت ومن معنا ومن مثلنا، الذين ورثوا الصهيونية الرائعة وسقطوا في امتحانها الإنساني والتاريخي والوجودي.

إنه يتنبأ لنا بوطن لا وجود له:

«لقد اجتمع اليهود في هذا المكان الذي جاؤوا إليه من جهات الأرض الأربع، جاؤوا ليغرقوا جميعاً في هذا الطقس البكائي الغريب. جاؤوا من غاليتسيا، بشَتَرهم الطويلة، وشعورهم التي تنهدل على الصدغ، ومن الجزيرة العربية بجلابيبهم البيضاء، ومن بولندا بشعورهم الحمراء الصغيرة، ومن بابل بكل جلالهم ومهابتهم تلك التي يتّصف بها الآباء التوراتيون. جاؤوا من روسيا وإسبانيا، من اليونان والجزائر...». «كانت لعنة الألم المرتعب تتساقط على الرؤوس: سوف أدمرهم وسوف أسلمهم إلى الخرائب والأطلال والنواح والسخرية. سوف أنزع عنهم صوت المتعة وصوت السعادة وصوت العريس وصوت العروس ورائحة المرّ وضوء المصباح».

«كانوا مبعثرين في كل بقاع الأرض، في غيتوات مظلمة. وفي العصور الوسطى، كانت الجدران العالية تفصلهم عن بقية المدينة، وكانت الأبواب تفتح في الصباح وتغلق في الليل، وهم يرتدون لباس الخزي، أشرطة قماشية حمراء أو صفراء على أكتافهم أو صدورهم أو رؤوسهم. وفي شمال فرنسا، كانوا يرتدون قبعات صفراء أو قبعة حمراء أو خضراء، كان عليهم أن يفعلوا ذلك حتى يتمكن معذبوهم من تمييزهم من أجل إساءة معاملتهم أو مهاجمتهم، دون أن يعاقبوا على ذلك. وعندما كان عليهم أن يسوقوهم إلى المحرقة كانوا يلبسونهم الحلل السوداء المزينة بالصلبان ولهب جهنم والشياطين، ويتركونهم يسيرون بين الجماهير المحتشدة التي ترتل اللعنات على رؤوسهم».

هل هذا صحيح يا يرمياهو؟ هل نحن كنا هذه الجلجلة المزمنة؟ هل جئنا إلى هنا كي نعيد خلق السماء، لننجو نحن ونريح العالم منا؟ يبدو أنك توافقني الرأي قليلاً. حسناً. ولكن ألا يبدو الوضع اليوم شبيهاً بالجحيم؟ ألم تسمع بالانفجارات التي بددت أطفالاً ومزقت نساءً وقتلت رجالاً وشلّعت مدينة ولوت أعناقاً كثيرة بالألم الباهظ. قل لي هذه سماء أم جحيم؟ كازانتزاكي روى رؤية قبل سبعين عاماً. هل معه حق، أم أنه أعمى، لم يبصر إلّا الحاضر، ولم يقرأ إلّا ما ترسّب في ذهنه من عنصرية أوروبية؟

سأروي لك ما شاهده أمام حائط المبكى:

«وفي مخاض حياة العار هذه وفي حمى الموت والاستشهاد، كان هذا الحائط المتآكل بفعل قبلاتهم، يومض أمام عيونهم، كأنه الملجأ البرونزي العالي. كان يومض في مدارج روسيا المغطاة بالثلج وفي سهول إسبانيا المشمسة. وكان «صهيون» قمة الفضيلة يسمو في صرخاتهم وبكائهم كأنه قوس قزح رباني. فبعد ثمانية عشر قرناً، ها هم الآن ينوحون ووجوههم تتجه إلى الحائط ويدعون ربهم: إلهنا، إلهنا، أزح عنا كربنا. لقد اغتصب الآخرون إرثنا واحتل الغرباء بيوتنا، وأصبح علينا أن نشتري الماء الذي نشرب، والحطب الذي نوقد به نيراننا. لقد غادرت البهجة قلوبنا وتحولت رقصاتنا إلى نحيب وتنهدات. لقد سقط التاج عن رؤوسنا».

«هكذا كان يندب العبرانيون قرونهم العديدة الماضية، باحثين عنها، ومعانقين ومقبلين حجارة أسلافهم. لقد اقتلعوا وهاموا في الأرض. ولم يبق موسى ذلك القائد العظيم معهم طويلاً، كي يشرع لهم ويوجههم فتمزقوا وتشتتوا وأصبحوا بلا وطن، فلا عزاء لليهود التائهين».

«وبعد قرون عديدة، ها هم الآن يرسلون ممثليهم: الفقراء والمسنين الذين سخرت منهم شعوب الأرض، إلى هذا الحائط، حتى يستطيع يهوه أن يرى الهوة السحيقة التي سقط فيها شعبه المختار. ألم يعدهم بأنه سيورثهم الأرض كلها؟ ألم يلحق بهم الخزي والعار؟ ألم يقتلوا ويستشهدوا من أجل مشيئته؟

كم يجب أن ينتظروا. إنهم المرابون الذين رهنوا دموعهم من أجل الفائدة وكان الله هو المديون. متى يفي الله بدينه؟».

هذا النص متعب وأشتمّ منه رائحة عنصرية مقيتة. ولكنني سأستمر، علّني أفهم أسباب يأسي. أنا مضطر أن أذهب بعيداً. أريد أن أجدد إيماني بإسرائيل، لأنني أكاد أكفر بها. وإذا كفرت فإنني لا أعرف ما ستؤول إليه حياتي. إنه انتحار. أليس كذلك؟

مفزع كازانتزاكي. يرى أن مشروعنا الصهيوني انتحار. التقى بإحداهن وقد جاءت من أوروبا إلى فلسطين في إحدى موجات الهجرة قبل الحرب العالمية الثانية. سألها كازانتزاكي لماذا لم تذهبي إلى روسيا حيث نشأ مجتمع جديد.

قالت: كنت أريد الحرية.

سألها: وهل وجدتها هنا في فلسطين؟

قالت: هنا نعمل بشكل حر. نحاول. نجرب. نبحث. للمرة الأولى أشعر أنني حية وقوية وقادرة على حب الأرض التي لم ألتفت إليها أبداً وأنا في أوروبا، وقادرة على الإحساس بالغبطة لأنني أنتمي إلى الجنس اليهودي.

قال: «لقد بدأت بفقد حريتك. بدأت بتضييق مساحة قلبك. فبعد أن كان فيه متسع للعالم كله، أصبح الآن يميز، يفرق، يختار ولا يتقبل سوى اليهود. ألا تشعرين بالخطر؟».

احتجت الفتاة اليهودية بغضب:
«أي خطر؟ نحن لا نريد أن نظل اليهود الرحّل... آباؤنا في أرض كنعان، كانوا مزارعين. تجذروا في الأرض وأبدعوا حضارتهم».

أجاب: «في الثاني والعشرين من آذار/ مارس من العام ١٨٣٢ حين مات الشاعر غوته، انتهت حقبة تاريخية وبدأت حقبة جديدة. حقبة حكم اليهود، وهذا صحيح. فقد كان غوته آخر ممثل للتوازن في عصره. بعد غوته كانت البداية الحقيقية لعصرنا الراهن. وسيكون العنف هو العنصر الثمين على حد سواء، من أجل تفجير التوازن القديم وخلق التوازن الجديد. وهذا هو سبب انتشار الجنس اليهودي في هذه الأيام. وهذا هو السبب الذي جعل المثقفين الذين يحتلون المراكز العليا ويقودون صنّاع القرار في العالم من اليهود. لماذا حدث كل هذا؟ لأنكم كنتم مشتتين في أصقاع الأرض وقلقين».

عزيزي يرمياهو، أنا خائف من رؤية كازانتزاكي:
«الشتات هو وطنكم. لا جدوى من الهرب من قدركم والبحث عن السعادة والأمن في هذا البلد الثاني. آمل، لأنني أحب اليهود، أن يتمكن الرب، عاجلاً أم آجلاً، من طردكم من هنا، وأن يعيدوا تشتيتكم في العالم».

هل هذا هو مصير اليهودي؟ إما أن يعيش في ذل الشتات أو يجتمع في غيتو كبير، محصّن بالجدران الإسمنتية، والسماء العابسة

والحدود الشائكة والكراهية المتوارثة، كي يعيش حياة مهددة بالموت؟ وعلى إسرائيل أن تربح كل حروبها. وليس مسموحاً لها أن تخسر حرباً واحدة، لأن الخسارة الأولى ستكون الأخيرة والنهائية، وخاتمة الحلم اليهودي. ما هذا المصير؟ هل كان جابوتنسكي يطلب من اليهود أن يتعرضوا للكراهية. ليست كراهية نابعة من العالم، بل علينا إثارتها. وداخل هذا المناخ العدائي وهذه الكراهية نستطيع أن نكون على ما نحن عليه.

لست أدري. هل نحن هنا بشكل طبيعي كما يقول بن غوريون: «لن نصير دولة كالآخرين إلّا إذا اعترف بنا جيراننا»، بينما لم يسأل جابوتنسكي عن رأي الآخرين، واحتقره. هل ضروري أن يكتمل الدين في الدنيا بتمام الأرض كما رأى مارتن بوبر؟

لا يستطيع اليهود أن يمارسوا رسالتهم الأخلاقية إلّا في أرض أجدادهم... إنها أرض الدعوة الأخلاقية. إن الشعب والأرض اختياران متلازمان. لا معنى لإقامة اليهود في أرضهم، إذا لم تكن مهمتهم بناء مجتمع عادل، يكون نموذجاً للإنسانية، فاتحاً الطريق لعالم أكثر عدلاً. الدولة اليهودية يجب أن تكون الدولة النموذج والشاهد للإنسانية. هكذا كتب بوبر، حتى بعد مطحنة الحرب العالمية الأولى. كان مؤمناً بالإنسانية اليهودية الفذة.

يا عزيزي يرمياهو، أود أن أصدق هذه المسحة المثالية للدولة اليهودية. ولكنها ليست كذلك. ألم يكن هيغل مصيباً عندما اعتبر الدولة مسخاً بارداً، لا حلفاء لها، وليست إلّا تجمع مصالح. لماذا يريدوننا مختلفين. إما أن نكون دولة كباقي الدول، أو نكون شذوذاً. في كل الأحوال لا أعير اهتماماً كبيراً لعالم الأفكار المثالية.

فقد اعتدنا في قسوة الواقع، أن نشتم شخصاً ما، بأن نطلق عليه لعنة «المثالي». المثالية إهانة لي لأنها ابنة الكتب والعقول الباردة، وتأتي خلاصتها متناقضة إلى درجة انعدام الاحترام المتبادل بين الأفكار. فإذا كان بوبر يرى تمامية الأرض والشعب فإن إيمانويل ليفيناس يعارض ذلك. فهو يعتبر اليهودية متحررة من الأمكنة. هذه الحرية تحيل إلى الدرجة الثانية مسألة الجذور والتجذر. ليس هناك بالنسبة لليفيناس أخطر من عبقرية الأمكنة. «هذه العبقرية التي تأخذنا وتسلبنا كي نفصل المناظر الطبيعية والهندسات المعمارية على وجه الإنسان الآخر. فالإنسان هو الجوهر».

ألا يلتقي كازانتزاكي مع ليفيناس؟
ماذا؟ ليفيناس بدّل رأيه بعد المحرقة وقال إن اليهودية بحاجة إلى دولة وأمة وهذه لا يمكن أن نجدها إلّا في إسرائيل.
حسناً. اهتدى إلى مأساتنا. هنا تكمن المشكلة: جئنا وجاء معنا موتنا.

ربما تريد أن تقول لي كما قالت السيدة دوفّون: (Madame Duffond:)
«بين حياة مستحيلة وحياة معدومة، أختار الحياة المستحيلة». يا إلهي. ما هذه الكارثة؟ أم عليَّ أن أقبل ما قاله هنريش هاسين عن اليهود: «ليس فألاً حسناً أن تولد يهودياً. ولكن ألّا تكون يهودياً، أي أن تتخلى عن يهوديتك فهو من أعظم الشرور»، ولا علاج له؟ صدقني لا أعرف. أنا في قاع الضياع. لم أعد أدرك شيئاً. لا يهمني اليمين واليسار والوسط ومدّعي السلام. ساعدوني أنا أمام مشكلة أخلاقية. أمام سيزيف يتقمص اليهودي في طوافه العالمي، وفي ملجئه الإسرائيلي».

أتساءل: ألم يكن من الأجدى أن نتبع نصيحة سبينوزا عندما بشرنا بفضيلة الذوبان والتفاعل مع الآخرين؟ فليس مطلوباً ألا تكون يهودياً، بل أن تعيش يهوديتك بينك وبين ربك بطريقة فريدة بفرادتها وفرديتها.

ولكن هذه النظرية ستؤدي إلى فقدان وزوال الشعب اليهودي.

ألم تكن أيضاً خلاصاً له. جئنا بمهمة نجاح ووظيفة مثالية وإنسانية. وها نحن بنينا دولة مسلّحة حتى أسنانها وأخمص رأسها. وها نحن عاجزون عن استعمال ترسانتنا. ونخشى عالماً ذرياً يدعى فانونو لأنه كشف أسرارنا المعلنة والمعروفة والمتداولة.

إننا أقوياء وخائفون.
نحب الحياة ونُقتَل. مثاليون ونَقتُل.
فماذا بقي منّا ومن أحلامنا ومن مشروعنا الإنساني الكبير؟ ماذا بقي لي؟

عذراً يا يرمياهو، لقد أثقلت عليك. أعرف أنك لن تجيبني عن أسئلة من هذا النوع. فأنت لم تبلغ بعد حالتي. ما زلت في السطح السياسي. أنا بلغت القعر الإنساني والوجودي. كل النظريات سقطت. أريد أن أعيش. سأصرخ دائماً بملء صوتي. ليس صحيحاً أن عليَّ أن أختار بين حياة مستحيلة وحياة معدومة. هناك بصيص أمل في مكان ما. دعني أبحث عنه بطريقتي.

هل تنصحني بسماع شهادة أبراهام بورغ؟
لم أكن أنوي سماع أي من السياسيين ولكنني سأفعل ذلك:

5

من الظلم ... يجيئون

ترى هل يستمر النزاع دائماً والحرب
في تصرف الملوك...
ويولد طفل المرأة بلا جدوى
ويمزق الجراد دائماً القمح
المذبحة دائماً يبررها الأصنام
ويلقون على الجثث رداء من كلام
الكمامة للفم والمسمار لليد
آراغون ـ مجنون إلسا

وقف أبراهام بورغ، وكأنه على منصة الكنيست، فقلت: سيصفعني بخطاب يلهب فيَّ عدم الاكتراث، لأني لم أعد أطيق سماع ألسنة خشبية تتدلى منها الكلمات بنفاق سياسي، وقلت: ليته لا يتكلم. الإشارات وحدها تكفيني.

ولكنه لم يطلق عليَّ الكلام، وإنما أعترف بالفشل. نعم. قالها

بوضوح: «لقد فشلنا».
«كان من المفترض أن نكون ضوءاً يشع على أمم العالم. لقد فشلنا في ذلك... لقد تبيّن أن صراع البقاء الذي خاضه اليهود طوال ألفي عام لم يثمر سوى دولة مستوطنات تديرها مجموعة لا أخلاقية من منتهكي القانون الفاسدين، الذين يصمّون آذانهم عن أصوات شعبهم وأعدائهم على السواء... إن دولة تفتقر إلى العدالة عاجزة عن الاستمرار».

هذه لعنة جديدة من فمنا. هل انتهينا أخلاقياً وسياسياً، يا سيد بورغ!؟
«ثمة احتمال حقيقي أن يكون جيلنا هو الجيل الصهيوني الأخير. قد يظل ثمة دولة يهودية في الشرق الأوسط. ولكنها ستكون من نوع آخر. غريبة وبشعة... فالأمة الإسرائيلية ترتكز في الوقت الحاضر على أسس الفساد والظلم والاضطهاد. وبسبب ذلك تلوح نهاية المشروع الصهيوني في الأفق».

قلت: سأتماثل للحوار، متى أتساقط، سيد بورغ، هل حصل ذلك فجأة، أليست الصهيونية التي تنعاها اليوم، هي الابنة الشرعية للصهيونية الأولى، بكل تلويناتها؟ ألم تكن دولة مستوطنات منذ البداية. كثيرة هي القرى الفلسطينية التي محوناها من الوجود وأنشأنا عليها مستوطناتنا التي نعمنا فيها نصف قرن تقريباً... هل أصابك الوعي، عندما شعرت بالألم فقط؟ أم أنك كنت سابقاً في نشوة الانتصار، فلم تسأل عن الأخلاق والمثل؟ رجاء، لا تقتلنا قبل أن نموت.

لم ينظر إليّ. كان مأخوذاً بالمأساة. يبحث عن الحقيقة ليواجهها.

كي يظل على قيد الحياة، مأزوماً بالرسالة التي يود أن ينقلها إلى أولاده وأحفاده عن دولة أنشأنا فيها معجزة العودة.

«لقد أعدنا إحياء اللغة العبرية وشيّدنا مسرحاً رائعاً، خلقنا عملة وطنية قوية. عقولنا ألمع من أي وقت مضى. أسهم شركاتنا متداولة في «الناسداك»... لكن، أمِن أجل تلك الأسباب أنشأنا دولة. لا! إن الشعب اليهودي لم يظل صامداً طوال ألفي عام بغية أن يكون رائداً في صناعة الأسلحة وفي برامج الأمن المعلوماتي أو في إنتاج القذائف المضادة».

قلت: طبعاً، ليس من أجل هذا، فالدولة للإنسان وليس الإنسان للدولة. أليس كذلك؟ إنما، يا سيدي، أنشأ أجدادنا مشروعاً يهودياً يأوينا من المذابح والشتات والتشرد والتسكع والإهانة والبكاء. قد تقول لي: كان هذا من زمان، وهو الآن وطن نموت فيه بعدما كنا نموت من أجله.

وأشار إلى صحة ما أقول:
«بات عدد متزايد من الإسرائيليين يعي الموضوع، خصوصاً عندما يسألون أولادهم ما إذا كانوا يتوقعون أن يكونوا على قيد الحياة بعد خمسة وعشرين عاماً. ويعترف الأولاد الصادقون لأهلهم المصدومين بأنهم لا يعرفون. لقد بدأ العد العكسي نحو هاوية المجتمع الإسرائيلي».

سيدي من المسؤول ؟ الحكومة الحالية، أم أن المسؤولية أعمق، وتعود إلى البدايات؟ أنت في حزب العمل. أظن أنني سمعت منكم كلاماً مختلفاً. كلاماً مناقضاً لهذه المراثي التي تتلوها عليّ الآن. فمنذ البداية، ربما، كنا نحمل بذور الكارثة. ألم تكن

كذلك من قبل، مؤمنين بالانتصار ونشر الصهيونية فوق كامل ترابها والتحام شعبها.

سيد بورغ، أنت صادق في ما تقول، عندما تصف حالتنا، ولكن هذا الوضع من تلك الرحم القديمة التي حبلت بمشروع، ربما، غير واقعي، ولا يدور على محور طبيعي. أنت الآن تغوص في الواقع وتتألم. إننا نتشابه كثيراً. لنعد قليلاً إلى تاريخنا الحديث. وآمل ألا ترجمني بحجارة إسرائيلية.

سيدي، كانت الأرض تتسع لأحلامنا وسطوتنا وقدرتنا. ألست تظن أن بن غوريون كان يرى يوتوبيا بهواية غير قابلة التحقيق؟ ألم يكن هذا الجد العظم، نبي هذه الدولة وبانيها ومبعث آمال اليهود في أصقاع العالم، يسعى إلى تحقيق خرافة؟ كان ذلك الزمن، الزمن الجميل للصهيونية. الزمن الذي تحول فيه انتصار إسرائيل عام ١٩٤٨ إلى منصة انطلاق لحركة تجنح إلى تحقيق المستحيل الجديد في التاريخ: «الوصول إلى الأمبراطورية الإسرائيلية الشاسعة الأطراف»، كما نص الكومنولث الثالث عام ١٩٤٨. فغداة استقلال دولتنا طرح بن غوريون رؤيته الحالمة:

«إن دولة إسرائيل قامت فوق جزء من أرض إسرائيل. إنني أعتبر (قيام الدولة) المقدمة الكبرى الرئيسية التي تمثل مركز الصدارة في تفكيرنا بأسره. بل توجه حركتنا وسياستنا بأجمعها هي التالية: أن الدولة ليست هدفاً بحد ذاته، بل هي وسيلة الهدف. والهدف هو الصهيونية فتسعة أعشار يهود العالم بلا وطن».

سيدي، عاشت نخبكم السياسية وأنت منها، وهي تسكر بنشوة الانتصارات. هل كنتم عمياناً؟ لقد عشتم في أسْر حلم رائع، تحوّل

إلى كابوس بحكم تعقد الأمور، ولأن أعداءنا مازالوا على قيد الحياة. حلمكم يبدأ في التاريخ من أول الزمان ويتوغل في المستقبل لجمع اليهود من كل الأرض في حدود دولة تصل حدودها إلى تخوم الوعد الإلهي. حتى الملحدون الصهاينة تمرنوا على قبول «الوعد الإلهي» وترجموه إلى «وعد سياسي» تحمله الصهيونية إلى خواتيمه اللائقة مع العهد. فالعهد والوعد صنوان صهيونيان. أليس كذلك؟

ألم نكن دولة مستوطنات؟ ماذا تسمي ما جاء في الكتاب السنوي لحكومة إسرائيل عام ١٩٥٢. حيث سجّل بن غوريون ما يلي:

«تتألف كل دولة من الأرض والشعب. وإسرائيل لا تشذ عن هذه القاعدة، غير أنها لم تأتِ مطابقة لشعبها وأرضها. وأضيف الآن أنها قامت فوق جزء من أرض إسرائيل فقط. فالبعض يتردد بصدد استرجاع حدودنا التاريخية التي جرى رسمها وتعيينها منذ بداية الزمان، وحتى هؤلاء لا يسعهم إنكار الشواذ الذي تمثله الخطوط الجديدة».

أليس لذلك، قمنا باستئصال ثلاثة أرباع مليون فلسطيني من أرضهم، ودفعناهم بعيداً عنا، ليغرقوا في الصحراء؟ أليس فوق أرض لنا عندهم ومعهم، أقمنا مستوطناتنا؟

سيدي، انتفختم بالانتصارات، وها أنت تتوجع الآن من نتائجها. ألم تكن تلك الأرض المفتوحة، من ضمن المشروع الصهيوني؟ يعني: ألم تكن تلك الأرض استرجاعاً وتجريراً لنا من أهلها؟ ألم نصب جميعاً بحمى الاستيطان؟ ما الذي أيقظك الآن؟

لم ننفكّ مرة في البدايات عن التفكير بالآفاق اليهودية البعيدة عن

حدود العام ١٩٤٨. وحلم إسرائيل الكبرى عاد وراود زعماء حزب العمل بعد حرب الأيام الستة الرائعة. الهستيريا التفاؤلية لانتصار سهل على ثلاث دول عربية بسرعة البرق، أطلقت حنجرة ليفي أشكول الذي حقنته شجاعة المعارك الخاطفة برؤيا جديدة: «تحقيق إسرائيل الكبرى».

سيد بورغ، أتفهّم شكواك. السياسة ليست خطاً مستقيماً. إذا كنا عاجزين عن تحقيق تمام الحلم، فلنحافظ على الإنجاز بحدوده الدنيا، أي فلنحافظ على نصف الحلم أو أقل قليلاً. فلنبدع صيغة تحافظ على إسرائيل الصغرى. فلنفكر معاً في تخليص الصهيونية من أوهامها الماضية ولا أخلاقياتها الحاضرة. أتفهم ذلك؟ ولكننا وصلنا، كما أظن إلى ما نحن عليه، بسبب إخفاقنا في النظر إلى الأمور بمنظار آخر غير منظار الهوس الصهيوني والبراءة اليهودية. تغيرت الأمور وتبدلت المعطيات. ولم نعد أسياد القرار ولو كنا أسياد القوة في المنطقة.

سيدي، استمرت نشوتكم تغدق عليكم الطموح إلى أن وصلتم إلى اجتراح توازن أفضل بين التاريخ والجغرافيا. فبعدما كانت التوراة، كما يستشهد شيمون بيريز «هي الوطن الأم التائه للشعب اليهودي»، صارت إسرائيل الدولة، «الممثل السياسي لمصير اليهودية». ألا ترى حجم الانتفاخ المصطنع لهذا الكلام؟ ولكننا كنا نصدقه. العرب اخترعوا خرافة التحرير من النهر إلى البحر، ونحن اخترعنا خرافة الاستيطان. فكل أرض مفتوحة بالسيف، هي لنا. وانتهى الأمر.

ها أنت، سيد بورغ، ترسل كلامك ضد هذه الدولة، وترى أنها ذاهبة إلى بشاعتها وإلى خرابها. هل نسيت أنكم وصفتم دولتنا

بأنها فوق الدول؟ لقد وصلت حالة السكر بكم إلى إعلاء شأن إسرائيل ووضعها في مكانة خاصة، لا يقيم فيها سواها. أليست هذه عنصرية مقيتة؟ يقول شيمون بيريز عن إسرائيل، بأنها دولة لا يمكن مقارنتها بمصير دولة أخرى:

«فليس لها شقيق لا من حيث المصالح الإيديولوجية ولا العرقية، ولا السياسية ولا الفكرية ولا الاقتصادية. فمن وجهة النظر هذه ينطبق على إسرائيل التحديد التوراتي «للشعب الذي يقيم وحيداً»... إننا الشعب العالمي. لذلك، نطمح لأن نكون عضواً على حدة في مجموعة دول العالم».

ما رأيك سيد بورغ؟ هذه الدولة المتألهة تبدو اليوم على الحافة كما تقول. أظنك تبرر مآلنا بأننا كنا دولة صعبة دائماً. دولة لا شبيه لها. دولة تعيش في أرض تعاديها وبين شعوب تقاتلها. دولة تبحث عن سلامها بالحروب. فمتى كان السلام يصنع بغير القوة؟ أليس لذلك توكل مهمة السلام إلى الجيوش المحاربة؟ يا للعار! ما هذا السلام المتوج بالدماء والقتل؟ إنما حصل أننا كنا نريد سلاماً مع أعداء آخرين، غير أعدائنا الحقيقيين. كنا نريد سلاماً مع دول عربية تقاتل بالنيابة عن الفلسطينيين. استبعدنا فلسطين من همومنا. لم نحضرها إلى المفاوضات، وعندما أحضرنا قادتها بعد قتل ودماء، لم ننجح في إقناعهم بالحد الأدنى من دولة رأوا أنها فتات أرض مقسمة، أطلقوا عليها لقب «فلسطينستان»، تشبيهاً بالباندوستان في أفريقيا الجنوبية، زمن حكم التمييز العنصري.

هل حصل أنكم اكتشفتم الفلسطينيين بالضرورة وليس بالواقع والفكر؟ حاولتم التهرب من حضورهم. وها أن الحكومة الإسرائيلية

اليوم، تفتش عن فلسطيني يشبهها كي تتفاوض معه. ولما لم تجد، استعانت بمصر والأردن. ما هذه المهزلة؟ أم أن هذه «الدراما» لا نهاية لها؟

إن سوداويتك تؤنبكم. لا شك أن لك فضل الإفصاح عن حقيقتك القاسية. ولك فضل الجرأة على زملائك، ولو كانت متأخرة، وربما لو لم تتأخر، لم تصل إلى هذا الفشل، الذي يرى إلى الانتصارات السابقة أنها مشكلة عويصة، ومشكلة قاتلة:

«لا يمكن أن ينجح ذلك. حتى إذا حنى العرب رؤوسهم وعضّوا على جرحهم إلى الأبد لا يمكن أن ينجح. إن بنية قائمة على القسوة الإنسانية لا بد أن تنهار في آخر المطاف. لقد بدأت الصهيونية في الانهيار، مثل قاعة أعراس متصدعة في القدس. وحدهم المجانين ما زالوا يرقصون على السطوح بينما تنهار الدعائم تحتهم».

وسلاحنا سيد بورغ، ماذا نفعل به؟ إنه ينطق باستمرار، ولا يهدأ عن الانحدار بنا إلى القاع. ليته يحل مشكلتنا اليوم. سابقاً، كان يدفع الأعداء بعيداً عن التخوم. اليوم، كلما قتلنا فلسطينياً، نبت سواه بيننا، معبّأً بالموت وإشعاعاته القاتلة. لست أتهمك أنت. إنما زعيم حزبك شيمون بيريز ربط مصيرنا كي نبقى على قيد الحياة، بوفرة السلاح. وقد يكون ذلك صحيحاً مائة بالمائة. إذ، لولا السلاح، لأبادونا ورمونا في البحر. ولكن هذا السلاح الذي نجونا به، هو مأزقنا. ليس عندنا سواه كي نحمي أنفسنا قليلاً. لأن استعمال سلاح السياسة، يعني أن نتنازل عما كسبناه بالسلاح. وبين السلاح والسياسة تنافس شديد، والغلبة للقوة.

اسمع بيريز يقول: «إن من بين الجهود المبذولة للاستمرار في الحياة في إسرائيل، تعطى الأولوية المطلقة للحصول على السلاح». «أليس هو الأب الروحي للقنبلة الذرية في إسرائيل؟ ألم يرَ إلى الخطر منذ البداية عندما «أشار إلى المصادفة التعيسة بين انبعاث اليهود وانبعاث العرب». الانبعاث المتناقض وجودياً ونفسياً ومادياً وجغرافياً. فنحن يا سيد بورغ، وبينما كنا نقتني السلاح المتفوق الذي أمّن لنا سيطرة كاملة على مجموع الأعداء العرب، وبينما كنا نمارس هذه القوة، كنا ندرك أن العرب ينهضون. فقد انتقلنا من تشرد الشتات إلى وطن مسيّج بالخنادق العميقة ومبني بأفواه البنادق وترسانات الأسلحة. جدراننا من سلاح. سقفنا من رصاص. سماؤنا من حديد. شواطئنا من بوارج. كنا ندرك أن علينا كي نحيا أن نقتل. وهم ـ أي الفلسطينيون ـ عليهم كي يبقوا على قيد الحياة، أن يقتلونا. دلني على مرحلة أو سنة توقف فيها القتل المتبادل. والقتل يا سيدي، يولد الكراهية ويؤسس لأحقاد مزمنة. نهاجمهم فينفجرون فينا، ونحن نقلب الأرض فوق رؤوسهم وندفنهم تحتها جثثاً وأحياء. إنه القتل الذي لا يتوقف في مسيرته عند محطة. بربرية حديثة بأفتك أنواع الأسلحة. فما هي الرسالة التي تحملها إسرائيل إلى العالم؟ أي أخلاق أن تتحول إلى غابة متوحشة نتبارى فيها مع الفلسطينيين في ابتداع وحشية متفوقة ونادرة تصل إلى العدمية والانتحار المشترك.

قل لي سيد بورغ: متى يتوقف ذلك؟ متى تتوقف آلة التفجير الفلسطيني المربوطة بأجسادهم والتي تنفجر قنابلها فور رؤيتهم لنا؟

تنهد بورغ قليلاً... صمت عينيه كان بليغاً... وكلامه من كوابيس: «يجب ألا تفاجأ إسرائيل التي لم تعد تبالي بالأطفال الفلسطينيين،

عندما يولد هؤلاء معجونين بالكراهية ويفجرون أنفسهم في أمكنة اللهو الإسرائيلية. إنهم يسلمون أرواحهم إلى الله في أمكنة لهْونا، لأن حياتهم عذاب كلها. يريقون دماءهم في مطاعمنا بغية القضاء على شهيتنا، لأن أطفالهم وأقرباءهم جائعون ومذلولون. يمكننا أن نقتل ألف زعيم منهم في اليوم من دون أن يغير ذلك شيئاً. لأن زعماءهم يأتون من أسفل، من آبار الكراهية والغضب، من البنى التحتية للظلم والفساد الأخلاقي».

ـ إنك تبرر العنف والحقد والكراهية. تبرر العمليات الانتحارية الهمجية التي تقتلنا وترمينا في كوابيس متناسلة. عفواً؟ لا تبرر؟ تفسِّر العمليات؟ وهل نحن بحاجة إلى تفسير أم إلى منع هذه العمليات واستئصالها؟ نريد أن نرتاح قليلاً.

قال بورغ: «مريح أن تكون في مستوطنة بعيدة عن الاحتلال. مريح أن تمر بسيارتك من شمال القدس إلى جنوبها بـ ١٩ دقيقة، غرب الحواجز الفلسطينية. من الصعب أن تدرك التجربة المذلّة التي يعيشها العربي الذي يجب عليه أن ينتظر ساعات على الطريق المخصصة له والحافلة بالحواجز. هنا طريق للمحتل، وأخرى للمحتلَّة أرضه.. الاحتجاج ضرورة أخلاقية».

حسناً. سأحتج. وأطوب نفسي أخلاقياً. إنما هذا ليس حلاً. هذا حلم.

لا. «لقد انتهى وقت الأوهام وجاء وقت القرارات. نعم. نحن نحب أرض أجدادنا وكنا نود لو نستطيع العيش هنا وحدنا في زمن آخر. لكن ذلك لن يحصل. فللعرب أيضاً أحلامهم وحاجاتهم».

وعي متأخر، سيد بورغ. بعد سلسلة من المجازر والحروب والاضطهادات والانتفاضات وقرن كامل من الأحقاد المتراكمة. إنما، لا بأس بهذا الاعتراف. هل يمكن تصحيح التاريخ السابق بكتابة تاريخ لاحق، مختلف عن تاريخنا المأزقي؟

وبدا لي بورغ متحمساً للذهاب بالأمور إلى خواتيمها. فلديه على الأقل حلول نظرية، قد تجد في الواقع أقداماً تسير بها إلى النهايات السعيدة: «لم يعد ثمة بين الأردن والمتوسط غالبية يهودية قاطعة. لذلك لم يعد ممكناً أن تحتفظ بكل شيء من دون أن تدفع الثمن. لا يمكننا إبقاء غالبية فلسطينية تحت سيطرة اليهود وأن نزعم بأننا الديموقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط. لا يمكننا الاحتفاظ بالأرض والحصول على غالبية يهودية في الدولة اليهودية الوحيدة في العالم، أقله، ليس بوسائل أخلاقية وإنسانية ويهودية».

مفزع أنت يا بورغ، أنت تفضحنا بالكامل. هذا يعني أن مشروعنا لم يكن أخلاقياً إلّا بالنسبة إلينا. لم يكن مثالياً إلّا لليهود، على افتراض أن ذلك صحيح. أما بالنسبة للعرب والفلسطينيين، فقد كان الأمر مختلفاً. إن ديموقراطيتنا هي لنا، وليس لمن يقيم معنا. ديموقراطيتنا احتلت الضفة والقطاع. ويرى الفلسطيني أن هذه الديموقراطية عدو له. وهو واقع بين نارين: دكتاتورية من عنده عليه، وديموقراطية من عندنا عليه أيضاً. حسناً. لنكمل إذاً وأتوقع أن نقوم إما بفصل عرقي أو فصل جغرافي.

عدنا إليك يا آموس أوز. فلنسمع ما يقوله بورغ:
«هل تريدون أرض إسرائيل الكبرى؟ لا مشكلة. تخلوا عن الديموقراطية. دعونا نؤسس نظاماً فاعلاً من الفصل العرقي، بما في

ذلك من معسكرات اعتقال ومن قرى محوَّلة سجوناً: غيتو قلقيلية، غولاغ جنين... هل تريدون غالبية يهودية؟ لا مشكلة أيضاً، ضعوا العرب في حافلات وياصات وفوق الحمير والجمال واطردوهم بالجملة، أو افصلوا أنفسكم عنهم بشكل نهائي. وليس ثمة حل وسط. يجب أن نزيل كل المستوطنات. كلها. وأن نرسم حدوداً معترفاً بها دولياً بين الدولة اليهودية والدولة الفلسطينية... اليهود يعودون إلى إسرائيل ، والفلسطينيون إلى أرض الدولة الفلسطينية. أتريدون الديموقراطية؟ لا مشكلة. إما تخلوا عن أرض إسرائيل الكبرى حتى آخر مستوطنة، وإما امنحوا الجنسية وحق المواطنية، بمن فيهم العرب. النتيجة ستكون طبعاً، أن أولئك الذين كانوا يعارضون قيام دولة فلسطينية في جوارنا سوف يضطرون إلى احتمال نشوء الدولة داخلنا من خلال صناديق الاقتراع».

هذه نبوءة مفزعة.

دعني أكمل: «علينا أن نختار بين العنصرية اليهودية أو الديموقراطية. المستوطنات أو الأمل للشعبين... الرؤى المزيفة للأسلاك الشائكة وحواجز الطرق والعمليات الانتحارية، أو حدود معترف بها دولياً بين دولتين وعاصمة مشتركة في القدس».

هل هذا ممكن؟ هذه يوتوبيا مأساوية؟ الطرد مارسناه مراراً، ولم نفلح. الديموقراطية منحناها للفلسطينيين في إسرائيل ولم ننجح. ها هو عزمي بشارة لا يمتّ إلى إسرائيل بصلة. هو عربي حتى النخاع. فلسطيني إلى الأبد. ضدنا إلى يوم القيامة. لم تقل لي، أي ديموقراطية نحافظ عليها وما زال عندنا مشروع فلسطيني قابل للنمو في عشرين أو خمسين عاماً؟

إننا نعيش «اللعنة الكاملة». ماذا تسمي المصير اليهودي في هذه الأرض؟ لا العرب سيذوبون، ولا الفلسطينيون سيرحلون، ولن يتناقصوا أبداً. يتناسلون كالبراميسيا. ونحن، لسنا قادرين على التقدم أو التراجع. البحر من ورائنا، والجدار من أمامنا، والسماء أطفأت نعمها علينا. نكاد نتحول جميعاً إلى حطام: شوارع مقفرة، ملاهٍ مبادة، شواطىء ملغومة ببشر متسللين، مدارس مصفحة، شرطة منهكة، خطط تدمير، محطات حماية، إنفاق باهظ على الأمن. ومع ذلك فإن مشروعنا الدائم، للبقاء على قيد الحياة بطريقة مستحيلة، أن نجعل الآخرين معدومين من الحياة أو من أي أمل بالحياة بشكل طبيعي.

عذراً يا سيد بورغ، هذا الذي صنعتموه لنا، ليس وطناً لنا، بل محرقة بالتقسيط. لست أدافع عن همجية الفلسطيني، الذي يبرر قتله لي بألف حجة طوباوية ودينية وحاقدة ومدمرة. لكنني عندما قرأت شهادات بعض الجنود في جنين، رأيت أننا نشبههم كالنسخ الأصلية، وربما، لأننا نملك أسلحة أكثر حداثة، ومتطورة بشكل فائق، صرنا أفظع منهم. فهم يرقصون في الشوارع عندما نتساقط أشلاء مبعثرة، ونحن نتفنن بالدمار والقتل الذي نصنعه لهم. هل قرأت شهادة موشي نسيم في «يديعوت أحرونوت» بعد دخول مخيم جنين:

«وصلت المخيم، وأنا مصاب بجنون اليأس. لم يكن لديَّ شيء أخسره. عام ونصف وأنا عاطل عن العمل. صرفتني بلدية القدس عن الخدمة بتهمة الفساد. ولم يكن لديَّ أي رصيد لسداد ديوني وإعالة عائلتي المؤلفة من امرأة وأربعة أولاد».

بالمناسبة، هل تعرف، سيد بورغ، أن الجيش الإسرائيلي يدلع

البلدوزر العملاق D9 ويطلق عليه لقب «نونورس»؟ أليس هذا التضاد مثيراً للاشمئزاز.

يقول موشي نسيم بلا خجل أو ندم، بل وبافتخار كامل: «ما كان مسلياً أنني لم أكن أعرف قيادة «نونورس». قبل دخولي نابلس علمني زملائي كيف أسوي الأرض أفقياً. ولما وصلت جنين، لم أكن قد تمرنت على تدمير أي منزل ولا حتى تدمير أي جدار. ولكي يتعرّف إليّ أولادي عبر التلفزيون وضعت إشارة فريق كرة القدم الذي أحبذه على مؤخرة البلدوزر. حاول الضابط نزع علم فريق «البيتار» فرفضت واقترحت عليه أن أرفعه على أول مسجد نراه».

«لم أترجل من البلدوزر الذي يزن ٥٠ طناً لمدة ٦٥ ساعة متتالية. وقد استطعت الصمود هكذا، لأنني كنت أكرع الويسكي، ولأنني كنت أستعيد صور العمليات الانتحارية. كان تدمير البيوت سهلاً، فعرض البلدوزر أكبر من الأزقة، يكفي أن أمرّ به حتى تنهار الجدران وتدكّ المنازل. كان يلزم ألا أُظهر أي شفقة على الإطلاق. لم يكن لديّ وقت لإضاعته، كانت المنازل تدمّر على سكانها، كان هناك عدد من القتلى تحت الأنقاض. تدمير منزل يعني أنك تقضي على أمل أكثر من ٥٩ شخصاً ولأجيال قادمة. لا منزل، أي لا تواجد ولا سكن ولا إقامة... إذا كنت نادماً على شيء، فهو أنني لم أستطع أن أدمّر كل المخيم في ثلاثة أيام. نفذت أمراً واحداً فقط، هو التدمير. في جنين دفنت ثمانية عشر عاماً من الإحباط والضجر».

«عندما عدنا من المخيم. كان الجنود متعبين ومنهارين فيما كنت أطالب بالمزيد. أنا حزين إزاء ما حصل للأطفال الفلسطينيين. أما أهلهم فإنهم لا يستحقون الحياة. إن امرأة حاملاً تأوي إرهابياً يجب

تصفيتها. كل المنظمات الإنسانية ومنظمات حقوق الإنسان والأمم المتحدة لا تروي إلّا ترهات وسخافات. لقد سوينا جزءاً من المخيم أرضاً. وبفضلنا يستطيع سكان المخيم أن يلعبوا كرة القدم».

انتهت المجزرة ما رأيك سيد بورغ؟ ماذا تسمي هذه الشنائع؟ طبيعي أننا لم نولد أشراراً ولم نولد ملائكة. إن هذه المسوخ البشرية لم تلدها أمهاتها بل ولدتها أرحام المجتمع الذي نعيش فيه، وأرحام الظروف الإقليمية التي تعيشها إسرائيل. وهذا ينطبق على الفلسطيني أيضاً. ألا توافقني الرأي أننا مجتمع منهك وفاقد الكثير من القيم. ليس بسبب ديننا وأصلنا وثقافتنا، بل بسبب مشروعنا السياسي، الذي لم يقم وزناً، خلال قرن، لظروفنا وظروف من حولنا. نشأنا أعداء يتساوون في اللاإنسانية.

لقد اكتشف جاكوبو تيمرمان في كتابه «إسرائيل في لبنان» كيف سقط اليهودي عن صهوة أخلاقياته: «نحن الذين نعذب الفلسطيني، أضعنا التقاليد الأخلاقية لليهودي، وأضعنا موقعه في التاريخ». ويراقب: «أمام نافذتي حيث أكتب الآن، يقيم مطار عسكري صغير بجانب الأبيض المتوسط، أعرف ما هي مهمة هذه الطائرات التي تقلع كل دقيقة باتجاه الشمال. إنها ذاهبة إما لقتل الفلسطينيين أو لاستعادة الجرحى من خنادق القتال... نحن الإسرائيليين... من نكون؟».

كنا نطارد الفلسطينيين في كل مكان، حتى في الأمكنة البعيدة. وكنا نعطي دائماً اسم السلام لعملياتنا العسكرية. «فسلامة الجليل» كانت تعني اجتياح لبنان واحتلال بيروت. وكنا نمهد لهذه العمليات بحملات دعائية منفوخة. يقول تيمرمان: «كذبوا علينا،

كما كان الفلسطينيون مخدوعين. عندما كانوا يقولون لنا، إن الفلسطينيين يحاصروننا، كنت أتساءل إذا ما كان العكس صحيحاً، وكنا نحن الذين نحاصرهم... كان شارون يتطلع إلى وضع لبنان تحت الوصاية الإسرائيلية، تماماً كما فعلنا عندما احتللنا الضفة الغربية وألحقناها، وتركنا فيها فلسطينيين للقيام بتأمين حاجاتنا الدنيا، للصناعة والبناء وكناسة الطرق. هذه هي جنوب أفريقيا في قلب الشرق الأوسط».

غريب كيف أننا كنا دائماً نعيش في خوف، وهذا الخوف مكثف وباهظ جداً، كي نبقى على سلاحنا. طبعاً نحن محاطون بأعداء، ولكنهم كانوا أشد هزالاً من خيمة في صحراء. «عملت إسرائيل على إبقائنا باستمرار في حالة خوف دائم». «كانت بحاجة إلى خوفنا ونالته»... حتى في بلادنا، يجعلون اليهودي يعيش بخوف، تماماً، كما كان يعيش في ظل حكومات عنصرية في أوروبا البيضاء.

عزيزي بورغ، لست أدّعي معرفة الأشياء، ولكنني بتُّ بعد انفجار الحافلات أشك بكل ما حولي. وأشك بكل ما يقال لي. أشاهد التلفزيون مساء، أستمع إلى الأخبار، وأشعر أن كذباً ما يمر أمامي من دون أن أكتشفه. أعيش حالة شك قاسية. فدعني أشكك بأخلاقياتنا السياسية وأخلاقنا المثالية وأخلاقنا كيهود. إنني أعرفها في الكتب والمواعظ وأجهل مكان إقامتها في السياسة. السياسة بلا أخلاق. ولهذا لم نكن أخلاقيين. فمناحيم بيغن الذي حاز على جائزة نوبل للسلام، لم يكن قديساً، بل كان إرهابياً، وصديقه إسحق شامير كذلك، لقد طوردا بسبب ارتكابهما أعمالاً إرهابية: «إن الصيهوني الإسرائيلي، يكون في حاجة إلى تجديد وجوده

بطريقة وحيدة هي الحرب، وإلى ملء هذا الوجود بأسباب مستمرة بجدارة التفرد، وهي القتل والقتل والقتل»... «ولولا الانتصار في دير ياسين (المذبحة طبعاً) لما كان هناك ما يسمى بدولة إسرائيل. بإمكانك أن تقول لي، إن هذا يعود إلى حرب الاستقلال وحروب إنشاء دولة إسرائيل. ولكن ما رأيك لو قلت لك، إننا رُشِّحنا عالمياً لنكون مؤتمنين على ذاكرة «الهولوكوست». ولم نبال، أبداً في إيقاظ هذه الذاكرة باستمرار لجعلها متنبهة دائماً، كي لا تتكرر المحرقة مرة أخرى. بالفعل لنا شهادة حسن سلوك رائعة. إنما... إنما... إنما... لماذا حاربت «الحكومة الإسرائيلية سراً، انعقاد مؤتمر أعدَّ له ثلاث سنوات، وكان على مستوى المندوبين من كل الدول الديموقراطية. هل تعرف لماذا؟ بالطبع أنت لم تنسَ ولا ينبغي أن تنسى أننا ضحايا «الهولوكوست» والإبادة الجماعية. وأن الصمت الدولي الذي رآنا نذهب أو قادنا إلى المحرقة، كان متواطئاً مع الجلاد والسفاح أدولف هتلر. إننا ضد هذا الصمت. الصمت مجرم ومشترك بالمذبحة... إنما... إنما.... إنما. لماذا عندما عرفت إسرائيل أن ذلك المؤتمر سيتداول المذابح الأرمنية التي ارتكبها الأتراك، غضت النظر، وفضلت الصمت، وحاذرت استعداء صديقتها تركيا. ألم يفعل كذلك الأوروبيون الذين ندين صمتهم. يا للعار!

سيد بورغ، لقد وجه المؤتمر نص رسالة قاسية لإسرائيل وقّعها كل المشاركين وأدانونا خلقياً:

«إن الموقعين على هذه الوثيقة ينتابهم شعور الفضيحة والحزن لموقف الحكومة الإسرائيلية. إن هذا الموقف يذكرنا بمؤامرة الصمت التي ساهمت بالمحرقة. هذه الوضعية الإسرائيلية هي في تناقض تام مع جوهر الوجود الإسرائيلي».

ما رأيك سيد بورغ؟ أخلاقنا متوارثة من زمان؟!

لا أريد أن أثقل عليك كثيراً. سمعت إدانتك ولكنني لم أقتنع بحلولك ولا بالتهم التي استيقظت متأخرة، وادانت اخلاقنا. فنحن كذلك من زمان وأظن أنني بحاجة إلى معرفة المزيد، والبحث أكثر عن حل مصيري ونهائي لمصيري ووجودي. على أن يكون الحل قابلاً للتنفيذ، وليس صالحاً للقراءة والتداول.

لست فرحاً أبداً. فأنا أعرف مثلك أن إسرائيل التي تبحث عن سلام يحميها ويقيها الخطر، بعيد المنال. إسرائيل الوعد لن تحضر باكراً وقد لا تحضر. والكاتب والسفير الإسرائيلي إيلي برنابي يوضح المأزق أكثر منك. فالعالم الذي كان يؤيدنا والعالم الذي اندفع بحماسة ليقف إلى جانبنا في الغرب، يضعنا في مقاعد المتهمين ويدينا. إن دولتنا فقدت شرعيتها عندما تحوّلت إلى ثكنة. ولدينا ثلاث إصابات قاتلة:
الأولى، أن إسرائيل ليست مدانة بسبب سياسة حكوماتها واستعمالها للعنف المفرط ضد الفلسطينيين، بل هي مدانة في أسس وجودها ومبادئها. هناك قابلية دائمة لإدانتها، لأنها إسرائيل.
الثانية، أن إسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم، المهددة بالزوال. ويرى ذلك عدد كبير من المثقفين في الغرب.
ثالثاً، أن إسرائيل مدانة من قبل الرأي العام العالمي الصديق.

ألم تلتفت إلى الإحصاءات التي أجريت في أوروبا، وتحمّلنا مسؤولية أولى في جعل العالم أقل أمناً وسلاماً.

تعبت يا سيد بورغ...

دعني أرتاح قليلاً...
سآخذ قيلولة... قبل استضافة حاييم هنغبي. علّه يريحني من حمّى الفوضى التي تجتاحني. فأنا أبدو لي غير منطقي، أنتقل من موقف إلى آخر، من رأي إلى آراء، ولا أركن إلى حقيقة. هذا هو ضياعي. آمل يا حاييم أن تساعدني، فماذا تقول:

6

البحث عن اثني عشر فلسطينياً!

يا لرائحة الموت على منديل الريح
... يا موعداً جنائزياً يا عرضاً قاسياً
صار معنى آخر للموتى
الذين غنيتهم من قبل
كل مساء في غرناطة
كل مساء يموت طفل
آراغون ـ مجنون إلسا

«عندما كنت صبياً في العاشرة من عمري، في نهاية عهد الانتداب، كان صاحب البيت الذي نقيم فيه عربياً. وكان منحوتاً على حجر البيت كلام باللغتين: العربية والإنكليزية. كما كان البيت المجاور لبيتنا، مملوكاً من العرب ومسكوناً أيضاً. وكان كل الحي غربي بيتنا مختلطاً. وفي مكان عمل والدي في بلدية القدس، كان العرب واليهود يعملون جنباً إلى جنب، وبين الحين والآخر كان والدي

يأخذني للنزهة في أحياء القدس والقرى المحيطة. وأنا أتذكر بشكل ممتاز بلدة عين كارم الفلسطينية والمالحة ولفتا. ولذلك لم يكن العرب غرباء عنا أبداً. كانوا دوماً جزءاً من المشهد. جزءاً من البلد، ولم يخطر ببالي قط التشكيك بإمكانية العيش سوياً معهم. فعلاً معهم. بيتا بجوار بيت، وشارعا بجوار شارع».

رائع أنت يا حاييم. تتذكر الماضي وتتلوه كالقصيدة، ولكنه وقوف على أطلال. ماذا ينفعنا إن هكذا كنا وبتنا اليوم على قارعة الدم؟ هل تريدني أن أتذكر مثلك؟ إذاً، دعني أبدأ الرحلة العربية منذ حروفها الأولى. سأصطحب معي الكاتب جاك أتالي. آمل أن تصبر عليَّ. فقصتنا مع العرب ممتعة وجميلة وليست مأساوية دائماً. فإن كنت تتذكر عروبة قريبة، فدعني أتوغل في التاريخ العربي.

أنا الآن في الحجاز، تقريباً قبل العام ٥٣٠ بعد الميلاد، أزور مملكة في شمال اليمن اعتنق أهلها اليهودية والتي اختفت تحت ضغط ملك مسيحي. هنا، في هذا المدى الرملي الهادىء، في فضاء نوراني، ولد محمد بن عبد الله وتربى في كنف عمه، وتعرّف إلى خديجة، وبدأ دعوته التوحيدية في مكة.

كانت يثرب أو «مدينة الرسول بعد ذلك» واحة تبعد ٣٠٠ كلم عن مكة. وفي عام ٦٢٢م، قام ٧٥ رجلاً من المدينة وطلبوا من محمد أن يحكم في خلاف نشأ بين عائلتين أو قبيلتين عربيتين: الأوس والخزرج. وكانت المدينة في ذلك الزمن تضم مركزاً يهودياً واسعاً مؤلفاً من حرفيين وتجار وصانعي أسلحة وأصحاب أموال. التحكيم كان صعباً بين الأوس والخزرج وحلفائهما. ومع ذلك، فقد حسم محمد الخلاف لصالح الخزرج وحلفائهم من اليهود، (باث بتور،

اليهود والمسيحيون في ظل الإسلام).

وحاول محمد استمالة اليهود، وطلب من أتباعه: «جادلهم بالتي أحسن». بعض اليهود وافق، أما الأكثرية فقد اعترضت على دعوة محمد لدين إبراهيم التوحيدي.

ويروى أن الملاك جبريل أعلم محمداً بأن بني النضير من اليهود، يتآمرون عليه لأن التحكيم لم يأت في صالحهم. فأمر بطردهم من المدينة. لقد كان صراعاً سياسياً، ولم يكن لاهوتياً. لأن الرسول في المدينة، لم يعد نبياً فقط، بل بات نبياً وقائداً مسلحاً. وحدث بعد ذلك، أن أمر محمد أتباعه بالصلاة خشوعاً باتجاه مكة، بعدما كانت القدس قبلة المؤمنين بالدين الجديد.

وتزوج الرسول من امرأة يهودية تدعى ريحانة، بعد هزيمة يهود خيبر وإقامة صلح مع المسيحيين واليهود، ضامناً لهم حرية العبادة والعمل، مقابل جزية يدفعونها ذهباً. في العام ٦٣١م عقد اتفاقاً مع زعماء نجران من المسيحيين وبعض المناطق اليهودية، سمح لهم فيها بالبناء والعمل مقابل دفع نسبة من محاصيلهم للمسلمين.

ولأن للسياسة أحكاماً تختلف عن أحكام الدين، لم يطرد الخليفة أبو بكر المسيحيين والمسلمين من الجزيرة العربية. وفي زمن عمر بن الخطاب، الذي فتح دمشق، وجد جالية يهودية تستقبله استقبال الفاتحين والمحررين. وعندما وقعت القدس في أيدي المسلمين بعد حصار طويل عومل اليهود أفضل من معاملة المسيحيين لهم.

وبسرعة، أوكل عمر بن الخطاب إلى سوريين ويهود أمر جمع

الضرائب. ودخل في منظومة الفتح العربي يهود كانوا يعملون في الحياكة والزراعة والربا. وساهموا في اللغة والتصنيف والتبويب. وكانت السفن التجارية تحمل باستمرار عدداً من التجار اليهود إضافة إلى قوافل تنقل بين بلاد فارس شرقاً وإسبانيا غرباً، عابرين أراضي إسلامية وفارسية ومسيحية.

وأقام عمر ردحاً من الزمن في الإسكندرية حيث كان يقيم ٤٠ ألف يهودي. وقبل احتلاله المدينة، كان يصطحب معه قبيلة يهودية مؤلفة من ٤٠٠ مقاتل من بني روبي.

لقد ساهمنا يا عزيزي مناحيم مع المسلمين في فتوحاتهم. إنها السياسة يا رجل.

وعندما دخل الخليفة عمر بن الخطاب بلاد الساسانيين وبلاد فارس استقبلته مدينة ستيسنون التي كانت تضم ما يقارب مليوني إنسان، وأكثر من نصف رؤساء عائلاتها من اليهود، وسجل التاريخ أن تسعين ألفاً منهم استقبلوا عمر باحتفال، كأنهم هم المنتصرون.

ورفض الخليفة انتزاع أراضي اليهود، بناء على رغبة بعض أعوانه، وطلب من قائده سعد بن أبي وقاص الامتناع عن مصادرة أرزاقهم.

ها أنا الآن في أفغانستان، أعود إلى التاريخ، إلى زمن وصول الفتح الإسلامي إلى هيرات، حيث كنا تجاراً ومديري ضرائب للأسياد والمشايخ أو كنا مديري مناجم الرصاص. كنا منتشرين في ميرف وبلخ وغزني وكابول... وتعاونّا مع العرب، بعضنا اعتنق الإسلام،

وبعضنا ظلَّ على دينه ودين آبائه وأجداده.

هل تعرف ما حصل بعد ذلك؟ بعض اليهود بات مستشاراً للأمراء والولاة. كنا موظفين وإداريين نعمل تحت إمرتهم. وأكثر من ذلك، فقد عيَّن الخليفة عبد الملك بن مروان تاجراً يهودياً مسؤولاً مالياً في ديار الإسلام.

وكنا في تونس قبل مجيء الإسلام، وانتشرنا في قسنطينة وفاس ومراكش، وكالعادة كنا نتاجر ونتعاطى الزراعة وسواها من الحرف. ولما أبحر العرب باتجاه إسبانيا، استقبلهم اليهود أيضاً كمحررين، وبمساعدتهم هزمت الجيوش الإسلامية الملك روديريك في تموز/ يوليو سنة ٧١١م. وبدءاً من ذلك التاريخ، باتت العلاقات العربية ـ اليهودية أكثر كثافة ورحابة. تجادلوا بالفلسفة وتناقشوا بالعلوم، وبرعوا في اللاهوت، كانوا يتلاقحون فكرياً وترجموا إلى العربية والعبرية الآثار اليونانية.

«لم يعرف اليهود أجمل وأحلى من إقامتهم مع المسلمين في أوروبا في القرن الثامن». وفي زمن العباسيين، ساهم اليهود في بناء بغداد، فقد طلب الخليفة العباسي من عالم رياضي وفلكي يهودي يدعى «ماشا الله»، وعالم فلك زرادشتي أن يرسما مخططاً للمدينة. وهكذا قامت بغداد على نهر دجلة.

وفي بغداد، وبعد إبعاد الفرس من البطانة واستبعاد المسيحيين أيضاً عنها، استعانت الحكومة ببطانة من اليهود، وشغل عدد من الخبراء والمستشارين في شؤون المال والتجارة، حتى أن بعضهم كان يقرض الحكومة أموالاً مع الفوائد ومن ثم يتقاضى من الخليفة أمواله التي

يجمعها له من المؤمنين، بحكم وظيفته.

لكن هذه الأقلية المحظوظة من اليهود الأثرياء كانت تخفي أكثرية من اليهود البائسين والفقراء الذين كانوا يجدون أمثالهم من البؤساء، من الرعايا المسلمين والمسيحيين. أليست هذه سنّة الحياة؟ يلتقي الأغنياء من كل الديانات والمذاهب ويضطهد الفقراء ويشتركون في معاقرة الفقر؟

بلاط هارون الرشيد ضم عدداً كبيراً من اليهود ومن المستشارين، واختار واحداً منهم يدعى إسحق، رسولاً إلى شارلمان.

ومع أن الخليفة المتوكل كان محاطاً بعدد كبير من المستشارين اليهود، فإنه لم يتورع عن ممارسة الاضطهاد، ضدهم وضد المسيحيين. فأقفل الكنائس والمعابد اليهودية، ومنعهم من الصلاة بصوت مرتفع، وسحب من التجار اليهود حق استعمال الخيول لنقل البضائع.

وتجرأ المتوكل، بسبب فضيحة كبيرة حصلت في قصره، على ارتكاب عدد من الإجراءات التي ترضي عامة المسلمين. فقد طلب من اليهود أن يلبسوا ثياباً مخصصة لهم، لتمييزهم من المسلمين. فكان على اليهودي أن يرتدي في رجله اليسرى جورباً أسود وفي رجله اليمين جورباً أبيض. وأن يضع على معطفه رسماً لقرد. أما المسيحي فكان عليه أن يرتدي معطفاً رسمت عليه صورة خنزير. وهذا ما فعله آخرون فيما بعد في أوروبا.

عام ٩٨٠م، مرابيان يهوديان في بغداد، يوسف بن فيمياس وأهارون

بن عمران، عملا مستشارين لدى الوزير الخاقان. وفي العام ٨٩٢م تولى صهر بن فيمياس، نيتيرا، مسؤولية كاتم أسرار الخليفة المقتدر، وذلك بعد اكتشافه عملية سلب وهدر في جهاز الدولة. وعام ٩٧٥م، عُين ابن كيليس وزيراً لدى الخليفة العزيز، وأسس مع علماء مسلمين في القاهرة جامعة الأزهر. وبلغ تأثير اليهود في القاهرة درجة جعلت عدداً من المتنفذين السابقين، يتهمون الفاطميين بأنهم من أصول يهودية.

ماذا أقول لك عن أحوالنا في قرطبة. فالعالِم والطبيب حاسداي بن شبروط، كان رجل البلاط، ثم الوزير الأول، في عهد الخليفة عبد الرحمن. يستقبل السفراء، ويوجّه التجارة الدولية باتجاه الشرق. عام ٩٧٠م، يصير يعقوب بن يوسف مستشاراً للخليفة الحاكم، وصموئيل هاليفي يصير مقربا جدا من الخليفة المنصور، وصموئيل بن نجيدا، يصبح مسؤولاً عن الضرائب ثم وزيراً لدى الملك حبوس في غرناطة، ويتولى قيادة جيش المسلمين لمدة ١٨ عاماً، ويستمر في مركزه حتى موته في الحروب التي قادها ضد الأمراء المسيحيين. وقد ورثه ابنه عام ١٠٦٦. وإبان ثورة قام بها المسلمون على الخليفة انتقموا من اليهود.

هذا هو العصر الذهبي لليهود في العالم، قبل دخولهم الجحيم الأوروبي.

نعم، كانت عصوراً عربية مقبولة. فبينما كانت الصراعات تشتد بين الفرق الإسلامية، والشعوبيات المتعددة، وقوى النفوذ الخارجية، كان أجدادنا من اليهود يعيشون في رغد وحرية نسبية، ولا يتعرضون للاضطهاد بسبب انتمائهم الديني. ولعل التاريخ الإسلامي والعربي،

قبل عصور الانحطاط، يعتبر من أبرز عصور التسامح الديني. فـ«جادلهم بالتي هي أحسن»، سمحت لنا أن نصبح أسياد التجارة الدولية في ذلك العصر، نربط الشرق بالغرب، ونعبر المناطق، كنا رسل التجارة والمال والحضارة.

ذلك كان قدرنا الجميل... أما في أوروبا، فيا ويلاه، لقد ذقنا الأمرّين. عشنا أو بالكاد. كنا نرتاح من مجزرة لندخل أخرى. لن أروي لك عذابنا الأبدي على أيدي الأوروبيين.
هذه خلاصة فصل كتبه الفرنسي جاك أتالي في مؤلفه «اليهود والمال والعالم».

والآن... هل ستُكرر عليَّ ما فعلناه نحن؟ وهل ستروي لي قصتك مع جيرانك العرب الذين تبخروا؟

كان حاييم يسمعني بانتباه. ويواصل شريط ذكرياته: «لقد قررت أنه لا يمكنني مواصلة التزام الصمت، وأن من واجبي التمرد على ذلك... (سأكمل): في نهاية العام ١٩٤٧ اختفى جيراني من العرب. حدث ذلك في الشتاء. واختفاؤهم لم يحدث صدمة. إذ جرى كل شيء بهدوء ومن دون إثارة. كنوع من التبخر. ولست على ثقة إن كنت رأيتهم يحزمون أمتعتهم ويذهبون. ولكنني أتذكر جيداً دير ياسين. أذكر أننا جلسنا في الصف ورأينا الدخان يتصاعد من دير ياسين. دخلت الحيرة عندي: أين اختفوا؟ وهذا هو سبب هوسي بجمع الخرائط الانتدابية لتحديد مواقع القرى المهدومة والحياة المختفية. فقد كان إحساسي أن الأرض من دونهم هي أرض عاقر. أرض عاجزة. أرض أخفت شعباً بكامله».

لا. لم يتبخروا. تعبيرك طفولي، لقد نفذ فيهم قصاص رهيب.

بإمكاننا أن نستعير ما قاله بحرارة النائب المحافظ أنتوني مارلو، عندما شارك في مظاهرتي في «ترافلغار»: «إن هولوكوست ثانية هي بصددِ التنفيذ من قبل ضحايا الهولوكوست الأولى».

فظيع! أليس كذلك؟
لقد أخذت من بين الوثائق اليهودية والعربية، تلك التي اعتمدها دومينيك فيدال في كتابه «خطيئة إسرائيل الأصلية». ويبدو أن الفلسطينيين لم يتبخروا، بل نفذت بهم خطة «دالت» بأحكامها الدموية التدميرية القاسية.

واعتماداً على بني موريس، يقوم جوهر خطة «دالت» على تطهير أراضي الدولة اليهودية العتيدة من جميع القوى المعادية فعلاً أو افتراضاً. ولدى تنفيذ الخطة «ضرب بعرض الحائط البند الذي ينص على عدم المساس بالقرى التي لا تبدي مقاومة، وذلك عبر القرارات التي اتخذت بتدمير القرى في المناطق الاستراتيجية الواقعة على امتداد الطرق الرئيسية من دون الاهتمام بما إذا كانت قاومت اجتياحها على يد الهاغاناه أو لم تقاومه».

هكذا هجر الفلسطينيون أرضهم وبسرعة. تبخروا قتلاً وطرداً ومعاناة. وازدادت الهجرة بعد قراءة الأمثولة الدموية والوحشية التي قرئت في دير ياسين في ٩ نيسان/ أبريل ١٩٤٨. ففي الرواية الإسرائيلية الرسمية النص التالي:

«طلبت المالحة ودير ياسين عقد اتفاق سلام مع اليهود. توجه إليها أعيان القرية العربية وطلبوا عقد اتفاق عدم اعتداء. وتمّ عقد الاتفاق»...

ومع ذلك فقد هوجمت دير ياسين من قبل ٨٠ مسلحاً من رجال

الايتسل ـ أرغون و٤٠ من رجال ليحي ـ شتيرن وانقضّوا على القرية تتقدمهم مصفحة تحمل مكبر صوت. ودعا المكبّر النساء والأطفال والشيوخ إلى مغادرة بيوتهم والالتجاء إلى سفح الجبل. وبعد ذلك، نفذ اليهود مذبحة في القرية من دون تمييز بين الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، وحملوا قسماً من الأسرى الذين وقعوا في أيديهم على سيارات وطافوا بها في شوارع القدس في «موكب نصر» وسط هتافات الجماهير اليهودية.

ألم ترهم يا حاييم عندما كنت بعد فتى؟ هل تريد أن تعرف نهاية هؤلاء الفلسطينيين بعد استعراضهم في القدس؟ لقد أعيدوا إلى القرية وقتلوا... في ساعات، تمكنت العبقرية العسكرية من قتل وذبح ٢٤٥ فلسطينياً.

سيد حاييم، لما اعتذر بن غوريون للملك عبد الله عن المذبحة، قال مناحيم بيغن: «إنه كان من الأفضل لبن غوريون ألا يرتدي هذا الثوب من الرياء»، لأن خطة «دالت» كانت من صنعه.

وينقل دومينيك فيدال عن بني موريس عمليات الترانسفير القسرية: نفى مناحيم بيغن تحمل مسؤولية المذبحة لأن «الهاغاناه» هي التي انتزعت بلدة القسطل من قوات القائد الفلسطيني عبد القادر الحسيني: فقد قتل عناصر من الأرغون وليحي بكل دم بارد ومن بيت إلى بيت ٢٥٠ شخصاً من سكانها، مع أنها كانت تعيش بسلام مع البيشوف.

ودبَّ الرعب في الوسط الفلسطيني، كان لهذه المذابح الأثر الحاسم في إفراغ فلسطين من سكانها. يروي بيغن:

«هذه الهجرة المكثفة تحوّلت إلى عملية هروب جنونية لم يكن في الإمكان السيطرة عليها. ومن نحو ٨٠٠ ألف عربي كانوا يعيشون على الأراضي الإسرائيلية الحالية، لم يبق سوى ١٦٠ ألفاً».

وفي فصل الاستسلام أو الانتحار يسجل فيدال نقلاً عن بني موريس كيف سقطت حيفا، إذ قضت الأوامر التي صدرت إلى الكتيبة ٢٢ من لواء غولاني بـ «قتل كل عربي (بالغ) يصادف»، وبإضرام النار في «كل الأهداف الممكن إحراقها بواسطة القنابل الحارقة»، وعلى الرغم من الهدنة التي تمّ التوصل إليها فإن المدينة أقفرت من الفلسطينيين. فلم يبق من السكان العرب فيها قبل التقسيم سوى ٤ آلاف فلسطيني من مجموع ٧٠ ألفاً». هل تستطيع تمثيل مشهد طرد ٦٦ ألفاً من مدينة دفعة واحدة؟

بعد ذلك هوجمت يافا التي اعتبرت «سرطاناً» في قلب الدولة اليهودية العتيدة، وعندما انسحبت منها عناصر الميليشيات بعد أسبوع من القصف المكثف والمعارك الشرسة ، لم يكن فيها سوى ٤ إلى ٥ آلاف من سكانها العرب البالغين ٨٠ ألفاً.

وهكذا أيضاً تمّ تنظيف صفد من السكان، وطرد الفلسطينيين من الجليل. وفي أيار/ مايو استولت الهاغاناه على عكا ومنطقتها التي أجبرت عبر مكبرات الصوت على الاختيار بين الاستسلام أو الانتحار. «والنتيجة أن ثلثي فلسطيني المدينة الرائعة البالغ عددهم ما بين ١٢ و١٥ ألف نسمة مع ٢٥ ألف من مهجّري حيفا «اختاروا» المنفى غصباً عنهم وبالقوة.

لم يتبخروا يا حاييم، طردوا. قتلوا. ماتوا. تشردوا. وبني موريس

يحسبهم بدقة. ويتحدث عن الأسباب والأرقام. لم يهربوا بملء إرادتهم. لم يطيعوا أوامر رؤسائهم التي روّجنا لها، عندما أشعنا في وسائل الإعلام أنهم تخلوا عن أراضيهم وبيوتهم، استجابة لنداء الزعماء العرب، الذي وعدهم بالعودة بعد القضاء علينا. فـ «٥٥٪ على الأقل من مجموع حالات الهجرة كانت بفعل عمليات (الإسرائيليين) و١٥٪ نتيجة عمليات منظمتي الأرغون وليحي، و٢٪ تنسب إلى أوامر الطرد المباشر الصادرة من الجنود اليهود و١٪ إلى الحرب النفسية. وتصل النسبة إلى ٧٣٪ من أعمال الترحيل التي سببها الإسرائيليون مباشرة. وتعزو الوثائق هجرة ٢٢٪ من الحالات إلى الرعب وانعدام الثقة اللذين انتشرا في أوساط السكان الفلسطينيين. أما النداءات العربية الداعية إلى الفرار، فحيزها لا يتعدى ٥٪ من الحالات.

حتى الذين كانوا يرفعون الأعلام البيضاء كانوا يطردون. هستيريا الطرد مست كل فلسطين تقريباً. ويروى أن بن غوريون زار مدينة برسم الطرد، وقال: «لقد جئنا لطرد العرب. ثق بي يا إيغال». فأجابه آلون بأن الأمر قد تمّ: «لقد رحلوا». لا بد أنك قرأت كتاب إيلان بابي. هل تتذكر حرب المواسم؟ المعارك الهستيرية التي خيضت لطرد العرب «خصوصاً»، من الأراضي الزراعية الخصبة؟ هل هذه حرب أم اغتصاب؟

لقد نظفنا إسرائيل من الفلسطينيين. وها هم الآن بيننا وقد تكاثروا.

من استمر في ظل دولة إسرائيل، كان بحدود ١٦٠ ألفاً فقط. بعد نصف قرن يبلغ تعدادهم مليوناً ومائتي ألف. فما الحل؟ إنهم فلسطينيون عندنا. وماذا نفعل بالضفة وقطاع غزة؟ مستوطناتنا تحتل

جزءاً منها ويتداخل الفلسطينيون بنا، برغم الجدار الفاصل، والطرق الالتفافية، والحواجز المسلحة، والعقبات والغيتوات، وعمليات القصف والتدمير.

هذا كان من الماضي. فلنفكر بالمستقبل. لقد تبنيتَ في الثمانينيات فكرة الدولتين... وبعد صعوبة كما تقول. فماذا لديك غير هذا الحل الصعب، وربما المستحيل:
«عندما جرى التوقيع على اتفاقيات أوسلو، آمنت بأن هذا عمل كبير وأن فرصة نشأت لإغلاق هذا الصراع.. لأن (الاتفاقيات) تحوي اعترافاً متبادلاً... لم أظن أن واجبي الذهاب إلى رام الله لأعرض على الفلسطينيين قائمة المظالم التي اقترفتها الصهيونية بحقهم والقول لهم بوجوب عدم نسيان ما فعله آباؤنا لآبائهم... آمنت بدينامية أوسلو».

ولكن أوسلو يا سيد حاييم مات. قتلناه معاً. نحن وهم. ربما هم أكثر منا، وربما نحن أكثر منهم. المهم أننا قتلناه. مع أنه ولد على يد قابلة دولية ضمت خيرة الدول في العالم...

قتلناه وانتهى الأمر. نحن الآن بصدد دفن خارطة الطريق. كل الطرقات مقفلة إلى روما.

معك حق يا بني: «في السنوات الأخيرة فهمت أنني مخطىء. ومثل الفلسطينيين وقعت أنا في الفخ. تعاملت بجدية مع الحديث الإسرائيلي ولم أنتبه للأفعال الإسرائيلية. وعندما فهمت أن المستوطنات تضاعف عددها، عرفت أن إسرائيل أضاعت الفرصة الوحيدة التي توفرت لها. حينئذٍ توصلت إلى استنتاج أن إسرائيل

غير قادرة على التحرر من طبيعتها التوسعية. إنها مربوطة القدمين واليدين بإيديولوجيا موجّهة لها هي إيديولوجيا الاغتصاب».

هذا يعني سيد حاييم أننا الآن بصدد استكمال حرب العام ١٩٤٨: أي تدمير فلسطين بكاملها وإلزام الفلسطينيين بفقدان الأمل نهائياً، ووضعهم أمام خيارين: إما أن يقبلوا البقاء في ظل نظام التمييز العنصري، أو أن يضطروا إلى اللجوء مرة أخرى إلى أشقائهم العرب، عبر عملية ترانسفير سرية، أو جعل الضفة والقطاع جحيماً لا تطاق. هل هذا حلّ معقول؟ لا أقول هذا حل أخلاقي أبداً. إذا كان من المستحيل أن تتخلى عن صهيونية توسعية وعن إيديولوجيا اغتصابية، وإذا كان تغييرنا غير ممكن، فلنغير الفلسطيني إذا استطعنا خلق واقع جديد نلزمهم به.

لا يبدو لك أن هذا الحل ممكن أيضاً، لأنك تعود إلى تبني الخطيئة الأصلية للصهيونية، حيث خططت لوجودنا هنا، بمعزل عمن كان يقيم فيها من قبل، وإن هذه الخطيئة لا يمكن غفرانها إلّا باستكمالها في فصل آخر من فصول التاريخ. فبدل أن نصل إلى نهاية التاريخ الإسرائيلي نسجل نهاية تاريخ الأخطاء، بخطيئة فاضلة: إسرائيل نقية، عوضاً عن ادعائنا بنظافة سلاحنا فلنكمل تطهير الأرض.

لا؟ لم تقتنع؟ لم تفكر بالموضوع. ماذا تريد أن تقول أيضاً:
«في كتاب أليعازر بالي عن بداية النزاع ما يلي: في الثالث من تشرين الثاني ١٨٧٨ فتح يهودا راف أول ثلم في أرض بتيح تكفا. كان أول من يمسك بمحراث يهودي في أرض الأنبياء بعد سنوات المنفى الطويلة... وكان العرب شركاء أيضاً ليهودا راف في اليوم

العظيم لبداية الحرث. فهو وحده مع محراث مربوط إلى بهيمة، لم يكن قادراً على حراثة مئات الدونمات، إذ خرج للفلاحة معه اثنا عشر فلاحاً عربياً. إذاً، ماذا يعني ذلك؟ يعني أنه حضر لمساعدته اثنا عشر فلاحاً. وعندما أقرأ ذلك أقول: إنني أعرف راف ومن هم نسله وأعرف إلى أين وصل مشروعه. لكنني لا أعرف شيئاً عن الفلاحين الاثني عشر. لقد ظهروا في التاريخ كمجهولين، واختفوا داخله كمجهولين تقريباً، من دون أن يتركوا أثراً، وتمَّ إبعادهم من التاريخ بواسطة الصهيونية. ماذا كانوا؟ أين ذهبوا؟ أين هم اليوم؟ لقد نذرت أن أعثر على المجهولين الاثني عشر هؤلاء. وهؤلاء الاثنا عشر محظوراً هم التاريخ. لأن كل خطيئتهم أنهم سكنوا في البلاد قبله بأجيال. فلماذا يجب معاقبتهم على ذلك؟ لماذا تبذل الجهود لتغييبهم وإخفائهم؟».

سيد حاييم، هذه النوستالجيا التي تبحث عن اثني عشر فلسطينياً، تحرض الفلسطيني على البحث عن آلاف وعشرات الآلاف ومئات الآلاف من الفلسطينيين الذين خرجوا من تاريخنا، ودخلوا تاريخهم. جماعات كثيفة الحضور. فمن تبنّى قضيتهم بعد ذلك، طوال قرن من الدماء؟ خرجوا من عندنا، ومن تاريخنا، وتبخروا كما تقول، ولكنهم أقاموا في الذاكرة الفلسطينية.

هل تعرف أن أبناءهم يدرسون أسماء قرى لم تعد موجودة. أي خرجت من التاريخ أيضاً. يتهجون حروف ٢٨٦ قرية دمَّرناها وأبدناها وأزلناها من الوجود عام ١٩٤٨، إضافة إلى عشرات القرى التي تهدمت وظلت أطلالاً بلا سكانها وبلا أبنائها، إلى أن صدرت قرارات استئصالها، وإلحاقها بذاكرة النسيان.

سيد حاييم، وجعنا وأوجاعهم مشتركة. إننا نحب امرأة واحدة

بشراسة وحسد وحقد وكراهية واغتيال واغتصاب. ألا ترى أن كل واحد منا مستعد لاستعمال كل الأساليب الفتاكة، للاحتفاظ بذاكرتها المدمنة في حضورها؟

ولكن...! «يستحيل العيش (يا بني) مع ظلم بهذا الحجم. يستحيل العيش مع معايير متناقضة... فعندما أرى الآن، ليس المستوطنات والاحتلال والقمع وحسب، وإنما الجدار الجنوني الذي يحاول الإسرائيليون الاختباء خلفه، أصل إلى الاستنتاج، بأن هناك شيئاً عميقاً جداً في تعاملنا مع أبناء الأرض يخرجنا عن طورنا. هناك شيء فطري لا يتيح لنا الإقرار بالحقيقة الفلسطينية (...) وهذا الأمر يتعلق بحقيقة، أنه قبل إعادة الأرض والأموال والبيوت، فإن واجب الكفارة الأولى على المستوطن تجاه أبناء الأرض هو أن يعيد إليهم أولاً كرامتهم وذكراهم وحقهم، وهذا ما لا نستطيع فعله، وماضينا لا يتيح لنا فعل هذا الشيء. ولذلك، فإن ماضينا يجبرنا على الإيمان بمشروع الدولة القومية اليهودية، وهو مشروع عديم الأمل. وهذا الماضي يمنعنا من رؤية أن كل قصة السيادة اليهودية على أرض إسرائيل قد انتهت».

سأحاول يا سيد حاييم أن أفهم أكثر. هذا يعني أنه: «من أجل أن تكون هناك سيادة يهودية، ينبغي توفير بنية أحادية القوة، منعزلة ومحصنة، ولكن هذه البنية متعارضة مع حركة الزمان. ولذلك، حتى وإن أحاطت إسرائيل نفسها بجدار وسور، فإن هذا لا يجدي نفعاً، لأن مخاوفنا صحيحة».

باختصار، أنت تقول: «إسرائيل كدولة يهودية لن تستطيع التواجد هنا طويلاً».

أنت أقسى من رئيس الكنيست السابق أبراهام بورغ، فهو يعتبر أن دولة اليهود ستبقى، ولكنها ستكون بشعة جداً. أما أنت، فتؤلف مرثاة لها، وتقيم عليها العزاء الجميل، وترى أن الجدار الذي يحاول حماية دولة اليهود هو سجن للإسرائيليين، ولهذا سماه المثقفون الأوروبيون، في كتاباتهم، جدار العار، لأنه ذكّرهم بجدار ـ برلين ـ الذي سجن المدينة وقسمها نصفين. هذا الجدار سيحول إسرائيل إلى غيتو. «فالجدار هو الحل البائس الأخير لمن لا يستطيعون الصمود أمام القضية الفلسطينية، خارج حياتهم وخارج وعيهم».

إذا كان الأمر كذلك، فعلينا أن نختار بين الواجب الأخلاقي وبين الواجب الوجودي. بين ما يخص سواي وما يخصني. الغلط مشترك بيننا.

نحن السبب أم هم السبب، سيّان. أتذكر خيار ألبير كامو: بين أمي والجزائر، أختار أمي، وبين فلسطين وإسرائيل أختار إسرائيل.
وهذا يدعنا نتعسكر من جديد، خاصة إذا كانت المسألة، هي مسألة حياة أو موت، مسألة وجود لا مسألة حدود. وقد لا يمنع ذلك من أن نبقى ثكنة مستيقظة وقوية لمنع هزيمتنا. لعلنا بذلك نخضع للقانون التاريخي العام. الإنسان كي يبقى على قيد الحياة عليه أن يقاتل.
ففي ندوة أقامها عدد من كبار المفكرين في العالم، بعنوان «فلنتخيَّل السلام» نص عن آليات الصراع البشري «حقيقة العالم الذي نقيم عليه، مع جماهير أخرى من الكائنات الحية والتي تشبهنا، لا يعدو كوننا أن نكون معهم بالإيجار، ولسنا أبداً مالكين. لا سلام على الأرض. هذا عالم قاسٍ وغير عادل، حيث يجب أن نقتل كي ننجو من الزوال، ونبقى على قيد الحياة. يجب أن نكون دائماً مستعدين

ومستنفرين كي لا نؤكل. كل ما نستطيع بلوغه، هو إقامة توازن مؤقت، أي هزيمة... ولكن، أبداً لن نحصل على سلام دائم وعادل وشامل».

ويؤكد أن اليوتوبيات كثيرة، وبعضها يتحقق. فقد تحققت يوتوبيا الشفاء بواسطة الأدوية ويوتوبيا السلطة والتكنولوجيا والسرعة. وبين هذه اليوتوبيات واحدة تبدو دائماً غائبة، هي يوتوبيا السلام.

هل نستطيع أن نتكىء على هذه النظرية كي نستمر في إسرائيل، وتبقى إسرائيل دولة تدافع عن نفسها دائماً وأبداً، حتى ولو كانت النتيجة، أن ندفع ثمناً من أمننا وإنسانيتنا وحياتنا العادية؟ أي ، إذا كانت الحروب لعنة البشرية، فلنختر أن تكون لنا لعنتنا بوعي منا... فلنقاتل كسيزيف حتى النهاية.

يعترض بيرون بنفستي على هذه النظرية. فأوروبا أنشأت سلامها ولم تعد إلى الحرب. فالحرب كانت دائماً مرتبطة بتملك الأراضي والمستعمرات والأسواق. انتحار يوغوسلافيا انتهى بتدمير أرض وقتل وتهجير بشر. الدول الديموقراطية لا تتحارب. تحارب الآخرين فوق أراضيها. وعلينا أن نتنبه إلى كون السلام هو مرحلة ما بعد الحرب فقط. ولأن إسرائيل دولة ستحارب باستمرار لضمان وجودها، فإن السلام المؤقت سيكون ممتنعاً عليها. وقّعنا معاهدتي سلام واتفاق أسلو، ولم ننعم إلّا بذخيرة تتدفق علينا، وأسلحة نستودعها سواعدنا، وطائرات نمرنها بأجساد عارية، ومنازل فقيرة، وحقول خصبة. صحيح أن ثقافة السلام ليست سائدة ونادرة جداً، والدليل، أن الدول جميعها، باستثناء دولة الفاتيكان، التي لا دبابات لديها،

أنشأت وزارات للدفاع، ولم تنشىء وزارة واحدة للسلام. ونحن من أكثر الدول اعتماداً على القوة.

يقول حاييم:

«إن اليهود جاؤوا إلى هنا، ووجدوا أرضاً غير فارغة، يقيم فيها شعب آخر، الأمر الذي أوقع اليهود في نمط استخدام القوة من غير حساب، وبدل أن يدفع بهم الصراع إلى موقف أخلاقي ونحو الحكمة، خلق لديهم إدماناً على استعمال القوة... ولكن هذه القوة استنفدت ذاتها ووصلت إلى حدود قدرتها، ولذلك إذا بقيت إسرائيل دولة كولونيالية بطابعها، فإنها لن تصمد. ففي النهاية سيغدو شعب هذه الأرض أقوى منها».

هذا صحيح. إننا نستعمل القوة باستمرار. كم مرة دخلنا جنين؟ كم مرة اقتحمنا رفح؟ كم مرة حاصرنا ياسر عرفات في رام الله؟ كم عدد القذائف التي أطلقتها طائرات الأباتشي على السيارات المدنية؟ كم عدد الحواجز العسكرية؟ كم عدد المعتقلين الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية؟ كم فلسطيني اغتيل؟ كم قائد فلسطيني قتل؟ إن لنا تاريخاً حافلاً من «العين بالعين» أو بالأحرى كل الحواس مقابل العين.. إنما، ما الحل؟ إذا كانت القوة لن تجدي نفعاً، والسياسة لن تبلغ غاية، فلا نحن سنتغير، ولا هم سيتخلون عن أرضهم، فما العمل؟

«أؤمن بأن من يرغب في ضمان وجود جمهور يهودي في هذه الأرض، عليه أن يتحرر من النمط الصهيوني.. الدولة القومية اليهودية لن تبقى هنا» وهذا يقودنا، كما أستنتج، إلى أن اليهود سيصبحون مواطنين عرباً، في بلد عربي، يدعى فلسطين. هل هذا

ممكن؟ هل هذا معقول؟ أم أن هذا تخريف سياسي ورؤية كابوسية تعني فناءنا سياسياً.

بل، يقول حاييم، ينبغي التفكير بدولة ثنائية القومية. ينبغي إقامة إسرائيل جديدة لقوميتين. يجب التنازل عن وهم السيادة الذي سفك الكثير من الدماء والذي أحدث الكثير من الكوارث والذي أثار صراعاً طوال مائة عام... من الواضح لي اليوم، أنه ليس هناك أي بديل لإنهاء الصراع. ومن الواضح أيضاً، أن من لديه عقل، يجب أن يفهم أن الشراكة ثنائية القومية هي التي سوف تنقذنا. وأنها وحدها القادرة على تحويلنا من غرباء في أرضنا إلى أبناء المكان مع الأرض. «... من الواضح، أن هذا مستحيل دون الإقرار المبدئي بحق العودة، لأنه فرض على شعب أن يتشرد من أرضه، ليس لأنه لا مكان يقيم عليه، إنما لأن آخرين أخذوا مكانه، ولم يمسح الظلم هذا طوال خمسة وخمسين عاماً، ولن يمسح بعد خمسة وخمسين عاماً».

سيد حاييم، باستطاعتي أن أقول، أن هذا الحل نموجي، وهو متفق ومنسجم مع وجهة العصر والتاريخ، إلّا أن ذلك لا يبدو لي ممكناً اليوم. نحن ما زلنا نعزف السياسة على الآلات الحربية. معظم المجتمع الإسرائيلي يتجه إلى اليمين، ويؤيد استعمال العنف، ويظن أن العنف سيحل مشكلته. وهذا هراء يروي غليل اليهودي الذي يكفر بالفلسطيني. ليس صحيحاً أن ما بيننا جدار كبير، بل هاوية عميقة، قد لا يردمها العالم إذا اتفق يوماً على ردمها. هاوية حفرناها معاً. وكل الجسور، لا تصل من حافة إلى أخرى. نحن في كوكب، وهمْ في كوكب آخر.

دولة ثنائية القومية؟ جميل هذا في الكتب. أما في الواقع فإننا على أعتاب الدولة العنصرية. دولة اليهودي، كما شاءها في كتابه تيودور هرتزل، ودولة اليهود، حسمت في المؤتمر الصهيوني في العام ١٩٠٣، إنها ليست أوغندا، الأرجنتين، بل فلسطين... مائة عام من إنجازات الأمر الواقع المصحوبة برفض دائم وانتفاضات لم تهدأ.

إذا كان آموس أوز عرض أن نقتسم الأرض وأن نعيش معاً جنباً إلى جنب في دولتين... فأنت تقترح الزواج المستحيل، والعيش معاً، وليس جنباً إلى جنب بل، الإقامة والمعاشرة والإنجاب المشترك. والعيش معاً، بعد سلسلة الإبادات والمجازر والعمليات الانتحارية والأعمال الإرهابية، هو أكثر من مستحيل. لا، لسنا جنوب أفريقيا. لا نشبه أحداً. نحن لسنا مستعمرين كولونياليين، كما يصفنا العرب، بل نحن حلم وجودي تحقق في لحظة مأساوية من التاريخ.

عذراً يا سيد حاييم هنغبي. فصديقك دافيد بنفستي الذي يؤيد هذا الزواج الذي لا طلاق بعده، يرى استحالة تحقيق هذا الحلم الذي يحمل في رغباته شهوة سلام لن تصل إلى ذروتها أبداً.
ما رأيك يا سيد بنفستي؟

7

سأخون الصهيونية

من يتمتم من يتمتم
إن الكوابيس تصنع جداراً
يحجب بين الموتى وبينه
فكل الموتى هم وخز ضمير
آراغون ـ مجنون إلسا

«لن أسمح لأحد أن يقول لي لست من هنا، فأنا حجر من حجارة هذه الأرض، وأنا بالضبط ما أراده أبي لي أن أكون من السكان الأصليين. لقد أراد والدي أن أنمو كشجرة في هذه الأرض، وأن أكون جزءاً طبيعياً من المشهد، ومن الجائز أن ذلك نجح حقاً، فأنا ابن هذه الأرض. لكن العرب كانوا دوماً في هذه الأرض، وهذه أرض العرب. هم مشهدها. هم السكان الأصليون، ولا أرى نفسي أعيش هنا من دونهم. وفي نظري، فإن أرض إسرائيل من دون العرب أرض عاقر».

قلت لميرون بنفستي: لعلك صرت من المنشقين الجدد. لم تعد ترى في الصهيونية آفاقها البعيدة. عذراً إن قلت لك، إنك تبدو أسير اللحظة مثلي. فأنا خائف ومرتبك وأبحث عن معنى وجودي، وأود لو أهرب من يومي. أما أنت، فإن أسرك هذا وضعك أمام مراجعة جذرية لحقيقتنا وحقيقة وجودنا وحقيقة مستقبلنا... إذا كان لنا من مستقبل هنا. إنني أفهم انتماءك، وأنا مثلك متجذر في هذه الأرض، ولا أريد أن ينزع عني انتمائي. اعتدت على ثقافة الـ«هنا». لا أشعر بالغربة أبداً. الانتفاضة الثانية، التي بلغت من العمر أربع سنوات إلّا قليلاً، وما أقحمتْه من موت يومي في تفاصيل حياتنا، مزقتني من الداخل، وبعثرت اتجاهاتي حتى بتّ أشك أحياناً أنني من «هنا»، وسأبقى «هنا».

لست وحدي يا سيد بنفستي. أعرف أناساً دخلوا في صمتهم، بعدما ملأوا الدنيا صراخاً وضجيجاً وفرحاً. ألم تسأل لماذا سكتت حنجرة يافا باركوني، تلك المغنية الرائعة التي أصابها مسّ الانتصار في حرب الأيام الستة، فاتحفتنا بنشوة الغناء، لقد أصيبت حنجرتها بخناجر الانتفاضة . إنها حزينة مثلي وأكثر. الحياة باتت خافتة. تقول الكاتبة إيغال سارما، أن هذا البلد، أي إسرائيل، كان صغيراً دائماً. اليوم بات صغيراً وضيقاً. إننا نختنق. نريد قليلاً من الهواء. نريد أجوبة صائبة. هل سيكون لمستقبلنا تاريخ، أم سيكون نسخة عن حاضرنا الذي لا يطاق؟ هل سنكون صهاينة حقيقيين أم ستخوننا الصهيونية، وترمينا في الفراغ المفزع والوجود الغائب، رويداً رويداً.

قال بنفنستي: «يجب عرض الأسئلة الصائبة، حتى ولو أثارت الإحساس بأنك تخون الصهيونية. وحتى إن أثارت الإحساس بأنك

تتخلى عن حلم إقامة دولة قومية يهودية في أرض إسرائيل».

قلت: لماذا ليس دولتين. لماذا لا نتفق مع آموس أوز؟ لماذا تريد أن نسكن معاً في فراش واحد، مع امرأة واحدة؟ كيف سنحبها معاً؟ ألن يفوز بها أحدنا، أنا أو الفلسطيني؟ أخشى أن تكون الإجابة من رحم المأزق اليومي الذي نعيشه، وليس نتيجة تأمل عميق ورؤية شفافة لإمكانية تحقيق معجزة عادية، أن نعيش مع الفلسطيني، بلا حروب، إن حياتنا الروتينية المزمنة أقفلت وجهها. اليومي بات باهتاً مثل قباب عتيقة منسولة مراراً ومنشورة أمام شمس حارقة. الآمال ترمدت والأفراح مختصرة. ألا ترى كيف أننا مراقبون؟ الشرطي يفتشنا قبل دخول المطعم. الكاشف الآلي يبحث فينا عن تفاصيل المعدن على أجسادنا. لقد انتهى زمن تعدد الآراء. إننا صوت واحد تقريباً.

اليسار ينام على وسادة اليمين، واليمين يختبىء في ثياب اليسار. والتطرف الديني يملي على حياتنا بقوانينه المختلفة ويدفعنا إلى ممارسة العنف بكل طاقته. وهو عنف قد ينتقل إلينا بالعدوى، فندخل الحرام اليهودي، بأن يقتتل الأخوة المنتصرون، ونفتح شهية الحرب الأهلية اليهودية ـ الإسرائيلية.

إننا نعيش لحظة لا سامية هائلة. إننا مكروهون في العالم. القاهرة وعمان وكازابلانكا، لم تعد وجهات سياحية لنا. أليس كذلك؟ هل تابعت ما نشره سارما في «يديعوت أحرونوت»: بلادنا كانت تتسع دائماً. تخترق حدودها المؤقتة وتنطلق بعيداً. حدودها تصل إلى مرمى سلاحها. لقد محونا مراراً حدوداً كثيرة، صادرنا أراضي كثيرة، معشبة وصخرية ومائية، بحجة الأمن. كنا نتوسع في الأرض

والبر والجو وما تحت الأرض. جيشنا بات الأقوى، ويحكمنا في الداخل. الكل يتخرج من الثكنة ويأتي إلى الوزارة وإلى رئاسة مجلس الوزراء. حكّامنا يتخرجون من البنادق يكتبون بالذخيرة حياتنا. وبالأوامر التي يدبجونها، نسير وفق متطلبات الأمن والعناية الفائقة كي لا تتصدّع جبهتنا الداخلية.

فهل جاءت نبوءتك الجديدة من وحي المأزق فقط، أم من إبداع وخلق لحل ممكن؟ متى تغيّرت وصرتَ من المبشرين الجدد، بالحلول المستحيلة؟

«تغيرتُ بعد كامب ديفيد... عندما عدنا ننظر إلى الفلسطينيين كجماعة إرهابية وعندما عادوا لاعتبارنا غرباء. حينها، أمعنت النظر في هذا الشرخ الفظيع. فجأة فهمت استحالة تفسير الاستيطان والسيطرة على الأرض الذي انتهجناه بمصطلحات الصراع القومي (...) الجديد هو أنني توصلت إلى استنتاج بأن تحليلي للصراع غير صحيح. ولراحتي افترضت فرضية اليسار الصهيوني، بأن هناك صراعاً بين حركتين قوميتين تتنازعان أرضاً واحدة. ولذلك افترضت أن الحل المنطقي المطلوب هو: دولتان لشعبين. ولكنني في العامين الأخيرين توصلت إلى أنني أخطأت. توصلت إلى خلاصة: يدور صراع بين مجتمع مهاجرين بيض ومجتمع سكان أصليين. إذ إن القصة الأساسية هنا، ليست قصة حركتين قوميتين تقفان في مواجهة بعضهما. وإنما قصة أصليين ومستوطنين. قصة سكان أصليين يشعرون بأن أناساً تسللوا من وراء البحر إلى محيطهم الطبيعي وسلبوهم إياه».

إذا كان هذا هو إحساسهم حقيقة فإنهم لن يتنازلوا عن حقهم في

أرضهم. وهذا يعني استحالة نسيان حق العودة القاتل لمستقبلنا ولشعبنا ولمشروعنا.

«لن نفلح أبداً في دفعهم إلى التنازل عن حق العودة. ولن ننجح في إرغامهم على التنازل عن بيت إيل، ولن نتمكن أبداً من دفع عرب إسرائيل إلى التنازل عن مطالبتهم بحقوقهم الجماعية. فالحل المنطقي ظاهرياً المتمثل بدولتين لشعبين، لم يعد قابلاً للنجاح... ونموذج دولتين قوميتين غير قابل للتطبيق... وحتى لو أقيمت هنا كل أسوار العالم فلن يتم التغلب أبداً على حقيقة أن الحوض الجوفي واحد، والهواء واحد، وأن جميع الوديان تذهب إلى البحر ذاته. لا يمكن التغلب على حقيقة أن هذه الأرض لا تحتمل حدوداً في داخلها».

فالحل انطلاقاً من ذلك، أن يحصل زواج بالإكراه بين الشعبين، خاصة وأن إسرائيل لم تعد مؤهلة لفرض توسعها على فلسطينيي الضفة والقطاع، البالغ تعدادهم ما يقارب الثلاثة ملايين ونصف المليون. ولا تستطيع أن تفرض سلطتها إلى الأبد على مليون ومائتي ألف فلسطيني من مواطني إسرائيل.

هذا يفترض أيضاً إقامة نظام سياسي على فلسفة جديدة كلياً: المساواة تامة بالحقوق والواجبات على المستوى الشخصي والمستوى الجماعي، في جميع أنحاء البلاد.

والحل؟

الحل: «هيكل فيدرالي واحد يشمل كل أرض إسرائيل الغربية، وتحت هذا الهيكل الواحد تقام كانتونات عرقية: للمستوطنين كانتونهم، وللفلسطينيين كانتونهم، ويكون في إدارة الدولة الفيدرالية

نوع من التوازن بين المجموعتين... ولا يزعجني أبداً أن يكون هذا التوازن قائماً على المساواة: «واحد مقابل واحد»... فبعد سنوات قليلة، سيصبح عدد الفلسطينيين في إسرائيل ٢٥٪. كما أن محاولة جلب المزيد من المهاجرين من جميع أنحاء العالم هي محاولة فاشلة».

سيد بنفستي، ألا ترى أن هناك تناقضاً بين أسباب نشوء هذا الوطن على مبادىء الصهيونية، وبين بقائه من دون صهيونية؟ ألا ترى أنه سيصبح وطناً متجولاً بيننا كيهود وبين العرب الفلسطينيين؟ ألا ترى أن الكانتونات، هي معسكرات مؤقتة، والتمازج سيكون مستحيلاً، لأن وجودنا المشترك والخاطىء في بقعة واحدة، سيكون مثقلاً بذاكرتين مضادتين؟ لا يمكن تزويج الشعوب من دون روابط. هذه أوروبا، تتقدم بهدوء وتؤدة باتجاه وحدة غير كاملة لم تسقط السيادات القومية، إنما تمَّ التنازل عن قسم منها لصالح مصلحة أوروبية عليا. كما يتم تنازل الدول المنضمة إلى الأمم المتحدة، عن بعض سيادتها، لسيادة القانون الدولي. ألا تظن إذا اجتمعنا معاً في ظل دولة واحدة على سبيل الفرضية أولاً، أننا سنكون ضدين. والضدان لا يصنعان وطناً. تماماً كما قيل، نفيان لا يصنعان أمة؟ ثم... من يضمن لنا هذه المساواة. نحن الآن نعامل الفلسطيني أنه كمواطن من الدرجة الثانية، فيما نضعه دائماً في دائرة الاتهام، ونعتبر أنه طابور خامس. بينما يعتبرنا مواطني درجة أولى بل وممتازة. ما يحق لي لا يحق له؟ لست أظن أن هذا الحل ممكن. فلا إسرائيل تظل إسرائيلية، ولا الفلسطينيون سيرضون بالمناصفة العددية، وأظن أيضاً أن إسرائيل من دون الصهيونية تزول.

قال بنفستي: «حان الوقت للإقرار بأن الثورة الصهيونية انتهت.

ومن الجائز الإعلان بشكل رسمي عن انتهاء الثورة الصهيونية، وتحديد موعد لإلغاء قانون العودة، والشروع بالتفكير بطريقة مختلفة. والحديث بشكل مختلف وعدم التمسك بالإيمان البائس هذا، بالدولة الفلسطينية أو الإيمان المثير للسخرية بالجدار الفاصل (...) الفكرة الصهيونية مشوّهة أصلاً، وهي لم تأخذ بالحسبان حقيقة وجود مجموعة قومية أخرى. ولذلك في اللحظة التي قررت فيها الصهيونية أنها لن تبيد العرب، تحول حلمها إلى أمر غير قابل للتحقيق. لأن هذه الأرض لا تحتمل سيادتين، وهي أبداً لن تحتمل سيادتين. ولذلك، فإن الاحتمالات بسيطة جداً: إما أن تختفي قومية أو تختفي الأخرى، أو تستبعد قومية القومية الأخرى وتجلب لنفسها العداء الأبدي، أو يتنازل الطرفان عن المطالبة الكاملة بالسيادة. وهذا ما يطلبه شارون من الفلسطينيين على حد سواء... إن إسرائيل ضحية انتصاراتها وضحية التاريخ الفظيع لفرص ضائعة».

سيد بنفنستي، إنك تحاول إلغاء التاريخ. فهذه الفكرة، ثنائية القومية، مشوهة أصلاً، كالصهيونية. فهي تفترض وجود قوميتين نشأتا ونهضتا معاً، في فترة زمنية متقاربة، على أرض متنازع عليها. تماماً كما حصل بين الصرب والبوسنيين، وبين الصرب والألبان، وبين قوميات متعددة في بقعة متنازع عليها، وعلى الرغم من تواجد هذه الجماعات معاً، عبر التاريخ، فلم تستطع الاندماج، أو إنشاء دولة واحدة وكيان واحد. فما أن أزفت ساعة زوال يوغوسلافيا، حتى استعادت كل قومية عصبيتها التاريخية التي يعود بعضها إلى مئات السنين واستنفرت قوتها وقامت بحروب وإبادات وقتل جماعي. ما رأيك بالكشميريين؟ بانقسام الهند إلى هند وباكستان. ثم انقسام باكستان إلى باكستان وبنغلادش؟ إن ما خلقه التاريخ ورسخه في شخصية الجماعات وفي إعطائها هوية

لوجودها، لا يمكن أن يحل بالتراضي. أليس كذلك؟

ثم، هذا هو لبنان. طوائف تعايشت معاً مئات السنين، ولم تجد وسيلة قتالية لم تستعملها، وهو الآن يرتجف على حافة الطوائف، وهذا هو العراق الذاهب إلى فيدرالية أو اتحادية، علماً أن الأكراد على المذهب السنّي، ويطالبون بحكم ذاتي داخل الحكم المركزي. أما أكراد تركيا، فحدث ولا حرج.

لا، سيد بنفنستي. الشعوب لا تلغى بقرار، ولا تزوج بقرار. قد تلغى بحرب إبادة، وهو ما لم ننجح في تحقيقه. فلو طردنا العرب، أو أبدناهم، أو حلّينا مشكلة لجوئهم، لكنا اليوم في حال أفضل. إننا أخطأنا كما يقول بني موريس، لأننا لم نرتكب مجازر أكثر ولأننا لم نطرد كل الفلسطينيين في العام ١٩٤٨، ولم نفعل ذلك في العام ١٩٦٧، ربما لعجزنا أو لعدم توفر ظروف إقليمية ودولية ملائمة... ربما... ولأن ذلك لم يحصل فإن تبعاته وقعت علينا وقوع القنابل المتفجرة، والحروب الدائمة، والعمليات الانتحارية.

تبدو لك فكرتك أنها إنسانية أكثر مما هي واقعية، خاصة وأنك تقرن اقتراحك بذاكرتك: «عام ١٩٥٥، عندما كنتُ طالباً، وقمت باستطلاع لمصلحة المعهد الجيولوجي، وفحصنا الآبار العربية المهجورة بعد المطر، ووصلت إلى قرية في منطقة جبرين، أصابتني الصدمة. كانت القرية كاملة على حالها. إنما كانت خالية من الناس. وللمرة الأولى سألت نفسي أين هؤلاء الناس، إلى أين ذهبوا؟ تلك لحظة لم تخترق وعيي... عام ١٩٦٧ (بعد حرب الأيام الستة) التقيت أولئك الناس الذين قالوا إنهم من المالحة، من ساريس، من دير الهوا، وفجأة قلت في نفسي: ها هم. وكل

الجغرافيا القديمة عادت وصدمتني. كل جغرافيا المأساة عادت. وهكذا، فإنني أعيش اليوم مأساتهم التي كنت أنا ربما مَن سببها لهم. إنني مرتبط جداً من الناحية العاطفية. ولكن طوال سنوات لم أعرف كيف أترجم هذا الارتباط إلى لغة سياسية. ومن الجائز أن فكرة ثنائية القومية توفر لذلك تعبيراً سياسياً».

كيف نخرج من مأساتنا المشتركة؟ لقد بدأت عزلتي، وخفت على نفسي. لجأت إلى منزلي. محوت اسمي. غيّرت عاداتي، لأنني أريد حلاً لنفسي. ورددت مراراً: أريد أن أعيش. أنا الآن أبحث عن خلاصنا نحن جميعاً. نحن اليهود في إسرائيل، وهم الفلسطينيون، عندنا وعندهم. أي في إسرائيل، وفي الضفة الغربية والقطاع. بتُّ على يقين بأن خلاصنا جميعاً هو الحل. فلا خلاص لشعب دون خلاص الآخر. إما أن نذهب معاً إلى الجحيم، أو نبني لنا وطناً مشتركاً، أو نبني دولتين، واحدة لنا وأخرى لهم، وإما نقيم سلاماً ما... إنما، بنفنستي، هذه أفكار، وليست وقائع. ليست أحداثاً تُصنع. ليست مضبوطة على إيقاع الحركة التي تسير بها يوميات العلاقة بيننا وبين الفلسطينيين. لقد أضعنا أوسلو. لقد قتلنا أسولو معاً. وخارطة الطريق فقدت طريقها، لأننا على قارعة العنف. نشق الطرق إلى الجحيم بالطائرات والصواريخ والبولدوزر والعمليات الانتحارية.

إننا بعيدون جداً عن دولة ثنائية القومية. أنت تحتاج إلى صهيونية أخرى. إلى صهيونية مضادة للصهيونية كي تسير على قدميها. اليهود في إسرائيل يجنحون إلى البيولوجيا. يريدون أن يعيشوا، ويظنون، أن البنادق توفر لهم هذا الغذاء البيولوجي والرغبة الجامحة للاستمرار في الحياة. يشعرون أنهم مهددون.

إن إنشاء دولتين مستحيل ولكنها أسهل بكثير من تأسيس دولة المعجزة. فحتى الآن، يصعب علينا أن نتخلى عن مستوطنات نائية في غزة، فكيف بالكتل الاستيطانية الكبيرة. ويصعب علينا أن ننسحب من المناطق المحتلة. ويستحيل علينا تقسيم القدس، ومن رابع المستحيلات القبول بحق العودة للفلسطينيين. حتى الآن، نخنقهم بحصار قاتل. نستعيد عافية تأسيس مستوطنات جديدة. وبينما نحن نتحدث معاً الآن، أقرت الحكومة الإسرائيلية إنشاء مستوطنات جنوبي القدس لحوالى ٥٠ ألف مستوطن. نحن يا سيدي ما زلنا في مرحلة الرغبة في التوسع، والرغبة في فرض أمر واقع، والاستماتة في الدفاع عنه.

ليتنا نستطيع أن نصل إلى ما تريده. إلى ما تقترحه. إلى ما ترجوه، غير أن الأمور لن تبتّ على مستوى الأفكار والطموحات والرغبات. بل على مستوى واقعي وحساس ودقيق جداً. سيدي: إننا نخاف منهم اليوم. ونخاف منهم غداً... يريدون إلغاءنا. ألم تسمع ما يقال، من أن الهدف الفلسطيني اليوم، هو إقامة الدولة في الضفة والقطاع. والجيل الثاني عليه أن يبني الدولة القوية، والجيل الثالث يأخذ على عاتقه إزالة إسرائيل. ولذلك، نحن، إذا كنا لا نستطيع إزالتهم، فإننا نخضعهم للتدمير الدائم. نبقيهم في حالة العد العكسي لوجودهم. نلزمهم بالاضطهاد والدفاع الدائم على خطوط خلفية تزداد تراجعاً. ونحن ندفع ثمن ذلك عملياتٍ انتحارية، وقصفاً، وضياعاً دولياً، وعزلة خانقة، وأزمة أخلاقية. فنحن الدولة الوحيدة في العالم التي ما زالت تحتل أراضي بالقوة.

إنه لأمر يدعو إلى القبول بمنطق القدرية المأساوية، لنا ولهم. لستُ مقتنعاً بالتبريرات الذهنية. كأن تقول لي، اكتشفت أن هناك صراعاً

بين قوميتين ثم تتراجع كي تتبنى نظرية الصراع بين السكان الأصليين والمهاجرين البيض من اليهود. ماذا ينفعنا ذلك، وقتالنا مختلف ونادر ويبدو أنه سيكون أبدياً؟

وقبل أن يودعني، عبّر لي بنفستي عن حالته النفسية:
«لست مسروراً مما أعرضه. وأعرف أن ما أتلعثم به هنا ليس الحل حقيقة. لأنه حتى إذا أقيم هنا نظامٍ فيدرالي، فإن السلام لن يتحقق. فالسلام لن يحل هنا. وحتى إذا تمَّ التوصل إلى تسوية ثنائية القومية، فإن هذه التسوية ستدير الأزمة فقط، إذ على هامشها سيحدث العنف دوماً».

هذا وهم إذاً. تتعلق بأفكار أوهى من خيوط العنكبوت. مشروع أرضيته اليأس وأفقه الدم. ما الحل يا سيدي؟ الأبواب المغلقة علينا من يفتحها؟ لماذا أنا اليهودي عليّ أن أدفع أثماناً باهظة في الشتات؟ اضطهاد، تفرقة عنصرية، لا سامية، محارق، مذابح، وعندما أعود لأبني بيتي وأعيش فيه بأمان، أُضطر أن أبنيه على بيوت الآخرين المهدمة، وتلاحقني لعنتهم عنفاً ودماً؟ هل هذا هو مصير اليهودي، لا وطن في الشتات، ولا وطن له فوق أرض ظنها له، فتعرف أنها أيضاً لسواه؟

«الحقيقة أن كل الوضع الذي نشأ في هذه البلاد هو وضع متناقضات ومفارقات وانعدام الحل. لذلك، فإنني اليوم شخص حزين ومتشائم. شخص يعيش إحساساً عميقاً بالأزمة. وعندما أنفصل اليوم عن حلم أبي بالدولة القومية اليهودية، فإن الأمر ليس سهلاً بالنسبة لي. إنه صعب جداً. فطوال حياتي كان هذا حلمي أيضاً».

«ولكنني أخشى على أحفادي. وفي كل مرة أنظر فيه حولي أخشى على أحفادي. كيف سيعيشون هنا؟ وما الذي أورثه لهم؟ ولأنني أعرف أن الدولة القومية اليهودية لن تبقى هنا، وأن دولتين لشعبين لن تقاما، فإنني أتمسك بالأمل الهش هذا، بأن ينتج عن ذلك شيء ما مشترك. شيء شبه كنعاني جديد، وربما نتعلم، رغم ذلك، العيش سوياً. ربما نفهم أن الآخر ليس غريباً، وأنه هو أيضاً جزء من هذا المكان، مثل هذه البساتين، ومثل ما تنبته الأرض».

أكاد أنطفيء. أشعر أن غرناطتنا لن تعيش كثيراً. أخيراً، سيتعب السلاح، وربما تنتصر الأرحام، ويفوز العراة بمعركة البقاء. ليتني أعرف غداً، بعد غد. بعد عقد. بعد عقدين.

إننا نعيش عنفنا كغاف دهرنا.
عذراً سيد بنفستي أحترم حزنك كثيراً. أحترم أحلامك التي سقطت. أنت اليوم مثلي. إنسان بلا أمل، يتعلق بحبال الأفكار الواهية، يرسم. يريد أن يكون الواقع مرآة لأفكاره، فيما الواقع يتشظّى، ولا لغة إلّا لغة القتل. «إن الكوابيس تصنع جداراً يحجب بين الموتى وبينه، فكل الموتى وخز ضمير».

وداعاً سيد بنفستي... قد أجد جواباً لدى بني موريس، علمت أن لديه رؤيا نهائية لخاتمة أحزاننا.

8

يوم القيامة ... بعد فوات الأوان

ها أنتذا تزعم أنك تدخل
في نور غرناطة المصلوبة
وفي دوامة شعب في تابوت
نهايته فوضى مظلمة...
كل عنف انكفأ إلى قضم أظافره
قليلاً قليلاً أغدو شبيهاً
بهذا العالم السافل
في هذا الدرك السفلي
الذي وصلت إليه
لا تستطيع أن تقارن شيئاً
إلّا بالبرد.

آراغون ـ مجنون إلسا

«في الجيل الحالي، لن يكون سلام ولن يكون حل. قدرنا أن نعيش على حرابنا. وأنا كبير السن. ولكن، هذا أمر بائس بالنسبة

لأولادي. لا أعرف إن كانوا سيرغبون في مواصلة العيش في مكان لا أمل فيه، وحتى إذا لم تدمّر إسرائيل فإن الحياة الجيدة والعادية لن تكون هنا في العقود المقبلة».

«إن التفجيرات في الحافلات والمطاعم قد هزّتني فعلاً. لقد دفعتني لفهم عمق الكراهية نحونا. لقد دفعتني لأفهم أن العداء العربي والإسلامي للوجود اليهودي هنا يقودنا إلى حافة الخراب. ولا أرى في العمليات أفعالاً فردية. إنها تعبر عن الإرادة العميقة للشعب الفلسطيني وهذا ما يريده معظم الفلسطينيين. إنهم يريدون أن يحدث لنا جميعاً، ما حدث للحافلة».

هذه ليست رؤيا يا بني موريس(*). هذه كارثة محققة. إن الواقع الذي تصفه قاس جداً. وأنا لست على قناعة تامة بقدرتنا على البقاء هنا.

نعم يا بني: «إن احتمال الدمار قائم (...) إن المشروع الصهيوني هو مشروع أبوكاليبتي. أخروي. إنه يقيم في محيط معادٍ، إن وجوده غير منطقي. لم يكن منطقياً أن ينجح عام ١٨٨١. ولم يكن منطقياً أن ينجح عام ١٩٤٨، وليس من المنطقي أن ينجح اليوم. ومع ذلك فقد وصل إلى ما وصل إليه. إن في الأمر معجزة. في العشرين سنة المقبلة من الممكن حدوث حرب نووية هنا».

ماذا تقول بني موريس! ثم كيف تقوله بحيادية كأنك تكرع ويسكي! ما هذه البرودة التي تجعل منك كائناً يكظم إحساسه ويتمتع بدفن مشاعره؟ أليس عندك إلّا الحلّ الفنائي؟

«إيديولوجياً، أؤيد حل الدولتين (واحدة لنا وأخرى للفلسطينيين) فهذا هو البديل الوحيد عن طرد اليهود (من إسرائيل) أو طرد العرب (من فلسطين) وهو بديل عن الدمار الشامل. عملياً، هذه التسوية لن تصمد، أكثرية فلسطينية لن تقبل بهذا الحل، فبعد هدنة قصيرة سيعود الإرهاب وتستأنف الحرب... حسب تقديري لن يكون هناك سلام. في هذا الجيل يجب الوقوف بالمرصاد وحماية الدولة قدر الإمكان».

ألهذا أنشأنا جداراً حديدياً لحمايتنا، إلى جانب ترسانة نووية، واستنفار دائم، وإعلام يوظف في خدمة القومية، وقوى دولية عظمى إلى جانبنا ودياسبورا عملاقة منتشرة، اقتصاداً ومالاً وثقافة وسياسة وإعلاماً وعبقرية... تقوم بخدمتنا مجاناً؟

«نعم. الجدار الحديدي هو وصف جيد. الجدار الحديدي هو السياسة الأكثر معقولية للجيل القادم، إنه ما اقترحه جابوتنسكي وتبناه بن غوريون. وقد زعم بن غوريون أن العرب لا يفهمون غير لغة القوة، وأن القوة وحدها هي التي ستقنعهم بوجودنا هنا. وكان على حق. وهذا لا يعني أن لا حاجة إلى الدبلوماسية تجاه الغرب وتجاه ضميرنا والقوة وحدها هي التي تنتزع استعدادهم لقبولنا، القوة وحدها تقنعهم بالإقرار بعدم أهليتهم لهزيمتنا».

ولكن سيد موريس، لقد استعملنا القوة حتى الثمالة، ولا نزال. الحرب الأولى أقمنا فيها دولتنا وأكثر مما سمحت به الأمم المتحدة. طردنا ٧٥٠ ألف فلسطيني بالقوة، كما أشرت في كتابك التوثيقي الذي أثار لغطاً كبيراً حول شخصيتك، لأنك فضحت المجازر التي ارتكبتها إسرائيل، مجزرة مجزرة، واغتصاباً اغتصاباً. واستعملنا القوة

المباغتة عام ١٩٥٦، فدخلنا على خط الغزو الفرنسي ـ البريطاني لمصر، ووصلنا بسرعة البرق إلى قناة السويس. ويومها، قال عبد الناصر، كنا ننتظرهم من الشرق فجاؤونا من الغرب. أي أنه لم يكن مستعداً لهذا الهجوم ولم يكن يفكر بخطره أبداً. نحن فعلنا كل ما في وسعنا كي تزودنا فرنسا، بمفاعل ديمونة، الذي وفق ما قاله العالِم الثرثار فانونو، ينتج أكثر من ٢٠٠ قنبلة نووية. قوتنا لا يستهان بها، قذفنا ثلاثة جيوش عربية خارج حدودنا المؤقتة في حرب الأيام الستة. تفوقنا. صرنا أمثولة عالمية في الانتصارات السريعة. دمشق ركعت على قدميها، وخسرت الجولان. الأردن انقصم ظهره، وبات بلا رئة. مصر، فقدت نبيها الجديد عبد الناصر، بعدما هزم جيشه بساعات. وأقامت قواتنا معاقلها على الضفة الشرقية من قناة السويس، وحفرنا خط بارليف الشهير.

لم نوفر قوة أمنية أو مخابراتية أو مافيوزية إلّا استعملناها.

تغلغلنا في بيروت وقتلنا ثلاثة من قادة المقاومة. دمّرنا الأسطول الجوي المدني اللبناني وهو رابض على مطار بيروت، ولم تطلق علينا رصاصة واحدة. دمّرنا مفاعل «تموز» العراقي ونهدد المفاعلات النووية الإيرانية. دافعنا بشراسة عام ١٩٧٣ عن إسرائيل في مواجهة حرب قادتها مصر وسورية. كادا أن يهزمانا لأيام. فأدخلنا الولايات المتحدة على خط التموين العسكري. خاضت معنا الحرب، حتى استعدنا سيناء، وحاصرنا الجيش الثالث، وخضنا مفاوضات مع المصريين لتزويده بالماء والغذاء. أقمنا دفرسواراً في عمق الضفة الغربية لقناة السويس. دمّرنا الصواريخ. أبدنا الطائرات المعادية. قاتلنا الفلسطينيين في الأردن. خضنا معركة إلى جانب الأردن لنبيدهم مرة أخرى.

تفتقت عنا عبقرية القوة مع مناحيم بيغن وآرييل شارون. خضنا حرباً بلا هوادة ضد المخيمات الفلسطينية في لبنان. قتلنا منهم الكثير. توغلنا في الأراضي اللبنانية مرة أخرى. دخلنا بيروت. طردنا منظمة التحرير منها عام ١٩٨٢. كنا على أهبة القفز على دمشق. دمرنا لها صواريخها في سهل البقاع. منعنا طائراتها من التحليق. كنا أسياد البر والبحر والجو والدبلوماسية والسياسة والاغتيالات... كنا الأقوى دائماً. الأسلحة العربية لا تصلح إلّا للزينة، وللمارشات العسكرية، وللعزف على أمجادها الصامتة، ولقمع شعوبها. نحن أقوى من كل الدول العربية قاطبة، وهي لن تجتمع يوماً علينا أو ضدنا. خسر العرب معركتهم مع أنفسهم فلن يربحوا معركتهم ضدنا... إنما، يا سيد موريس، مشكلتنا مع هذا الطفل المدجج بالمتفجرات. هذه الانتفاضة العارية. وعندما يقال إنها معسكرة، أضحك. فلا عسكر إلّا لدينا. لديهم كراهية وحقد وأثقال من ذنوبنا. فلا تقنعني بأن هذه القوة وهذا الجدار سيحميان إسرائيل، ولو مؤقتاً.

نحن، رغم عزلتنا ما زلنا الأقوى. أميركا معنا، فمن علينا؟ تكفينا هذه القوة العظمى التي تقف إلى جانبنا ومعنا وضمننا وفينا. كأننا ولاية مميزة من ولاياتها المتعددة. كأننا الولد المدلل، تغدق علينا السلاح والتأييد، ولا تقدم مشروعاً قبل أن نمليه عليها. وقبل ذلك كنا في كنف أعتى قوة إمبريالية في العالم. كنا تحت جناحي بريطانيا وفرنسا، فيما كان العرب حلفاء من الصنف البخس لبريطانيا ثم للاتحاد السوفياتي. جيّرنا يهود العالم ليكونوا هنا أكثر من هناك، وقد استجابوا. حملوا هويتين وانتماء واحداً في معظم الأحيان. هوية البلد الذي يعيشون فيه، وانتماء للبلد الذي أنشأناه عنهم، لنا ولهم. من أقوى منا؟ لا أحد مثلنا، أرض صغيرة،

ديموغرافيا بخيلة، وقوة لا تقهر.

لقد استنفدنا قوتنا بالكامل. هذه هي طاقتنا. إلّا إذا كنت تبشرنا، عن صبر برؤيتك الأخروية: الأبوكاليبس.

إذا كانت لم تنقصنا القوة لإقامة دولة آمنة وطبيعية وعادية، فلا شك أن الخطأ مقيم في الفكرة، في الصهيونية ذاتها، لأنها قامت على محور غير طبيعي، أو لأنها لم تنفذ، منذ البداية، بطريقة حاسمة، ينفرد فيها اليهود بالأرض كلها مهما كانت الظروف.

قال موريس: «صحيح. كان بن غوريون على حق، لو لم يمارس «الترانسفير» لما قامت الدولة. بن غوريون كان من دعاة التنظيف. لقد فهم أنه لن تقوم دولة يهودية إذا كان بداخلها أقلية عربية كبيرة ومعادية. ليست هناك دولة كهذه. ولا يمكنها أن تبقى (...) (ولكنني) لا أتماثل مع بن غوريون، وأعترف أنه اقترف خطأً تاريخياً جسيماً عام ١٩٤٨، ورغم أنه فهم القضية الديموغرافية والحاجة إلى إقامة دولة يهودية من دون أقلية عربية كبيرة، إلّا أنه خلال الحرب، تراخى، وفي النهاية فشل... إنه قام بعمليات طرد، ربما كان من المفروض أن يكمل العمل... إحساسي أن هذا المكان كان سيبدو أكثر هدوءاً وأقل معاناة لو حسمت هذه القضية، ولو أن بن غوريون عمد إلى إجراء عملية طرد كبيرة ونظف الأرض كلها حتى نهر الأردن (بما فيها الضفة الغربية طبعاً). ومن الجائز أنه لاحقاً تبين أن هذا كان خطأه القاتل. لو أنه قام بعملية طرد كاملة، غير جزئية، لكان جلب الاستقرار لدولة إسرائيل لأجيال عديدة».

أظن أن عدداً من الإسرائيليين يتعذر عليهم تصديق ما نسمعه منك. كما قال آري شافيت.

«إذا كانت نهاية القصة ستكون سيئة من وجهة نظر اليهود، فإن سبب ذلك يعود إلى أن بن غوريون لم يكمل الترانسفير عام ١٩٤٨. وأبقى مخزوناً ديموغرافياً كبيراً ومتفجراً في الضفة وغزة وداخل إسرائيل نفسها. إن عدم استكمال الترانسفير كان خطأً».

هل تؤيد الترانسفير اليوم؟

«إن كنت تسألني إن كنت أؤيد الترانسفير وطرد العرب من الضفة الغربية وغزة وربما الجليل والمثلث، فإنني أقول لك، ليس الآن. في الظروف الحالية هذا أمر غير أخلاقي وغير واقعي، والعالم لن يسمح بذلك والعالم العربي لن يسمح به أيضاً، وهذا سيدمّر المجتمع الإسرائيلي من الداخل. ولكنني على استعداد للقول أنه في ظروف أخرى، ظروف أبوكاليبتية، يمكن أن تتحقق في خلال خمسة إلى عشرة أعوام. بوسعي رؤية عمليات الطرد، وطرد عرب إسرائيل أيضاً... لأن عرب إسرائيل هم قنبلة موقوتة، وانزلاقهم نحو فلسطنة كاملة حولهم إلى امتداد للعدو في داخلنا. من حيث القدرة فهم طابور خامس ديموغرافي وأمني على السواء ويمكنهم تقويض الدولة. إذا تعرضت إسرائيل لخطر وجودي يمكن أن تضطر إلى اللجوء إلى عمل ما، نفذته سابقاً».

يا إلهي. هذا فظيع. إنك تهددنا بالأبوكاليبتية. هل خرجت من خطايانا البشعة بحلول أبشع منها؟

«تغيرت بعد كامب ديفيد. الفلسطينيون غير مستعدين للقبول

بدولتين. إنهم يريدون كل شيء: اللد وعكا ويافا. أبو عمار يريد إعادتنا إلى أوروبا، إلى البحر الذي جئنا منه. هو حقاً يرى فينا دولة صليبية ويفكر بالسابقة الصليبية، وينتظر لنا نهاية صليبية. (عرفات يتحدث عن خطة المراحل) النخب الفلسطينية تنظر إلينا كصليبيين وتتحرك وفق منطق المراحل. لذلك ليسوا على استعداد للتنازل عن حق العودة. يحتفظون بهذا الحق كأداة يهدمون بواسطتها الدولة اليهودية عندما يحين الوقت. لا يتحملون دولة يهودية ليس على ثمانين بالمائة من الأرض، ولا حتى على ثلاثين بالمائة، الدولة الفلسطينية في نظرهم يجب أن تقوم على كل أرض إسرائيل»... (فلا فائدة من حل الدولتين).

وفي نظرك، كان يجب أن تقوم إسرائيل على كل أرض فلسطين، أي على أرض فلسطينية وبواسطة شعب يهودي فقط! هذا يعني أن المشروع الصهيوني خطأ، وغير قابل للتطبيق إلّا إذا اقترفنا جرائم حرب. تلك الجرائم التي توثقها في كتابك بدم بارد. فأنت الذي قدتنا إلى التعرف على المجازر التي ارتكبتها إسرائيل عام ١٩٤٨، وتقول بعد التدقيق والتحقيق في الوثائق، بأنها «أكثر مما ظننت في الماضي»، فقد فاجأك «وقوع عمليات اغتصاب كثيرة، حيث أعطيت أوامر عملانية جاء فيها صراحة أن على وحدات الهاغاناه اجتثاث القرويين الفلسطينيين وطردهم وتخريب بيوتهم». الاغتصاب كان شائعاً: هنا تمَّ اغتصاب أربع نساء واحدة منهن اغتصبت مراراً. وفي قسم كبير من هذه الاغتصابات كانت القضية تنتهي بالقتل. «وهذا هو طرف جبل الجليد» أحصيتَ وعددتَ عدد المجازر: ٢٤ مجزرة. هناك حالات كثيرة من القتل الاعتباطي. يرون عجوزين يسيران في حقل فيردونهما بالرصاص. قرية أخليت بكاملها عبر إطلاق الرصاص على كل ما يتحرك. «والحوادث الأشد خطورة،

كما تقول، وقعت في الصليحة (٧٠ ـ ٨٠ قتيلاً)، دير ياسين (١٠٠ ـ ١١٠ قتلى)، اللد (٢٥٠ قتيلاً)، الدوايمة (مئات؟)، أبو شوشة (٧٠ قتيلاً) في الطنطورة وقعت جرائم حرب. كانت نصف المجازر جزءاً من عملية حيرام: الصفصاف، الصليحة، الجش، عيليون، عرب الحواسي، دير الأسد، مجد الكروم، سعسع. وشهدت عملية حيرام تركيزاً شاذاً لحوادث إعدام الناس على الجدران أو قرب آبار بشكل منتظم، ومعروف أنه لم تجر معاقبة شخص على أعمال القتل. لقد سكت بن غوريون، كما تذكر، وغطى على الضباط مرتكبي المجازر». لأنها كما أظن، كانت أعمالاً حربية ضرورية ولا ضرورة لإدانتها.

سيدي، تقول إن ذلك كان ضرورياً. لماذا؟ أما كان بالإمكان اللجوء إلى غير هذه الوسائل الإجرامية، لتحقيق سلامنا وسلامهم معاً؟

«ليس ثمة تبرير لأعمال الاغتصاب ولا تبرير للمجازر، ولكن في ظروف معينة فإن الطرد لا يشكل جريمة حرب. ولا أعتقد أن عمليات الطرد التي حدثت عام ١٩٤٨ كانت جرائم حرب... فلا عجة من دون تكسير البيض. يجب أن توسخ يديك».

ولكن هذه الأحداث أدت إلى قتل الآلاف وتدمير مجتمع كامل. ثم تقول بأن بن غوريون، كان عليه أن يستمر في الطرد، أي في ارتكاب جرائم حرب، نقبلها ونبررها نحن فيما يغض العالم الطرف عنا، كما غضَّ الطرف عن هتلر، عندما قادنا إلى أبشع جريمة بشرية. قل سيدي... أكاد أجن. كل هذه الجرائم ولم نفلح. بلد يقوم برمته على الاستئصال. على النفي. على الطرد. على الاغتصاب. ويقع في النهاية ضحية ما ارتكبت يداه. المشروع

الصهيوني غير معقول وباهظ إنسانياً. ها نحن عدوّان نتدمَّر معاً. دولة لليهود قيد الإنشاء الدموي ولا دولة لفلسطين، وهي قيد التدمير الدموي. دماء تتقاذف علانية.

يا بني، «إن مجتمعاً ينهض لقتلك يجبرك على تدميره. عندما يكون الخيار هو بين أن تدمر عدوك أو يدمرك، فمن الأفضل أن تدمره. إن كنت تتوقع مني أن أنفجر بالبكاء، يؤسفني أنني خيبت أملك. لن أفعل ذلك (...) لا أعتقد أن الذين مارسوا الطرد والقتل أحسّوا بوخز الضمير. ولو كنت مكانهم لما شعرت بوخز الضمير. فمن دون هذا العمل ما كانوا لينتصروا في الحرب ولم تكن الدولة لتقوم (...) لا أستنكر فعلتهم أخلاقياً. وهناك ظروف في التاريخ تنطوي على تبرير التطهير العرقي. إذا كان الخيار بين التطهير العرقي وإبادة شعب، إبادة شعبك، فأنا أفضل التطهير العرقي... لم تكن الدولة اليهودية لتقوم من دون اقتلاع ٧٠٠ ألف فلسطيني. كانت هناك ضرورة لاقتلاعهم. لم يكن هناك مناص من اقتلاعهم... لتطهير الجبهة الخلفية وتنظيف مناطق الحدود».

إن هذا المنطق سيد موريس، هو منطق الطغيان والديكتاتوريات والأنظمة الشمولية والنزعات الاستعمارية. وها إننا نجني اليوم فظاعات فلسطينية استولدتها خطيئة النكبة التي يوظفونها في عقائدهم، لاستعادة «كامل التراب الفلسطيني»، سراً أو علناً. ارتكبنا مذابح غير منجزة. هل كان يجب أن نرتكب أكثر كي ننعم بهدوء، على حساب ضميرنا الإنساني وعلى حساب يهوديتنا النقية؟ إن صهيونيتنا تحتاج إلى كل هذه الآثام، لننجز نصف انتصار، أو انتصار سينتحر بعد أعوام.

إن العنف الفلسطيني مبرر إذاً. فنحن سقيناهم منه حتى الموت.
«العنف الفلسطيني ليس سببه الحصار والعنف (الإسرائيلي) والاحتلال، بل يعود إلى النكبة. إلّا أن هذا ليس تفسيراً كافياً. هناك مشكلة عميقة في الإسلام. عالم ذو قيم مغايرة. الحرية والانفتاح والديموقراطية والإبداع، أمور غريبة لديه. إنه عالم يحلل دم كل من لا ينتمي إلى معسكر الإسلام».

ولكن شافيت يصرّ سيد موريس، على أن قسماً كبيراً من المسؤولية عن كراهية الفلسطينيين ملقى علينا. وأنت أظهرت بنفسك أن الفلسطينيين مروا بنكبة تاريخية فحوّلناهم إلى قتلة وبرابرة.

«صحيح. المهم هو اعتقال القاتل أو إعدامه. البرابرة الذين يريدون قتلنا. الناس الذين يرسلهم المجتمع الفلسطيني لتنفيذ العمليات. وبطريقة ما أيضاً المجتمع الفلسطيني نفسه، حالياً، هو في حالة قتل منتظم. إنه مجتمع مريض جداً من الناحية النفسية، ويجب التعامل معه كما يعامل أفرادهم كقتلة. ينبغي أن يقام له شيء مثل القفص. وأنا أعرف أن هذا يبدو فظيعاً. وهذا فعلاً وحشي. ولكن لا خيار آخر. هناك حيوان مفترس يجب احتجازه بهذه الطريقة أو تلك».

يا إلهي ماذا أسمع؟
«نعم. نعم. إن المحافظة على شعبي أكثر أهمية من المفاهيم الأخلاقية. أنا أيضاً ألبير كامو. لقد كان يعتبر يسارياً، وأخلاقياً. ولكنه في تعامله مع المسألة الجزائرية وضع وطنه فوق الأخلاق. المسلمون برابرة، القيم التي ذكرتها آنفاً هي قيم البرابرة. إنهم برابرة. والعالم العربي اليوم بربري».

إنك تتبنى الصهيونية الوحشية، فيما أحاول أن أكون صهيونياً طيباً.

لست طوباوياً. إن الطهارة السياسية خطيرة، أكثر من طهارة السلاح. ولكن أن لا يكون عندنا إلّا السلاح، بكل ما يصيبنا اليوم من طيشه وعنفه ومجازره، فهذا أشد خطراً بمرات. ثم أن تقول: إن المسألة هي صدام حضارات، وإن الإسلام بربري، والعرب برابرة، و«المشروع الصهيوني ليس خطأ، طباع الإسلام والعرب تمنع قيام دولة تعيش بسلام وبانسجام مع محيطها» فإن هذا يبدو غير سليم. ما رأيك بالمسيرة اليهودية في البلاد العربية التي نسج خيوطها من وقائع التاريخ جاك أتالي؟ ثم هل كنا في أوروبا المجازر أفضل مما كنا عليه في البلاد العربية؟ يوم كان البرابرة أوروبيين متمدنين، كنا في هذه المنطقة أسياد المال والعلم والتجارة والفكر، مشاركين في الهم الحضاري العربي.

هل قرأت ما كتب على شاهد شحاته هارون؟

ـ من؟

ـ شحاته هارون. المحامي اليهودي المصري، الذي رفض بشكل قاطع هجرة وطنه مصر والالتحاق بركب اليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل. سأقرأ لك سيد موريس، ما كتبه هذا اليهودي الذي عاش عصره وسلامه ومواطنيته وإنسانيته بشكل فذ. لقد كتب على قبره عبارة سجلها في حياته:

«كل كائن بشري، لديه هويات متعددة. أنا مصري عندما يكون المصري مضطهداً ومقموعاً. وأنا أسود عندما يكون السود مضطهدين. وأنا يهودي عندما يكون اليهود مضطهدين، وأنا فلسطيني عندما يكون الفلسطينيون مضطهدين».

كان شحاته إنساناً عالمياً بمواقفه. لم ينحرف عن مبادئه الإنسانية. لا أوافقك سيد موريس على التهمة التي أطلقتها على الإسلام

والمسلمين وعلى العرب وثقافتهم. لن أدخل معك في جدل تاريخي. فأنت سيد هذا التاريخ وملك الحياد. ولكن، وفق ما أعرفه عاش اليهود في البلاد العربية، كأقلية مرفّهة وفاعلة وناشطة ومحترفة، إلى أن بدأ مشروع الترانسفير لليهود المقيمين في البلاد العربية إلى إسرائيل، حيث سادت مقولة ذكرها ليلنتال: «اليهودي هو الذي يمنح نقوداً إلى يهودي آخر، لإرسال يهودي ثالث إلى إسرائيل»، وحيث سادت عقيدة الازدواج في الشخصية اليهودية. فقط طلب ناحوم غولدمان الحمائمي أن يكون لدى يهود أميركا «الشجاعة بأن يعلنوا أنهم يتمتعون بولاء مزدوج: واحد للبلد الذي يعيشون فيه وآخر لإسرائيل». وكان بن غوريون يبشر بالازدواج المستمر وأن اليهودي يجد نفسه في المنفى ممزقاً بين مجالين متنافسين للنفوذ «...لا يمكننا العيش في المنفى داخل إطار يهودي خالص».

سيد موريس، إن يهود البلاد العربية في كل من آسيا وأفريقيا وسائر البلاد الشرقية لم يلعبوا دوراً هاماً في الهجرة إلى فلسطين، أو في إنشاء المستعمرات فيها. وكانت أعدادهم قليلة بالنسبة لمعدل الهجرة العام. فمن بين الـ ٤٦٠ ألفاً الذين دخلوا فلسطين بين عامي ١٩١٩ و١٩٤٥، حسب تقدير شيشتمان، لا نجد سوى ٤٢ ألفاً قدموا من البلدان العربية والإسلامية.

سيدي، يذكر المقدسي (٩١٠م) أن الصَرّافين في بغداد كانوا يهوداً بينما كان معظم الكتّاب من النصارى، وكما لعب بعض التجار اليهود في العراق دوراً رئيسياً في التجارة العالمية في الأمبراطورية العربية. وبعد ذلك، كانت الظروف التي عاش فيها اليهود في الشرق تتناقض مع ما أصابهم في أجزاء مختلفة من أوروبا (مظالم في بوهيميا والنمسا وبولندة وإسبانيا) بحيث شهد القرن الخامس

عشر تدفق كثير من اليهود الأوروبيين نحو الممتلكات العثمانية كما ذكر (Rejwan) رجوان في بحثه عن رفض العرب للاـسامية. وبعد الخروج من غرناطة وإسبانيا هاجر اليهود إلى تركيا وسالونيك والجزائر وتونس وليبيا ومصر وفلسطين وسورية. وفاق عددهم عدد اليهود المحليين. فازدادت الثروات والحضارة والثقافة. وكما وجد «بوين وجب» أنه ومنذ ظهور الخلافة وحتى زوال الغيتو في أوروبا، نجد أكثر مراكز اليهودية ازدهاراً في البلاد الإسلامية، في العراق خلال الحكم العباسي، وفي إسبانيا خلال السيادة العربية، وفيما بعد في الأمبراطورية العثمانية.

عاش أجدادنا وأجداد أجدادنا في البلاد العربية التي كنا جزءاً منها، نساهم في حضارتها وفكرها واقتصادها. فلم يكن في هذه البلاد أي تمييز ديني أو عنصري، ومعظم الدساتير الحديثة نصت على المساواة وضمان الحقوق المتساوية وحرية التفكير والتعليم والتمتع بكاملْ الحقوق كغيرهم من المسلمين والمسيحيين مع الاحترام التام لشؤونهم الدينية. يقول أحد المسؤولين العرب في خطاب له في الأمم المتحدة عام ١٩٥٨:

«لقد كنا على أحسن الأحوال مع اليهود.. أحببناهم لما كرههم الجميع... وآويناهم عندما طردهم الجميع من كل مكان.. شاركوا في حياتنا القومية، في حين حرموا منها في كل مكان... أصبحوا وزراء... أعضاء برلمان... موظفين كباراً وساهموا في كل مجالات الحياة».

أليس صحيحاً سيد موريس، أن أوضاعنا كانت جيدة في البلاد العربية ولم تتراجع أوضاعنا إلّا بعد المشروع الصهيوني. وخصوصاً بعد نشوء بلدنا هنا في فلسطين؟

يبدو لي أن ذلك مفهوم، لأن التاريخ يسجل لنا حضوراً مميزاً ونشيطاً في كافة الأنشطة. فنحن رحبنا بتأسيس حكومة عراقية عربية بعد الاضطهاد الديني الذي مارسته تركيا ضد المواطنين العرب في بلدانهم. كانت بغداد نقطة انطلاق لنا، منها توزعنا لمتابعة أنشطتنا الاقتصادية وتوسيعها كالكوتا وبومباي ورانجون وسنغافورة وهونغ كونغ. عملنا في الصياغة والحياكة والصناعات والحرف اليدوية إضافة إلى المهنة العزيزة علينا، أي الصرافة. كانت لنا بنوك كبيرة مزدهرة، مثل بنك زلخا وبنك كريديه وبنك إدوارد عبودي وبنك كارديت. احتكرنا تجارة الألبسة والحصر والأثاث والآجر والأخشاب والأدوية والأسلحة والأقمشة والتبغ والأرز، والحلويات. وكان لدينا شركات كبرى وعملاقة مثل شركة خضوري وعزرا ميرلاوي. أصحابها الوكلاء الوحيدون لاستيراد دهون وشحوم شركة «موبيل أويل» الأميركية للبترول بفروعها في البصرة والموصل وكركوك. وعملنا إلى جانب التجارة، في معظم أعمال الطبقة الوسطى في المهن الحرة كالطب والصيدلة والصحافة والطباعة وفي وظائف الحكومة والمال والبنوك.

سيدي، ماذا كان ينقصنا؟ ٥٩٪ من واردات العراق كانت بيد اليهود. ٩٠٪ من عقود العراق بيد اليهود. ١٠٪ من الصادرات بيدنا. وخلال الحرب العالمية الثانية كانت ٨٠٪ من الواردات بيدنا و٥٪ من الصادرات بيدنا و١٠٪ من العقود بيدنا. ماذا كان ينقصنا؟ كنا طبقة ثرية وطبقة وسطى وطبقة أقل شأناً تعنى بالصنائع. يذكر نائب رئيس رابطة «السفارديم» في إسرائيل وهو من أصل عراقي أن «ثلاثين ألف عائلة من يهود العراق كانت تملك بيوتاً تقدر بثلاثين مليون دينار عراقي وأراضي تقدر بخمسة ملايين دينار وكنس ومدارس تقدر بـ ٢٠ مليون دينار. وأن تسعة آلاف

عائلة لها أملاك تقدر بـ ٧٢٥ ألف دينار عراقي لكل أسرة و١٢٠٠ أسرة تملك ممتلكات تقدر كل واحدة بـ ١٠٠ ألف دينار. وخمس عائلات لها ممتلكات تقدر بـ ٣٠٠ ألف دينار لكل عائلة».

كانت لنا مدارسنا ومعاهدنا وجمعياتنا. كنا وفوداً برلمانية ومستشارين وأطباء، وأصحاب مطابع كبرى. سأسرد عليك ما يلي:

في عام ١٩٣٦ كانت المطابع اليهودية في العراق هي: إيشاع، ميخور، التجارية، مطبعة الجمعية الخيرية الإسرائيلية، مطبعة دنكور، المطبعة الوطنية، وكانت أكبر مؤسسة طباعية في العراق هي شركة الطباعة والتجارة المحدودة وصاحبها الصحافي والمحامي أنور شاؤول. أما الدوريات اليهودية فكانت: «البرهان»، «الدليل»، «العائلة» (البصرة) «بريد العراق» و«النشرة الاقتصادية». وفي ميدان الصحافة العربية، سيطر نعيم قطان على صحافة الحزب الوطني الديموقراطي وكان المسؤول عن تحرير المقال الافتتاحي لجريدة «صوت الأهالي»، وكان مراد العماري يشرف على السياسة الخارجية في الصحيفة الناطقة بلسان الحزب، وجاكسون الصحافي اليهودي يشرف على جريدة «التايمز» العراقية، والصحافي سليم بصون عمل في عدة صحف. وكان يحتكر تجارة ورق الصحف دنكور وأولاده ويحتكر عزوري توزيع الورق. (الدليل المؤرخ لعام ١٩٣٦).

سيدي، لقد عين ساسون حزقيال أول وزير للمالية في العراق عام ١٩٢١. واستمر في هذا المنصب لعدة سنوات وفي عدة وزارات. كما شغل يهود آخرون مناصب هامة في دوائر متعددة وخاصة ما كان له علاقة بالمالية، السكك الحديد والبريد والتلغراف والجمارك والضرائب.

سيدي، انظر كيف كنا: «نصت الفقرة الثانية من المادة الثالثة من قانون المجلس التأسيسي ١٩٢٢ على أن يكون من أعضائه يهوديان من يهود بغداد، واحد في كل من الموصل وكركوك والبصرة. ونصت المادة التاسعة من قانون انتخاب النواب لعام ١٩٤٦ على أن يمثل اليهود ثلاثة نواب في قضاء مركز لواء بغداد، ونائبان عن البصرة ونائب عن الموصل إلى جانب من يمثلهم في مجلس الأعيان. وخضع اليهود لنظام الخدمة العسكرية، وكانوا يعاملون في الجيش بمستوى زملائهم غير اليهود وكان لبعضهم نشاط ملحوظ في الأحزاب العربية ذات الاتجاه اليساري وسيطروا على صحافتها». (The Jewish Agency).

حصل هذا سيدي، فيما كنا نُطرد من أوروبا، وتصادر أملاكنا، وتصك ضدنا الضرائب، ونتهم بسفك الدماء وقتل الأطفال وشرب دمهم. حدث ذلك عندما كنا نطارد إلى غيتواتنا، ونهرب إليها كالجرذان. عندما كانت أوروبا بربرية، كنا موطنين في البلاد العربية. ولم ننل حصة من الاضطهاد أكثر مما ناله مسلمون ومسيحيون مثلنا.

أعرف يا سيد موريس، أن أعمالهم اليوم لا تطاق. إن أعمالهم وحشية وهمجية وبربرية ولكننا كنا مثلهم. وشهادتك خير دليل. كنا برابرة مثلهم وأشد. طردناهم بوحشية. اغتصبنا نساءهم وقتلنا رجالهم. طاردناهم طوال نصف قرن. بربريتان تتنافسان، ولكن هذه البربرية سيدي ليست من أسباط ديننا ولا من سلالة دينهم. ليست من طبيعتنا وليست من طبيعتهم. لا يولد الناس برابرة.

أنت مؤرخ، ولا شك أنك تعرف تاريخ روما القديم عندما سادت

على البر والبحر، ولم يبق أمامها سوى قرطاجة التي كادت أن تغزوها في عقر دارها، بعد عبور جبال الألب بقيادة القائد القرطاجي هنيبعل. لما حوصرت قرطاجة بقيادة الروماني سيبيون وأحرقها انتحى هذا القائد مكاناً قصياً، وراح يردد أشعاراً حزينة من إلياذة هوميروس. فلما سأله صديقه الفيلسوف بوليب، لماذا أنت حزين، إن روما تنتظرك كي تكلل رأسك بتاج وغار ومجد؟ أجاب القائد الروماني سيبيون: لم يعد لروما أعداء، وأخشى أن يأتي يوم ويسلط أحدهم قوته على روما. وكانت وظيفة بوليب، بعد ذلك الحوار، البحث عن أعداء لروما. وللأسف وجدهم. أنت تعرف من هم. أنشأ بوليب نظرية البرابرة. وهؤلاء البرابرة ليسوا غير سكان البلاد التي دمرتها روما وأحالتها إلى وضع مأساوي.

البرابرة الفلسطينيون، ليسوا يا سيد موريس، أبناء طبيعيين لثقافتهم الدينية، حتى ولو كانوا يلوحون لنا بقبضاتهم وإلههم. إن بربريتهم بنت النكبة، التي استولدت هزيمة ونكسة، وتشرداً وقتلاً.

تقول: لم يقبلونا. صح. ولكننا، ألم نكن معهم عندنا وعندهم. كانت بلادهم بلادنا وبلادنا بلادهم؟

سيد موريس، لست مقتنعاً بآرائك ولئن كنت أميل إلى نبوءة أفضل من كابوسك الأبوكاليبتي، حتى ولو كان الأمل الكاذب عدوي البربري الجديد.

نحن سيدي أمام أحد احتمالين: «إما صهيونية وحشية مأساوية أو تنازل عن الصهيونية».

هذا صحيح يا بني، إن ذهبت بالأمور إلى الأقصى.

أليس هذا الواقع التاريخي غير محتمل وفيه شيء غير إنساني بالمرة؟

قال بني موريس: «ولكن هذا ما يتصل بالشعب اليهودي لا

الفلسطيني. شعب عانى ألفي سنة ومرَّ بالكارثة النازية ويعود إلى أرضه. ولكنه يقع في دوامة جديدة من سفك الدماء التي هي ربما الطريق إلى الخراب. نعم. قد يكون الخراب هو نهاية هذه العملية. وهذا ما يحبطني ويخيفني».
وقد نكون الضحية الأكبر لهذا النزاع.

قال بني موريس: «نعم بالضبط. نحن الضحية الأكبر في مسار التاريخ. ونحن الضحية الأكبر المحتملة لاحقاً. ورغم أننا نقمع الفلسطينيين، فإننا هنا الطرف الأضعف. نحن أقلية صغيرة في بحر من العرب الراغبين بإبادتنا. ومن الجائز أنه عندما تتحقق رغبتهم سيفهم الجميع ما أقوله الآن. ولكن ذلك سيكون بعد فوات الأوان».

أميل إلى اعتبار منطقك سليماً جداً. فهذه قد تكون نهايتنا إن لم نفعل شيئاً. لم نصل بعد إلى نقطة اللاعودة. بإمكاننا إصلاح الأمور بطريقة ما. إنك تفزعني. يفزعني حاضري. ترعبني الحافلات البريئة حتى ولو لم تنفجر. يرعبني المقهى، حتى إذا مرَّ اليوم بسلام. يرعبني السير على الطريق.. ولكن يرعبني أكثر، هذا الطريق الذي نسير فيه ذو الوجهة الكارثية.
يا إلهي.. هل هربنا من المحرقة، لنؤلف محرقتنا بأيدينا؟
لن أصدق ذلك. سأقاوم اليأس النهائي. ما زال الوقت باكراً، لإعلان يأس لا رجعة عنه.

لن يتركنا العالم وحدنا... لعلهم يجدون لنا سلاماً ما... سلاماً بدون حب، سلاماً جافاً، أو، سلاماً عدائياً، إلى أن نجد حلاً ذا طابع إنساني هزيل، لنا ولهم.

شكراً سيد بني موريس. لو أنني أصغيت إليك في بداية اختفائي، لكنت أقدمت على سفك جسدي بطريقة نهائية.
سأحاول الآن مرة أخرى.

سأشحذ نفسي من جديد. سأصغي وأناقش عقولاً يهودية فذّة، لعلها ترشدني إلى مسيرة الألف ميل... أو، إلى الخطوة الأولى في مسيرة المائة عام التالية.

(*) بني موريس صهيوني على الدوام. وأخطأ الناس عندما صنفوه كمؤرخ «ما بعد الصهيونية»، لمّا ظنوا أن بحثه التاريخي عن ولادة مشكلة اللاجئين، جاء لتشويه المشروع الصهيوني. إنهم لم يقرأوا الكتاب بالجفاف العلمي ذاته الذي كتب به وبالحيادية الأخلاقية ذاتها. لذلك توصلوا إلى استنتاج خاطىء بأن موريس وهو يصف الأعمال الأشد وحشية والتي نفذتها الصهيونية عام ١٩٤٨ كان يدينها، وأنه عندما وصف عمليات الطرد الكبيرة كان يشجبها. ولم يخطر ببالهم أن هذا الموثق الأكبر لخطايا الصهيونية يتماثل وحقائقها. وهو يفهمها ويظن أن قسماً منها كان محتوماً.
كتابه «ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين المنقحة» يصف بالتفصيل المثير للقشعريرة مظالم النكبة. يصف جرائم حرب كأنها لا شيء.
(آري شافيت، هآرتس.)

9

الحرب الأولى ... مرة أخيرة

متى تنقطع الفضيلة عن أن تكون العطر
الذي يخفي الانحلال
وتمر القرون عبثاً ولا يبدل الطاعون غير ثوبه
فليست غرناطة الأيام الأخيرة
بحاجة لأن تفهم.
إليكم عن طريقي أيها المراؤون
آراغون ـ مجنون إلسا

«هل تسامحينني يا فاطمة... أنا أبي ناتان... جئت لأعتذر منك... أنا داعية سلام».

سألته فاطمة الهواري: «على ماذا أسامحك»؟

قال أبي ناتان: «على الذي جرى في ترشيحا؟».

ماذا جرى في ترشيحا؟

يروي أبي ناتان، أنه كان يتحدث عن السلام في الشرق الأوسط،

في ندوة أقيمت في الولايات المتحدة الأميركية، معدداً محاسن السلام، وضرورة التسامح، وبناء المستقبل على ذاكرة جديدة بيضاء، تفتح الأمل للشعبين اليهودي والفلسطيني. ونهض من بين الحضور شاب من ترشيحا: «أنت تدعو إلى السلام الآن، بعدما قمت بواجبك كعسكري وقائد طائرة، فقصفت ترشيحا بالقنابل، وقتلت مدنيين وشوّهت عدداً كبيراً منهم، إنهم يحملون آثار ترشيحا في أجسادهم».
قال أبي ناتان: «أتذكر جيداً»

قال الشاب: «التذكر يختلف عن المعاناة. فاطمة البرناوي، إحدى الناجيات من قصفك لمنازل ترشيحاً، روت»:
«سقط قازان على بيوت أهل القرية، كنا مسالمين. وانهار كل شيء علينا: صوت أختي يختنق. امرأة عمي تصرخ: «النار والعة في جسمي». أنين مستمر تحت الأنقاض. لم أكن قادرة على الحركة. رجلاي عالقتان تحت حجر كبير. حاولت الصراخ، لا أدري إن سمعوني أم لا. كان كل شيء حطاماً ولم أكن أرى. ثم سمعت صوتاً من الخارج يقول: تعالوا ننقذ دار الهواري، كلهم تحت الردم... كلهم ماتوا. امرأة أخي ماتت. عمتي ماتت. جدتي العجوز ماتت. أولاد عمي الأربعة ماتوا. امرأة خالي وابنتها ماتتا. سحبونا من تحت الركام. سلمني أبي إلى خطيبي وقال له: خذ ابنة عمك إلى لبنان وعالجها هناك وأنا سأدفن الموتى. وكان خطيبي يزورني كل يوم. ثم اكتشفت أنني مشلولة، وبعد سبعة أشهر أخبروني أن والدي يبحث عني ويطلب إعادتي إلى فلسطين عن طريق الصليب الأحمر. أخبرت خطيبي، فلم يوافق، وقال له إنه لا يستطيع دخول فلسطين وطلب مني البقاء. قال إنه سيخدمني برموش عينيه لأنني زوجته بحكم الشرع».

رفضت فاطمة وأصرّت على الطلاق: «لا أريد أن أظلمك معي». فاتفقنا على الطلاق. خسرت زوجي وبيتي أقاربي وقومي... وعدت إلى فلسطين محمولة.

في ترشيحا وجدت أبي وأمي في مأتم. يعيشان في بيت جيراننا. بيتنا تهدم. وروى لي أبي: بعد ذهابك إلى بيروت. أخرجنا الموتى من تحت الردم وأخذناهم إلى المقبرة. وهناك رمونا بالقنابل. تركنا الجثث دون دفن وهربنا. وبعدما هدأ القصف، عدنا إلى المقبرة، فوجدنا الكلاب والقطط تنهش الجثث: «أكلتنا الكلاب يا بنتي».

وعشنا على حافة الجوع والموت. كنا نملك حقلي زيتون. صادروا الأرض وأعدموا شجر الزيتون. أبي مات بحسرته. وعشت أنا وأمي في شبه قن للدجاج. لم يعد لنا بيت. أمي اشتغلت خادمة في البيوت حتى ماتت. وأنا أعيش اليوم على الحسنات ورأفة بنات الجيران».

عندما سمع أبي ناتان في الولايات المتحدة قصة فاطمة البرناوي، قرر أن يبحث عنها ويزورها ليعتذر منها:
«هل تسامحيني يا فاطمة؟»
ـ «لو سامحتك يا أبي ناتان، ماذا أقول للموتى وللمطرودين من ترشيحا؟ أسامحك عندما يعودون».

لم يعرف أبي ناتان ماذا يقول. ولكنه سمع فاطمة: «لا. لن أسامحك قبل أن يعود الحق إلى أصحابه».
سيد أبي ناتان. دعنا من البكاء على الأطلال، وندب الماضي. لا توقظ ذاكرة التسامح الغائبة. لا سلام على قاعدة الغفران. نريد

حلولاً ممكنة. خطوة خطوة. أنا أقبل بسلام ولو بعد مائة عام. ولكن لنبدأ. قولوا لي من أين، وبسرعة، لأنه إذا أردنا تدمير إسرائيل، فليس أمامها إلّا أن تستمر في حربها ضد الفلسطينيين بلا أمل أبداً. أنا أفضل أن نبدأ سلاماً ما. سلاماً بالنقاط، من أوسلو، من خارطة الطريق، من الانسحاب الآحادي الجانب، من أي مكان. المهم أن نبدأ. نحن وهم. هذه الحرب المجنونة فوق الاحتمال. بلا أفق. حولت الأطفال الفلسطينيين إلى قنابل موقوتة. أظن أنه علينا أن نكف عن العواطف وإثارة الذكريات. يجب أن نبدأ كشجعان جداً لصناعة سلام ضروري وحيوي.

ما رأيك سيد برنار هنري ليفي؟
إنني لا أكتم إعجابي بك. فقد تفوقت فكراً وإبداعاً. وبالغت في حب إسرائيل، حتى شعرت أحياناً أنك خلعت عنك القلم والفكر ولبست البزة العسكرية، وتصرفت كأحد جنرالاتنا. كنتَ عسكرياً فذاً إلى جانبنا، حضرت حروبنا المشتعلة. كنتَ معنا بعد حرب الأيام الستة وفرحت لانتصاراتنا. وكنت معنا في حرب «يوم الغفران»، وشاركتنا الخوف بشجاعة عندما قصفنا صدام حسين بـ ٤١ صاروخ سكود. إننا نرى فيك عقلاً يهودياً فذاً، وقلباً يهودياً مؤمناً، وإسرائيلياً متطوعاً بلا مواربة... أنت اليوم، قيمتنا الفلسفية والإنسانية في العالم.

أنت يا سيد برنار ذخيرتنا الفكرية والسياسية في أوروبا. وشكراً لك لأنك قبلت لقب الدكتوراه الفخرية من جامعة القدس. إننا نتذكر إلى جانبك الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر، الذي رفض جائزة نوبل للآداب، وقبل بامتنان، من الجامعة نفسها، لقب دكتوراه فخرية.

إنك الآن في موضع المسؤولية المتقدمة، فمن أين نبدأ سيد برنار؟
«في مواجهة هذه الحرب الجديدة وسلاح الرجال المفخخين المنتشرين لقتل الأبرياء المدنيين وفي مواجهة هذا الحمام الدموي، الذي سال بعد قرار الفلسطينيين بإشعال الانتفاضة في العام ٢٠٠٠، أمام إسرائيل عدد من الخيارات:

١ ـ الحل العسكري الذي لا مفر منه، إذ لا تقبل دولة، أي دولة، بأن يقتل مواطنوها بهذه الطريقة من دون رد مناسب. غير أن هذا الحل العسكري ليس كافياً. ماذا ينفع تهديم الأبنية وتدمير البنى التحتية، ووزارات السلطة الفلسطينية؟ ماذا يمكن أن نحصد من قصف طائرات الـ F16 غير التأسيس لأحقاد جديدة تدفع الرجال والنساء والأطفال لقتل اليهود، معتقدين، أن هذا القتل طريقهم إلى الجنة؟

٢ ـ الحل الثاني هو السلام. فعلى الرغم من القتل والموت وأنهار الدماء، هناك من يأمل بالعودة إلى طاولة المفاوضات ولو من نقطة الصفر... إلّا أنني أنبّه إلى أن الانتفاضة المدبرة نزعت الحجاب عن الوجه الفلسطيني، عن الشركاء في صنع السلام، وبالإمكان أيضاً التنبّه إلى أن هذا الحجاب لم يكن حجاباً إلّا بسبب الحَوَل، فياسر عرفات لم يتنازل أبداً عن دوره كصلاح الدين الداعي إلى تخليص القدس من أيدي الصليبيين الجدد. فهو قارن بين التوقيع على اتفاق أوسلو وصلح الحديبية الذي أقامه محمد مع قبائل مكة، بانتظار تغير موازين القوى. إن شيئاً انكسر بعد اندلاع الانتفاضة. لقد انكشف الفلسطيني على حقيقته».

وتابع ليفي: «من السذاجة أن نؤمن أن المدافع ستحل المشكلة ومن

السذاجة أكثر أن نؤمن بأن فيض الكلام الجميل عن السلام سيكون الحل».

تعجبني واقعيتك الخالية من العواطف والانفعالات، سيد ليفي. قتلتنا المشاعر. إن الخلاص من الواقع الذي نحيا لا يتم إلّا بالفكر. حجم المشاعر والانفعالات المتناقضة والموروثة والمشبعة بالآلام، يعطل أي محاولة للسلام. سيدي، إنك تخيط الواقع بنسيج عقلي بارد. لكنني، مع الاعتذار الشديد منك، لم أفهم، فإذا كان السلاح ليس حلاً، والدعوة إلى السلام هي عبث، فمن أين نبتدع حلاً ثالثاً؟

«بل هناك حل ثالث».

وطفق برنارد هنري ليفي يشرح باستفاضة إمكانية الاستفادة من نتائج الحرب الإسرائيلية التي دمرت المؤسسات الفلسطينية ووضعت القيادة في الأسر وألزمتها بالركوع على قدميها. واقترح خطة من ثلاث مراحل، تقطع مع الدبلوماسية الإسرائيلية العجوز، وتلغي الشعار البيغائي «الاعتراف المتبادل»:

أ ـ لقاء سريع مع من تبقى من السلطة الفلسطينية.

ب ـ الدعوة إلى مؤتمر دولي تحضره الولايات المتحدة الأميركية وأوروبا والدول العربية المعتدلة، لتكون الضامن للحل المقترح.

جـ ـ الانسحاب من الضفة والقطاع وبعض المستوطنات غير الملاصقة لإسرائيل وإعطاء الفلسطينيين دولة قابلة للحياة، وهكذا تكون إسرائيل الراعية المولدة والأم الحامية لهذه الدولة، ضمن حدود معترف بها.

هذه الدولة الفلسطينية تستطيع أن تكون الضامن الحقيقي لإسرائيل، فحدود إسرائيل التي سيعترف بها دولياً وعربياً، تنهي حتماً، مواجهة جيش الدفاع الإسرائيلي لشباب نصف مدنيين ونصف عسكريين.

تستعيد إسرائيل هيبتها كدولة قوية، وبعد ذلك، تصبح علاقات السلام والحرب خاضعة للمنطق الأزلي الذي حكم البشرية.

سيد ليفي، أظن أن هذا الحل واقعي وغير ممكن. إشكالي جداً. إنك تبني سلام اللحظة، بخطوات كبيرة. أنا مع الاستفادة من الأمر الواقع المفروض كما تقترح، فعرض سلام مرحلي قوي يقود إلى محطة سلام دائم أقوى. إنما... إنما... إنما حق العودة، القدس إلى آخره.

أنا ضد حق العودة للفلسطينيين يا بني. لأن العودة تدمر إسرائيل. هذا الحق ألد أعداء إسرائيل. وأنا ضد الدولة الثنائية القومية. ولا أتخيل إقامتها، لأنها أيضاً تدمر دولة اليهود. إن القبول بأحد هذين الطرحين سيؤدي إلى قيام دولتين فلسطينيتين. أي واحدة عندهم لهم، وواحدة عندنا، لنا ولهم.

و«كنتيجة لهذا الرفض، يجب إطلاق الحكم بإعدام عرفات عبر إلزامه بالسلام... ويلزم أيضاً رجال دولة. يلزمنا سادات يهودي وبيغن جديد. يلزمنا الإيمان بالقيم اليهودية التي كانت الدافع للانتصارات الإسرائيلية».

إنك بالعقل سيد ب.هـ.ل جنرال إسرائيلي بتفوق، سأختصر وأوضح: بما أن الفلسطيني يجثو على قدميه الآن، فلنسارع إلى إعطائه الفتات من الأرض مقابل حماية حدودنا وأمننا. أي، علينا أن نطلق عليه حكم الإعدام، بإلزامه بالسلام الذي نخيطه له نحن.

هل تظن أن ذلك ممكن؟ من تتوقع أن يكون الفلسطيني الذي

سندعوه للجلوس معنا إلى طاولة التفاوض؟ إنك تفترض قائداً يناسبنا. قائداً على قياس مشروعنا. يقبل ما نقدمه له، انطلاقاً من كونه يجثو على قدميه. ألم يجثُ هذا الشعب على قدميه في النكبة؟ ألم يتشرد، ويقتل ويقتلع؟ ومع ذلك، ها هو اليوم بعد خمسين عاماً، يحمل بنادقه تحت نوافذ مستوطناتنا. هل تظن أن ما رفضه الفلسطينيون في كامب ديفيد، وعرض باراك السخي، سيقبلونه اليوم؟ إن إسرائيل كيان فريد في العالم، لم يخضع لمنطق سياسي متعارف عليه. والانتفاضة الفلسطينية فريدة أيضاً. إنها تستمد من العدم وجودها. حجارة يا سيد ب.هـ.ل. أطفال يا صديقي الجنرال. نساء يتمنين أن لا تنجب أرحامهن غير الشهداء. بيوت تكتظ فيها صور من قتلناهم، ويطالبون بالمزيد. تركنا لهم سلطة مهلهلة معتقلة، وها هم يقفون على أقدامهم. لم نتمكن من اعتقال عرفات المحاصر.

ألا ترى أن هذا الوضع سوريالي. عرفات لم يستسلم، يخطب في شعبه جملة واحدة لا أفهم معناها، ولكنهم يفهمون مضمونها. «مرابطون إلى يوم الدين.. شعب الجبارين.. وعاصمتنا القدس الشريف». إنه عجوز متعب وفي حالة من التلف ولا يملك أكثر من غرفة نومه، ومن ممر لاجتماعاته، ويقف في وجه إسرائيل. إنه يقول لا فقط. بعدما كان يقول لعم. أي نعم ولا.

سيد ب.هـ.ل. إنك متفائل جداً بهذا الطرح. قد نجد الكثير من السادات اليهود بين الأنظمة العربية. ويصعب أن تجد قائداً فلسطينياً يهودياً. إنك تطلب المستحيل. تطلب أن يكون القائد الفلسطيني عميلاً لنا بالتبني. هذا وهْم.

هل من حل آخر؟
الروائي الإسرائيلي أبراهام يهوشوا يدافع عن حلّه المؤقت بحماسة. وقد دفعته هذه الحماسة إلى المشاركة في ندوة «لنتخيل السلام» في باريس، إلى جانب عدد كبير من النخب العسكرية العالمية:

ـ الحل؛ بناء الجدار. إقامة الحاجز بين إسرائيل والضفة، لمنع تسلل الإرهابيين إلى إسرائيل. إن إرهابياً واحداً يسبب ضحايا أكثر مما تسببت به صواريخ صدام حسين.
سيد أبراهام، ألا يشبه اقتراحك هذا، الحل الذي قدمه بني موريس: يجب وضع الفلسطينيين في قفص، لأنهم برابرة ومجرمون! ألا يعني ذلك نصب جدار أمام حل مستقبلي؟

ـ بكل أسف يا بني. الفلسطينيون والعالم العربي، ليسوا مستعدين بعد لإقفال هذا الصراع الذي بدأ من ١٢٠ سنة. إن العالم العربي يعيش اليوم نشوة اللاسامية، ويرفض إعطاء الشرعية للمشروع الصهيوني. إن الحل الجذري النهائي (أي السلام) والذي اعتقدنا أنه قريب المنال، ابتعد بطريقة درامية وخلّف واقعاً من دمار وقتل وشكوك ولامبالاة وأحقاد ورغبات فظة بالانتقام.

إذا كنا سيد أبراهام نبحث عن حل مؤقت لنا ولهم، فإن سنوات ما بعد أوسلو، التي وضعت خطة مرحلية للسلام بين الشعبين قد فشلت في التفاصيل الكثيرة، حيث اضطر الطرفان إلى بحث مضنٍ وطويل ولا ينتهي حول كل تفصيل. عدد حفلات التوقيع في العواصم لا يعد. وكان كل توقيع يحتاج إلى مفاوضات بعده، للتنفيذ المؤجل. من المسؤول؟

يا بني، لا. المشكلة لم تكن في التفاصيل فقط. إن الفشل الدرامي والعنيف لم يكن بسبب رفض إسرائيل لحق عودة الفلسطينيين إلى إسرائيل. في عمق المشكلة، الفلسطيني رفض رفضاً تاماً القبول بالدولة اليهودية، وإقفال باب الصراع نهائياً كما اقترح يومذاك إيهود باراك. بعد الفشل، اندفع الفلسطينيون فقاموا بأعمال عنف لا عقلانية وانتحارية واستدعت رداً عسكرياً يدعو إلى اليأس.
إن الحل الذي اقترحه هو حل مؤقت، ويمكن أن يحصل انسحاب من طرف واحد، من مناطق محتلة وإخلاء مستوطنات نائية.
وكيف تحل مشكلة القدس سيد أبراهام؟ هل تبني جداراً بين أحيائها؟

«لا، هذا غير قابل للتحقيق وغير مرغوب فيه. ولكن لا بد من إعطاء الفلسطينيين فيها حقوقهم المدنية فقط. هذا بانتظار الحل النهائي. أكرر: لا بد من جدار فصل بيننا. إن الحل المطلوب هو الحل المؤقت وليس يوتوبيا السلام».

لنفرض سيد أبراهام أن الجدار قد اكتمل، وأن الخندق في رفح قد أنشىء بالتمام والكمال. فهل هذا سيمنع الفلسطيني من عبوره مجدداً، والحفر تحته؟ لنترك العالم يصيح ضدنا، وضد الجدار. حسناً لنترك الألسنة تلوك سمعة إسرائيل الأخلاقية. نريد أمننا أولاً، ثم نبحث عن جنس الملائكة. إنما... إنما... إنما لست أصدق أن جداراً أو خندقاً سيمنع الفلسطيني من المقاومة. والتجربة أثبتت أن الركون إلى الأسوار والجدران والخنادق يعطي أماناً مؤقتاً مزيفاً واطمئناناً مشوباً بالخوف. ألم يسقط خط بارليف العظيم في ساعات أمام الجيش المصري، فانكشفت قواتنا في صحراء سيناء؟ هل تتذكر خط ماجينو الذي انهار كعجينة المعكرونة اليابسة؟ سيدي، إن لم يقدّم

للفلسطيني ما يرضيه، فلن يكون لنا أمن. الانسحاب المنقوص، لقمة مُرّة تصد شهيته عن ابتلاع الوجبة الشائكة... سيقاتلنا بأظافره وعينيه، إلى أن تحين ساعة أخرى، يقاتلنا فيها بدمه. لستُ عدمياً أبداً. ولا أضع صعوبات أمام الحلول المقترحة، وليت أحد هذه الحلول، ممكناً.
إنني بصدد اتخاذ قرار شخصي، يحميني من الموت، وقرار آخر يحمي إسرائيل من الزوال في مستقبل ما.

لنفترض أن الفلسطيني قتل السلام في كامب ديفيد، فما هو البديل غير معاقبته وقتله ليعود مجدداً ويطرح شروطه فنرفضها، ونطرح رؤيتنا فيرفضها؟ أخرجونا من هذه الحلقة المفرغة.

تانيا رينهارت التي تتصيد أخطاء إسرائيل، لا توافق بالطبع على ما جاء به برنار هنري ليفي، وتنفي أن يكون باراك قد قدم عرضاً سخياً لعرفات. هذا العرض، لم يكن إلّا خدعة إعلامية. القيادة الإسرائيلية قتلت السلام. والآن، لا سلام في الأفق. شارون قبل أن يتولى رئاسة الحكومة قال: «لن نكمل أوسلو. لم يعد هناك أوسلو. أوسلو انتهى». إن باراك لم يقدم شيئاً في كامب ديفيد، ولم نكن قريبين من السلام العادل والشامل في محادثات طابا. لا. لم يكن لدينا أبداً رغبة في تقسيم القدس. باراك وشارون ليسا خصمين. باراك تلميذ معجب بشارون. في العمق، رؤيتهما السياسية واحدة. هل كنا نكذب إذاً؟

اسمعني جيداً:
«في مواجهة الانتفاضة، يتخاصم القطبان السياسيان من جديد، القطب الأول الذي بدا أنه المنتصر في أوسلو، يسعى لإقامة نظام

عنصري تحت ستار المفاوضات الأبدية. هذا هو الطريق الذي يؤمن بسلوكه يوسي بيلين و«الحمائم». القطب الثاني، أي قطب الجنرالات مثل باراك وشارون، يريد تدمير فلسطين لإنهاء حرب العام ١٩٤٨ بواسطة تطهير عنصري وترانسفير كثيف للسكان».

ما هذا التحليل العدمي؟ إنك يا سيدة رينهارت تذهبين بعيداً جداً. لنعد إلى قواعدنا سالمين. هل هناك خطوة نحو السلام لوقف هذا العنف أم لا؟ هذا كل ما أطمح إليه الآن. إذا كنا غير قادرين على صناعة سلام كامل وشامل وثابت وعادل، فلنعمل لصناعة لبنة أولى من أجل هذا السلام. أما إذا كنا عاجزين عن صناعة المستقبل، وعاجزين عن معرفة مدى خطواتنا في الحاضر، فمعنى ذلك أننا سنبقى نتبادل القبور هدايا، وهذا مميت، لأنه لن يفضي إلى حل. لن نهزمهم، لن يهزمونا. لن نطردهم ولن يطردونا. يلزم أن نجد جملة وحيدة مفيدة نبدأ منها نصاً للسلام.

قاطعني المؤرخ دنيس شاربيت، وهو اختصاصي في التاريخ الصهيوني والأستاذ في جامعة تل أبيب: يا بني، لا تستعجل الأمور، لعلك إذا عدت إلى جابوتنسكي عرفت مقدار الصعوبة. ما تطلبه عظيم ومفهوم. إنما.... السلام صناعة أطراف، وليس نسيج طرف واحد، والطرفان في حالة عداء.

قلت: إذاً، برنار هنري ليفي ليس محقاً في تحميل العرب والفلسطينيين مسؤولية فشل مشروع السلام في أوسلو وما بعده وفي كامب ديفيد، لأن الوجه الفلسطيني نقيض الوجه الإسرائيلي كلياً.
قالت ثانيا: بل إن مسؤولية الفشل تقع علينا.

استأذن شاربيت ليوضح حالة العداء القائمة: إن السلام ينشأ بين أعداء. فما نوع العداء القائم بيننا كيهود وبين العرب والفلسطينيين؟

يقول جابوتنسكى إن العدوانية العربية ليست بنت تعصب عربى. وليست نتيجة روح حربية تولدت لديهم. فالمقاومة العربية لم تدهشه ولم تفاجئه، إذ ماذا يمكن أن يواجه المشروع الصهيوني غير المقاومة.

إن شاربيت يشرح ولا يؤيد. ولكنه يضيء طريق الفهم لهذا العداء المرير: إن الفلسطينيين هم سكان الأرض الأصليون، وهم مقتنعون بأن لهم حقوقاً طبيعية ويتساءلون:
هؤلاء اليهود القادمون من أوروبا أليسوا غرباء؟ إننا لم نكتشف ولن نكتشف أبداً، طريقة استقبال هادئة وكريمة من أي جماعة، لأعداد من المهاجرين يستوطنون في أرضهم حاملين معهم ثقافتهم وديانتهم وعاداتهم. إننا لم نشاهد أبداً سكاناً أصليين يرحلون طوعاً لأن جماعة حلّت في أرضهم. العرب ليسوا ملائكة ولا شياطين. إنهم مثل كل الأمم سيلجأون إلى كل وسائل المقاومة، فكيف إذا كان المهاجرون القادمون هم من اليهود، وقد جاؤوا ليحلوا مكانهم ولإقامة دولة لهم؟.

لا شيء، كما يقول جابوتنسكي، يعدل أو يلغي هذا القانون الإنساني. المقاومة أسلوب يتبعه شعب متحضر أو شعب في حالة بدائية. لا علاقة للحضارة بالمقاومة.

جابوتنسكي كان مقتنعاً أن كل الحجج التي سنقدمها غير مقنعة لأي عربي. كل الحجج والتبريرات الخاصة بتبني المشروع الصهيوني وتفهّمه ستكون مرفوضة. فلا وعود الخيرات التي ستغدقها دولة

إسرائيل العتيدة على العرب، ولا العودة المدعومة بالوعد الإلهي ولا العلاقة الحميمة بين الديانات التوحيدية، ولا حجة الأراضي العربية الشاسعة المفروض أن يقيم فيها الفلسطينيون ستكون مقبولة. نستطيع أن نشرح ونشرح ونشرح والنتيجة واحدة: الرفض الدائم.

«تريد أن تؤكد أن عداء الفلسطيني للمشروع الصهيوني كان شرعياً، لأن التاريخ أثبت أن لا احتلال بالحسنى، ولا إقامة بالتراضي، وبما أن المشروع الصهيوني شرعي أيضاً، لأنه يجمع يهود العالم في دولة، وكان يجب أن تكون الدولة هنا، فإن الصدام والعداء شرعيان».

حسناً، ونتيجة لهذا الوصف الدقيق، ليس أمامنا إلّا أن ننتصر عليهم، ونفرض عليهم شروطنا. المشكلة سيد شاريت، أن جابوتنسكي لم يعش ليسجل انتصاراتنا الكثيرة على العرب والفلسطينيين، ولم ير اليوم الذي كنا نفرض فيه شروط السلام بالقوة. إنه يبشرنا بأن الحل معدوم، علماً أن جهوداً كثيرة بذلت بعد أوسلو وفي كامب ديفيد وطابا. كنت أظن أن بنادق الفلسطينيين قابلة للانتحار.

روت تانيا رينهارت تفاؤلها المحبط: كان السلام ممكناً. العداء ليس قدراً.

«رأينا صقور منظمة التحرير يسلمون سلاحهم، على مرأى من التلفزيون الإسرائيلي كأنهم استبدلوا الطلقات بالتوقيع، كانوا يتحدثون عن زمن جديد، هو زمن السلام والعيش معاً جنباً إلى جنب. كنا نشعر أن هناك صفحة ستطوى وأن الماضي بات طيّ الغفران»... «بعد شهرين من توقيع الاتفاق في أوسلو. كثير من

الإسرائيليين ظن بأننا في الطريق إلى تفكيك المستوطنات، فارتفعت أسعار البيوت في إسرائيل بشكل جنوني، استعداداً لاستقبال المستوطنين العائدين، كانت استطلاعات الرأي تشير يومذاك إلى نسبة الثلثين المؤيدين لاتفاقات أوسلو».

لكن الأمور لم تسر بشكل ملائم... فبعد سبعة أعوام، كانت أوضاع الفلسطينيين أسوأ بما لا يطاق. تصوروا غزة: مليون مقيم من الفلسطينيين في قطاع يشهد ازدحاماً سكانياً هو الأعلى في العالم بأسره والأكثر فقراً أيضاً. لا شبيه له في مجاهل في العالم. إنهم تقريباً يعيشون من دون ماء، ومن دون موارد طبيعية. ومع ذلك أصرّت إسرائيل على عدم إخلاء أي مستوطنة من غزة خلال الفترة الانتقالية المحددة بخمس سنوات. لم تكن هذه رغبة المستوطنين الراغبين في معظمهم بالعودة إلى إسرائيل. رابين كان يرفض إخلاء هذه المستوطنات.

ماذا حصل في الضفة؟ ضاعفت إسرائيل عدد المستوطنات وعدد المستوطنين، علماً أن نص الاتفاق في أوسلو، يحظر على الطرفين القيام بأي تعديل على الأرض، قبل بلوغ مرحلة التفاوض النهائية. قامت إسرائيل بخنق القدس بسلسلة من المستعمرات، وأقامت جداراً عازلاً من المستوطنين حولها، بحيث بلغ العدد، قبل الانتفاضة، حوالى ربع مليون، في حين لم يكن تعدادهم قبل اتفاق أوسلو، سوى عشرات الآلاف.

وتصرّ تانيا رينهارت على رأيها، بأن التفاوض مع الفلسطيني في أوسلو كان استكمالاً للاحتلال بدون كلفة. أي التفاوض من دون مفاوض. إملاءات إسرائيلية على عرفات يرفضها ثم يقبلها. إلى أن

وصلت هذه السكة من التفاوض إلى لحظة الإملاء، بواسطة الإنذار: إما أن تقبل بما يقدم لك، أو الحرب إلى ما لا نهاية. وهذا ما حصل عليه الفلسطينيون بعد كامب ديفيد، والزيارة المدبرة لآرييل شارون إلى باحة المسجد الأقصى.

في كامب ديفيد، قصفت إسرائيل الفلسطينيين إعلامياً، ودمرت سمعتهم السلمية، وأبرزت إرادتهم كأداة لتدمير إسرائيل، ولذلك لم يقبلوا العرض السخي الذي قدمه باراك بالتعاطف مع الرئيس الأميركي بيل كلينتون. والحقيقة أن عرفات تنازل كثيراً وقبل أموراً لم يكن بإمكان سواه قبولها، ومع ذلك، فقد اتُهم بأنه ذاهب إلى الحرب... فعلينا أن نعاقبه باللغة التي يفهمها.

تتحمس تانيا رينهارت: روبرت مالي كان مستشارا للرئيس كلينتون للشؤون الإسرائيلية ـ العربية وشارك في المفاوضات. وتأخر شهوراً ليفصح عن الحقيقة. لم يقتل الفلسطينيون السلام، بل إسرائيل. فقد كتب في «نيويورك تايمز» وفي «هآرتس» في ١٥ تموز/ يوليو عام ٢٠٠١ ما يلي:

«كثيرون ظنوا أن الرفض الفلسطيني لحلول كامب ديفيد ناتج عن رفض مضمر لحق إسرائيل بالوجود. ولكن، فلنعد إلى الوقائع: الفلسطينيون كانوا يطالبون بدولة في حدود الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧ جنباً إلى جنب مع إسرائيل. قبلوا فكرة ضم إسرائيل الأراضي التي نشأت عليها المستوطنات المحاذية. قبلوا مبدأ السيادة الإسرائيلية على الأحياء اليهودية في القدس، وهذه لم تكن ضمن أراضي الـ ٦٧ تابعة لإسرائيل. وإذا كانوا قد أصرّوا على حق العودة للاجئين، فقد وافقوا على أن تطبيق هذا المبدأ يجب أن يحافظ على

التفوق الديموغرافي اليهودي وأمن إسرائيل، عبر تحديد عدد العائدين. لا يوجد أي طرف عربي فاوض من قبل مع الإسرائيليين، لا السادات ولا حسين، ولا حافظ الأسد طبعاً، ذهب لمواجهة هذا الاتفاق وحيداً».

تضيف تانيا رينهارت: لقد قدم الفلسطينيون في التسوية المفترضة، ٧٨٪ من أرضهم التي عاشوا فيها مقابل لا شيء، وقبلوا بنسبة ٢٢٪، ومع ذلك، فإن إسرائيل تريد أن تقتطع من هذه القلة القليلة من الأرض، أراضي لها. إن تضحيات الفلسطينيين ليست كافية. لعله كان يجب عليهم، كي تحصل صفقة السلام، أن يقدموا كل شيء.

«ماذا قدم باراك لهم؟ لا أحد يعرف. ليس هناك مستشار واحد، استطاع أن يقول لنا. وبعد أعوام، ماذا كانت هدية باراك؟ لم يفصح عنها حتى للأميركيين. كان يصرّ على ما يلي: إما أن تقبلوا بما أعطيكم أو أن تتركوه وتتحملوا المسؤولية. ماذا قدم؟ لا شيء. ليس هناك نص مكتوب. وعندما حصل اتفاق شبه مكتوب في طابا، لم يجرؤ باراك على قبوله».

وهكذا اتُّهم الفلسطيني بأنه معادٍ للسلام، ووجب تدميره. رجاء اقرأوا ما كتبته جوس راي ودنيس شيفرت في: «حرب إسرائيل الإعلامية».

إن الكلمات تقتل. هكذا تمَّ اغتيال الفلسطيني، وحُمِّل تبعات الفشل. لا تصدقوا كلينتون والمثقفين والكتّاب والإعلاميين الذين

رددوا ما قاله كلينتون. لا تصدقوا آلان فانكيلكروت الذي سارع إلى تبني مقولة الهدية المرفوضة. ولا تصدقوا بيار أندريه تاغييف ولا جان ماري كولومباني الذي أخذته الدعاية فاستنتج بأن عرفات قرر أن ينتخب لصالح شارون. لا تصدقوا برنارد غيتا. لقد ذهب صوت روبرت مالي في صحراء الدعاية الإسرائيلية والإعلام التابع له. وهكذا أضعنا فرصة السلام.

هل تريدون أن تعرفوا ماذا كان يريد باراك وماذا كان يبغي شارون؟ تدمير فلسطين نهائياً. أي، استكمال حرب العام ١٩٤٨.

التهمة: الإرهاب.
اسمعوا أيها السادة، ما كتبه دافيد غروسمان في «هآرتس» (٦ك٢ ٢٠٠٢) رداً على التهمة التي وزعها العالم عن الفلسطينيين، عندما ضبطت الباخرة المحملة بالسلاح واتهم عرفات بها: «ما البرهان الذي تقدمه باخرة السلاح؟ البرهان، أنك إذا احتللت شعباً وقمعته، إذا أهنت زعماءه، إذا عذّبت وقمعت شعبه، إذا لم تقدم له أي بصيص أمل، فإن هذا الشعب سيلجأ إلى أي طريقة لإسماع صوته. ونحن، هل تصرفنا بشكل مشابه لما يقوم به الفلسطينيون؟ أما كنا نشبههم عندما تعرضنا للاحتلال؟ افشالون فينبرغ ويوسف ليشانسكي ذهبا إلى القاهرة لاستجلاب المال لتمويل المنظمة السرية نيلي (NILI)، كي تواجه الجماعة اليهودية في فلسطين السلطات التركية. كتائب «الهاغاناه»، القوات السرية «لليحي» و«اتزل» جمعت وخبأت كمّاً كبيراً من الأسلحة، وهم يعاملون عندنا كأنهم أبطال الحرية. عندما نقوم (نحن) بمثل هذه الأعمال، لا نسميها إرهاباً. إنه نضال شعوب بطريقة شرعية لبلوغ الحرية والاستمرار في الحياة. وعندما يقومون (هم) أي الفلسطينيون، بمثل ما قمنا به

سابقاً، نسميهم إرهابيين. هذا ما حاولنا (نحن) البرهنة عليه منذ سنوات».

هل تريدون أن تعرفوا كيف كانت تتصرف إسرائيل عندما كانت الطريق إلى السلام معبّدة بالنوايا المتفائلة؟

الصحافية الشجاعة أميره هاس، صاحبة كتاب: (Boire la mer à Gaza) رسمت صورة الوقائع التي كانت تكرسها إسرائيل، في ظل مفاوضات المائة عام. كل ما قامت به إسرائيل، كان لكسب الأرض، ومصادرتها، وتعميق الهوة مع الفلسطينيين. فبعد كل مصافحة وكل توقيع، كانت المجنزرات والمصادرات والقمع والإغلاق تنشط بسرعة مذهلة. وبينما كانت مفاوضات السلام تسير كالسلحفاة، كان المجتمع الفلسطيني يسير بسرعة إلى الكارثة. استمر الاحتلال. القوات الإسرائيلية خرجت من من المدن إلى المدن. الإقفال تضاعف عشرات المرات. رخص العبور تقلصت. منع التجول ازداد. بارت الحقول. توقفت الصناعة. ازداد عدد العاطلين عن العمل.

كان الاحتلال خطيئة مميتة لا تغتفر في نظر الفلسطيني، فباتت مفاوضات السلام كفراً وارتكاباً للكبائر.

ترسم أميره هاس الصورة التالية: «إنه من الطبيعي أن يخضع ٤٠ ألف فلسطيني في الخليل لمنع التجول لمدة شهر كامل، وذلك لحماية ٥٠٠ يهودي. إنه من الطبيعي أن لا يتحدث أحد في إسرائيل عن هذا الأمر وأن لا يعرف به أحد. إنه لمن الطبيعي أيضاً، أن تقفل ٣٤ مدرسة، يؤمها آلاف التلامذة الفلسطينيين، لمدة شهر كامل، وأن يبقى الفلسطينيون في منازلهم المكتظة، فيما جيرانهم التلامذة

اليهود، أحرار في التنزه والتجول في الشوارع وسط مجموعات من الجنود الإسرائيليين. إنه لمن الطبيعي أن تقف أم فلسطينية على حاجز إسرائيلي تتوسل جندياً كي يسمح لها بشراء دواء لابنها المصاب بالربو، أو لشراء خبز لعائلتها» («هآرتس» أول تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٠).

لو تعرفون ماذا كان يدبر جنرالات الجيش للقرى والبلدات المتاخمة للقدس ولإسرائيل. اسمعوا الكولونيل رعنان غيسن الناطق باسم جيش الدفاع الإسرائيلي: «بيت جالا وبيت ساحور وقرى أخرى (فلسطينية) ستتحول إلى بيروت أخرى». وهكذا، قصفت تلك البلدات الجميلة. دمّرت، هجّر أهلها. تحولت أحياء بيت جالا الشمالية الغربية إلى مدينة أشباح. بيت جالا السياحية تشبه سارايفو، هكذا رأتها بيغال سارينا، ورسمتها بالكلمات في «يديعوت أحرونوت». رأت أن المدينة في طريقها إلى التدمير الكامل. «لقد أكد لي الجنرال أن بيت جالا ستمحى من الجغرافيا». تماماً، كما رأينا مجازر يوغوسلافيا. ويترافق كل ذلك، مع حملة إعلامية تحول الضحية إلى مذنب ومجرم وإرهابي.

أقف على منصة منهارة. أقول: إنك متعبة يا تانيا رينهارت. إنك تدمرين كل الآمال. تضعين اللوم على إسرائيل وحكوماتها. اليمين واليسار مذنبان. أنا لا أصدق أن رابين لم يكن مخلصاً. لقد دفع حياته ثمناً. وربما، كما تقولين، كان الفلسطيني مؤمناً بالسلام. إلّا أن الأمور فوق طاقة الإسرائيلي والفلسطيني وفوق قدرتهما على إيجاد الحل. ربما لم يجرؤا. إما أن يكون لدى الفلسطيني مخطط مرسوم لتدمير إسرائيل على مراحل، كما يقول برنار هنري ليفي. أو أن يكون لدى الإسرائيلي نية مبيّتة، كما تقولين ويقول آخرون مثل

آلان غريش. إن ذلك يضعني على حافة الانهيار.

ـ بلى... إننا، كإسرائيليين، نكمل الشوط الثاني من اللعبة الدامية التي بدأت عام ١٩٤٨. «إنها حرب استقلال مرة أخرى». لقد أقنعت إسرائيل مواطنيها بماكينتها الإعلامية، المحلية والعالمية، بأن إسرائيل محاصرة. حتى زئيف شيف صدّق هذه الكذبة، وأفحمها تحليلاً في «هآرتس».

ألم تسمع ما قاله ميرون بنفنستي: «الحرب الإسرائيلية ـ الفلسطينية باتت قصة حرب لم تنته، لأولئك الذين لم ينهوا حرب العام ١٩٤٨».

تذكروا شارون الجديد. عام ٢٠٠١ ليس شارون صبرا وشاتيلا، بل شارون الاستقلال: «إن حرب الاستقلال لم تنته. عام ١٩٤٨، كان فصلاً فقط. إذا كنتم تسألونني إن كانت دولة إسرائيل قادرة أن تدافع عن نفسها، أقول بشكل قاطع: نعم. ولكن، هل نعيش نحن بأمان؟ لا. لذلك، لا نستطيع القول، بأننا أنهينا عملنا».

هذا ما قاله شارون لآري شافيت في مجلة «هآرتس» عام ٢٠٠١. وهذا ما ردده أيضاً الميجور جنرال موشي أيالون: «إنها المعركة الأكثر أهمية ضد الفلسطينيين، بمن فيهم الفلسطينيون في إسرائيل».

هل تريدون أن تعرفوا جيداً صورة الواقع الفلسطيني اليوم.
الأرقام خرساء. أكثر من ٢٥٠٠ قتيل. إلّا أن الأهم هو النزف اليومي. لقد تحولت فلسطين المحتلة إلى جنازة. عدد الجرحى، لا مثيل له؛ عشرات آلاف الجرحى. السجناء السياسيون؛ إننا ضربنا

الرقم القياسي. الزراعات اختنقت. الأراضي تمزّقت. المجتمع بكامله يتهالك.. وليس صحيحاً أنه يصمد فقط. فقد بدأت الهجرة.

إليكم الأرقام: إبان مفاوضات السلام هجّر أكثر من ١٥٠ ألف فلسطيني ـ وفق ما ذكرته «جيروزاليم بوست». النخب تهاجر، ومجتمع تهاجره النخب الثقافية والإعلامية يسهل طرد سكانه من دون ضجيج. مهمة شارون أن يضع الفلسطينيين في الضفة في معازل غير قابلة للحياة.

سأنقل إليكم ما سجله مصطفى البرغوتي: «إن المجتمع الفلسطيني على حافة مأساة إنسانية. ٣,٢ مليون إنسان تحت حصار هو الأطول في تاريخ البشرية. الأهالي ما عادوا يستطيعون الانتقال. النتاج الزراعي ينفق على الطرق. مدن وقرى بأكملها تحت قرار حظر التحول لمدة ٢٤ ساعة. من الليل إلى الليل. القوات المدرعة الإسرائيلية تقفل الطرقات. النفايات تتراكم ولا إمكانية لجمعها. الحالة الصحية مخزية. الذين يحتاجون إلى غسيل الكلى في خطر. المصابون بالسرطان يواجهون موتهم بسبب انعدام العلاج الكيميائي. مئات يموتون على الطرق بسبب رفض الإسرائيليين السماح لهم بتلقّي العناية في المستشفيات. الجيش الإسرائيلي ينزع من البيوت أهلها المدنيين ويقيم فيها... إننا نأمل منكم الاتصال بالمراجع العليا العالمية لأن هذه الحالة يمكن أن تتسبب بكارثة إنسانية».

ماذا أقول؟

لقد تعبت منكم. لقد أقفلتم بوجهي المعابر. أطفأتم البصيص. لا ضوء في هذه العتمة. نحن مسؤولون عن هذه الكارثة البشرية. لا وجود لحالة تشبه حالتنا. ولذلك، لا حل برنار هنري ليفي قابل

للحياة ـ إنه شنيع جداً وليس على المستوى الأخلاقي، بل على المستوى السياسي. وأظن، أنه يفتح في الجرح المقيم جراحاً مستقبلية ـ ولا منطق جابوتنسكي القديم يفتح باباً للسيطرة على كل فلسطين. فالعالم تغير كثيراً، وإن كان العداء الفلسطيني للمشروع الصهيوني مشروعاً، فالسلام بدعة جميلة للتخلص من عداء قبيح. ليس المطلوب أن نحبهم ويحبونا. وليست تانيا رينهارت، مؤرخة الفشل الإسرائيلي، تغيرني. فإن كان صحيحاً أن القيادات الإسرائيلية تراهن على كسب حرب العام ١٩٤٨ في القرن العشرين، وتسعى إلى تكريس احتلالها بواسطة فلسطينيين يشبهوننا، فإن إسرائيل ليست كل اليهود فيها، إذ هناك من يؤمن بالسلام ويريد أن ينجح. وإن كان الفلسطيني يطمع للحفاظ على ٢٢٪، والقدس العربية الأحياء والمسجد الأقصى، وحق العودة، ولا يريد أن يكون وطنه ملحقاً عربياً بدولة عبرية، فإن الحلول الوسطى مطلوبة. فلا سلام يرضي الطرفين... ولا تفيدني بساطة وشفقة أبي ناتان البدائية والمسرحية، ولا ينفعني أن أرى الجدار يرتفع أمام المستقبل بتوقيع أبراهام يهوشوا.

بكل أسف... أفسحوا الطريق للصمت. يلزمني جرعات من الهدوء. سأنام على أمل أن أعيد ترتيب أفكاري... سأبحث وحدي عن مخرج لي... ولمن يشبهني... الآن... وبعده بكثير.
سأكون وحدي بعد الآن... وحيداً سأفكر:

10

الديموقراطية الميتة

أقسمت يا أمير على التوراة
والصليب والقرآن
أنك إذا انتصر سيدي
تفتح غرناطة وتقول خذ
الحمراء وجنات العريف
هل أعد لك المدن
وقد تهاوت واحدة واحدة عن الشجرة
المرية وكذاك إشبيلية
وانحنت ملقة تحت نيري
وفي يدي قادش وبازا
وقد حالتا خراباً ورمادا
أريد الحمراء
وأنت تعرف أني أستطيع
أن أمسح غرناطة كاسم
آتيها بالموت والحديد
لأني أملك سلاح المقاومة
آراغون ـ مجنون إلسا

أنا الآن كائن معلق. لم أصل إلى أي أين. لست أعرف أين أضع قدمي. خضت نقاشاً فوضوياً يشبه حالتنا الدادائية. ليس في الحوار جملة هادئة. سقطت في السفسطة والنزق. رأسي يدور، أو يترنح، مرة يميل إلى اليمين ومرة يتواطأ مع اليسار. كنت النقيض وضده. كنت صهيونياً حتى الرمق الأخير، متطرفاً حتى الجريمة، ثم كنت صهيونياً مرتدّاً. ثم... «سأخون الصهيونية». تورطت في التعاطف مع الفلسطيني، ثم، عبثاً أقمت ضده براهين فظيعة لتأكيد بشاعته وبربريته. أشفقت على معاناته، ووجدت نفسي أنقله من حبل النجاة إلى حبل المشنقة. كالبهلوان كنت. أرقص على حبال الألم والوجع. أفتش عن مطرح لا تنزلق فيه قدمي. وكنت أقع دائماً. مرة أيدت الانسحاب من الأراضي المحتلة، ومرة أيدت البقاء فيها، لأنها وطني. مرة كنت مع دولة فلسطينية، معادية أو شقيقة، سيان، ومرة كنت ضدها. كنت إسرائيلياً بصيغة الجمع. أشبه يهود إسرائيل الممزقين بين آراء وأفكار وعقائد وعبث وحزن ويأس وقنوط وأنفاق حلزونية تنحدر إلى الدم.

أنا الآن كائن معلق، موزع الروح. أعتذر لأن خوفي لا خوف يفوقه. اشمئزازي لا أجد له أسباباً تخفيفية. إنه اشمئزاز مرضي ومزمن. فأنا أعيش العبث والقلق والشهوة والإحباط والرغبة والحب والحقد. أعيش ذلك كله بمرارة بالغة.

ومع ذلك، سأجهد نفسي لألتئم. قررت أن أحذف عواطفي ومشاعري، وأن أتنازل عن خوفي، وأن أشطب المواقف المسبقة. فقد أصل إلى... أو، يجدني أحدكم في دواري العبثي، أتمشى في شارع إسرائيلي، أعدّ أصابعي كتسلية لي، أحصي أنفاسي الذاهبة كأنها عملة ورقية. سأعيش الدقائق وأحتسيها، كأنني أعيشها لآخر

مرة، ربما، قد أجد أنه من المفيد أن أعلن نسياني. أي، أن ينسى هذا الذي يكتب الآن، أنه كان. فالغياب خير من الحضور. إنه موت بالمجاز. وهذا أفضل لي. إذ، عندما يتحول وجودي ووجود من حولي، من هم معي ومن هم ضدي، إلى تابوت واسع الصدر، فمن المفضل أن أختار قبري ليسير معي إلى حتفي، بصمت.

سأنزع عني سوداويتي وأمرن نفسي على الموضوعية والرصانة والدقة والحياد. سأحاول عدم الشطط، برغم الإغراءات الداخلية، ونوبات العصبية الإلزامية التي تقبض على حنجرتي، وتقذف صوتي إلى أعالي الصراخ الصامت في القلب. سأحاول... أن أكون أميناً جداً وصادقاً، لأنني أريد أن أصل إلى نهاية النفق. إلى نهاية الانهيار. فقد يكون هذا الألم الباهظ دليلاً على مخاض الولادة.

أبدأ متفائلاً: «إن الطريق الوحيد لتحمل ما يجري هنا في السنوات الأخيرة، هو الإمعان في الواقع الإسرائيلي واعتبار أن هذا دليل على آلام الولادة وليس حشرجة احتضار. فمن يبحث عن دلائل وقرائن على احتضار دولة إسرائيل سيجدها بوفرة في جميع ميادين الحياة التي باتت أكثر إحباطاً من يوم إلى يوم. وهذا لا يتطلب أي جهد. إنه فقط يحتاج إلى الكثير من الورق. وحتى إن كان اليأس مبرراً من ألف زاوية، فإنه ليس مبرراً من الزاوية التسامحية للتاريخ. لأنه، وفق نظرة تاريخية، فإن إسرائيل تتشكل. إنها لا تتفكك بل تتشكل. والولادة أمر مؤلم جداً. والولادة الحقيقية هي ما يجري حالياً. وليس ما جرى عام ١٩٤٨». (أساف عنبري ـ «معاريف» ٢٠٠٣/١٠/٥).

تغاضينا عن الأسئلة الحقيقية عندما كنا في كنف الصهيونية

المطمئنة. كنا نخفيها لأننا انشغلنا بالحروب وبالبناء وفرض الوقائع على الأرض. إلّا أن هذه الطمأنينة ذابت مع الانتفاضة الثانية، فظهرت «الحقيقة المؤلمة» بصيغة أسئلة صعبة، حول وجود إسرائيل في المنطقة، حول يهوديتها أو مدنيتها. هل نحن «دولة تجريبية» أم دولة محكومة بأن تولد دائماً، وأن تعيش في مخاض الولاية الصعبة، وآلامها الكثيفة؟ لقد أخفينا أسئلتنا طويلاً وهي عادت «لتصفعنا» بقوة في وجوهنا. إلّا أنه من الأفضل أنها صفعتنا. فانتبهنا إلى قلق وجودنا ومصيرنا، خوفاً من أن نؤخذ غفلة إلى مجهولنا.

إننا نرى اليوم إلى مشكلاتنا على أنها آلام ولادة من دون مخدر: «إن الجيل الإسرائيلي الحالي ليس ساقطاً. بل هو مدمر»؟ لذلك ينطوي على طاقة يوفرها له الظمأ إلى المعرفة، واليأس البنّاء.

«إن هذا الجيل، هو جيل الانهيار (...) إنهم يسألون عن كل شيء ويسألون بإلحاح، لأن الأمور هنا تتقطع من يوم إلى لآخر. فهل هذه هي سكين الجزار أم مبضع الجراح؟ يجدر بنا تحمل الانهيار واستخلاص العبرة منه ونيل الأمل الديالكتيكي من اليأس باعتبار أن الانهيار ولادة. ويجب علينا اختيار مبضع الجراح، لأنه لا خيار آخر أمامنا» (أساف عنبري).

أهم الأسئلة، تلك التي تعيد صياغة وجود إسرائيل. هل ستبقى أم ستزول؟ وإذا كان من الضروري بقاؤها، فكيف سيكون حضورها اليهودي، وفي المنطقة. هل ستكون دولة غريبة إلى الأبد؟ هل ستكون دولة عادية؟ هل التهديد سيلاحقها؟ ما هويتها؟ الصهيونية الحرفية أو ما بعد الصهيونية؟ دولة إلى جانب دولة، أم دولة ثنائية القومية؟

بدا واضحاً أننا لسنا مطمئنين إلى النوايا الفلسطينية المستقبلية. أكان عدم الاطمئنان مصطنعاً أو مبالغاً فيه. الإسرائيلي مصاب بخوف دائم، على وجوده بالكامل. ولذلك، عندما يبدأ أي خطوة عرضية وتفصيلية، فإنه يربطها بالوضع النهائي. لأن أي خسارة يمكن أن تعجل بزوال إسرائيل. إذا تراجعت خطوة، قد تجد نفسها وظهرها إلى البحر.

بالفعل، هذه أسئلة ولادة، شبيهة بأسئلة الآباء المؤسسين. فالسلام معركة طاحنة، فما هي أدواته عندنا.. وما هي أدواته عند الفلسطينيين؟ كيف نولد مرة أخرى وكيف نولد توأمين بعدما ولد الأول ووئد الثاني؟ هل هذه الولادة عاصية أم ممكنة؟

لدينا أدوات إسرائيلية معطلة أو بلا رؤيا. ويظهر أن الرؤية الأمنية هي السائدة. وعلى الرغم من أن رئيس أركان الجيش تجرأ وانتقد سياسة استعمال القوة، مراراً، في المكان نفسه، وضد التجمعات ذاتها، فإن الوضع السياسي برمته مقفل. الحزبان الرئيسيان في إسرائيل مفلسان. لا يملكان أكثرية حاسمة في الكنيست. لأنهما لا يملكان برامج محددة. إنهما متقاربان تقريباً. إيديولوجية إسرائيل الكبرى لدى اليمين ماتت، ولم يعد لها حياة إلّا لدى جماعات ليكودية صغيرة، وجماعات أقل منها لدى اليمين المتطرف. ومن اللحظة التي قبل فيها اليمين مسألة تبادل الأراضي، بات يشبه اليسار، والخلاف هو على حجم الأراضي ومساحاتها وليس على مبدأ الانسحاب.

اليسار الذي جهد لاستغلال فرص السلام، تحطم وتوزع جماعات، فالفراغ السياسي يملأ الساحة اليوم ولا وجود إلّا لطلقات المدافع

وقصف الطائرات، وعزل المناطق، واغتيال القادة الفلسطينيين وممارسة الحرب، نسخة بعد نسخة، من دون تعديل يذكر، بحيث إن رفح دخلها الجيش الإسرائيلي أكثر من ٣٠ مرة ودخل نابلس أكثر من ٢٣ مرة، وتوغل في جنين عشرات المرات. وهو في كل مرة، يقوم بالمهمة ذاتها: استعمال القوة لإخضاع الفلسطيني الذي لم يخضع بعد... وقد لن...

أما الفلسطيني فأدواته معطّلة كذلك. السلطة معتقلة، وإرادتها مغلولة. باتت سلطة من فتات، لا يقوم بينها وبين ذاتها إلّا أجهزة أمنية متناحرة. وهي خاضعة لمنطق الضعف. و«حماس» و«الجهاد» يمليان على الواقع أسلوبهما. وتشكل «كتائب الأقصى» نموذجاً لعمل ياسر عرفات، الذي يراوغ في السلام ويصدق مع العنف. إنها سلطة فقدت مصداقيتها ولم تعد شريكاً.

ليس بوسعي أن أؤكد الأسباب. فالفلسطيني أحوج الناس إلى أرض يقيم عليها دولته. أتفهم أسبابه. إلّا أن الاستمرار في تعداد الأسباب يدفعنا إلى العجز.

أما معسكر السلام الإسرائيلي، فقد انهار بعد اندلاع الانتفاضة، وتحميل الفلسطيني مسؤولية العمليات الانتحارية البربرية. وما جرى في جنيف، ليس إلا محاولة في الهواء.

النوايا الحسنة، كالنوايا السيئة. إذا لم تستند إلى قوة، فهي هباء. الوضع يسيّره شارون من جهة والعسكر عندما يصنع أحداثاً ملائمة له. وفصائل المقاومة الفلسطينية عند الفلسطيني تصنع ما لا يلائم أحداً. ويبدو أن مخطط شارون يقضي بإقامة جدار نهائي، غير

الأبدي، ويستمر في مرتفعات السامرة، ويفصل الضفة عن الأردن، ليجعل حياة الفلسطيني غير قابلة للاستمرار، وإذا كان لا يستطيع طردهم، فسيترك لهم حرية الهجرة ويساعدهم عليها.

إنه يعرف أن الترانسفير غير ممكن حالياً، وغير ممكن في المدى المنظور. ولهذا، جعل من غزة سجناً واسعاً. وعادة، من حق السجناء التعبير عن رأيهم، أو غضبهم، بسبب سوء معاملة السجان. أما في غزة، فإن التعبير عن الرأي أو التظاهر يدفع السجان إلى القصف بالطائرات. فكما تقول تانيا رينهارت «ليس أمام الفلسطيني في غزة، إلّا أن يعيش هذا السجن أو يموت». وخطة شارون، هي في تعميم نموذج غزة على الضفة عبر تقطيعها إلى أربع مناطق مقفلة ومعزولة ومحاصرة بمستوطنات ومراكز عسكرية ودبابات ونقاط تفتيش.

أي أن خطة شارون تقضي بتحويل سجني غزة والضفة إلى دولة فلسطينية غير قابلة إلّا للانفجار.

لا حلَّ أبداً بالأدوات المتوافرة حالياً. لا المجتمع الفلسطيني مهيأ للسلام، ولا الآليات الإسرائيلية متوفرة. جرّب الطرفان أوسلو. وها هو يحتضر خلف خريطة الطريق التي تخلت عن طريقها منذ ولادتها. ياسر عرفات لا يستطيع اتخاذ قرار بتصفية «حماس» و«الجهاد» ولجم «الأقصى»، لأن ذلك يدخل الجميع في حرب أهلية. فالدم الفلسطيني حرام. ومن حق الفلسطيني أن يتساءل: حرب أهلية مقابل ماذا؟ مقابل لا شيء؟ كما من حق الإسرائيلي أن يسأل، إن «حماس» لا تثق بقيادة السلطة، وهي ضد السلام، وتوزع قنابلها في شوارع تل أبيب والقدس وسواها. فكيف نصافح سلطة تسمح بالعدوان على اليهود في إسرائيل؟

وتتدافع حجج الطرفين: إننا، أمام الانهيار. ومع ذلك فلا بد من ولادة.

يطرح إيلي برنابي مشروعاً معقولاً: «الإسرائيليون والفلسطينيون باتوا عاجزين عن تحقيق مشاريعهم. عندما ينهار المصارعان على الحلبة، ويتمسك كل واحد منها بالآخر، ويبدأ تحت الضرب تحت الزنار، فمن واجب الحكم أن يفصل بينهما».

فمن يكون الحكم ليفصل، بطريقة ما، بين الفلسطيني والإسرائيلي، في ظل تشابك جغرافي ـ سكاني ـ أمني ـ سياسي ـ محلي ـ إقليمي ـ دولي! أليست المهمة صعبة، وربما مستحيلة. وربما، إن كانت مرغوبة من طرف فستكون مرفوضة من طرف آخر؟

سأفكر قليلاً بما طرحه برنابي. يبدو لي المشروع جديداً. هل يجد طريقه إلى التنفيذ؟ ربما! لا أعرف! سأعرف بعد قليل.

يقترح برنابي ما يلي: احتلال أميركي لفلسطين. على أن يتم ذلك وفق آلية دولية: وضع الأراضي الفلسطينية المحتلة تحت انتداب الأمم المتحدة، مترافقة مع قوة احتلال دولية شرعية، بقيادة الولايات المتحدة الأميركية.

سيكون من مهمات هذه القوة وضع حد نهائي للفصائل المسلحة الجذرية، وإعادة بناء السلطة الفلسطينية وتجديد قيادتها عبر انتخابات عامة، وعلى أن تتولى هذه السلطة الجديدة التفاوض السريع مع إسرائيل حول قضايا الوضع النهائي. والفرضية القائلة بأن إسرائيل

ترفض هنا التدخل، صحيحة، إلّا أنه يمكن إلزام إسرائيل بذلك، وضمان أمن القوة الدولية، فإسرائيل لا تجرؤ أن تطلق النار على الأميركيين.

باختصار، توظيف الأمم المتحدة لدى الأميركيين القادرين وحدهم على تأمين احتلال نظيف للضفة والقطاع، بهدف إيجاد حلّ، على قواعد دولية. أوروبا تريد هذا ولكنها غير قادرة، وأميركا قادرة، ولكنها لا تريده.

هل يتمّ زواج من دون عريس وعروس؟
ألا يجب أن تترافق هذه العملية الدولية، الطوباوية حالياً، مع أي إجراء من قبل إسرائيل؟ ينفي برنابي إمكانية القيام بانسحاب أحادي الجانب، فالخطأ الذي ارتكبته إسرائيل عندما انسحبت من جنوب لبنان، صوّره حزب الله، على أنه انتصار عربي. وأدنى هزيمة لإسرائيل، لا يمكن احتواء خطورتها. يجب أن نبقى أقوياء، لأن الضعفاء يدفعون الثمن غالياً جداً في هذه المنطقة. يجب أن تبقى إسرائيل الدولة الأقوى، الآن وفي كل آن. «لذلك، فإن الانسحاب انتحار لإسرائيل».

لا يلغي برنابي جرعات اليأس والقلق التي تنتابه إزاء الاستحقاقات الداهمة، لأن الحلول المتأخرة مأساوية وكارثية أيضاً.
فعدم إخلاء المستوطنات الآن، سيدفع إسرائيل إلى الهاوية.
«ذلك أننا نركض كالنعاج إلى دولة ثنائية القومية. أي إلى إلغاء إسرائيل كدولة لليهود. علينا إذاً، إخلاء المستوطنات، فإن إخلاء ٢٣٠ ألف مستوطن، قد يؤدي إلى ميني ـ حرب أهلية، فكيف إذا بلغ العدد في سنوات ٥٠٠ ألف مستوطن. إن عدم إخلاء

المستوطنات يدمر مشروع الدولتين. فكيف يمكن فصل السكان بعد ذلك؟ إن سياسة الاستيطان مدمرة لإسرائيل أكثر مما هي مدمرة للفلسطينيين».

هل بالإمكان القبول بدولة ديموقراطية؟

لا يبدو برنابي متفائلاً، فالدولة الديموقراطية في إسرائيل ليست لصالح إسرائيل. هذا مشروع منظمة التحرير الفلسطينية في السبعينيات، عندما دعت إلى دولة علمانية ديموقراطية في إسرائيل، يعيش فيها اليهود والمسيحيون والمسلمون سواسية أمام القانون. هذا غير ممكن. إنه دمار لإسرائيل من الداخل. إن ديموقراطية الجماعات المتناحرة دينيا وجغرافيا وإثنيا ويزداد فيها التعصب، وتتوغل في الظلامية، تبدو تنظيماً وتشريعاً للحروب الأهلية المقبلة كما صرح ناظر الخارجية التركية بعد التوقيع على بروتوكول المتصرفية في جبل لبنان. الثنائية القومية تعني، في ظل الأحقاد المتنامية، إما الفصل العنصري، وإما حروباً داخلية بلا هوادة.

هذه الديموقراطية... جحيم لإسرائيل. ديموقراطيتنا لنا. تخصنا وحدنا ولا يشاركنا فيها أحد، فلليهود ديموقراطيتهم كما للفرنسيين. ديموقراطية لنا ولهم معاً، تعني زوالنا. إنها الديموقراطية القاتلة.

وعلى الرغم من وجاهة هذا التحليل المنطقي، إلّا أنه يبدو بعيد المنال. صحيح أن إسرائيل لن تجد حلاً لها، والفلسطيني لن يجد طريقاً إلى دولته، كائنة ما كانت، بحجمها ومكانها وطبيعتها. يفترض أن يولد الحل من الجعبة الدولية الزاخرة بالتجارب.

فمن يقنع أميركا الملتصقة بالإملاء الإسرائيلي!؟

لا خوف من العرب، إنهم يقبلون ما تومىء به أميركا... يمكن إقناعهم تلفونياً بإعادة احتلال فلسطين. أليست معظم بلادهم موطىء قدم للأميركيين.

هكذا تتساوى فلسطين بعضويتها، في جامعة الدول العربية المحتلة. إنما، من يقنع أميركا باحتلال فلسطين؟ إن الأذن الأميركية تصغي بانتباه للرغبات الإسرائيلية، وإسرائيل ليست في هذا الوارد، فهي لا تطيق سماع اسم أوروبا. وترفض أي تدخل لها في المنطقة وتتهمها بالانحياز إلى الفلسطينيين، وأن اللاسامية تعشش فيها. وهي تستبعد أي حل أو تفاوض برعاية الأمم المتحدة. إنها دولة مختلفة عن باقي الدول، ويحق لها ممارسة حق النقض، وهي، لكي تقنع أميركا بالعدول، ليس أسهل عليها من تحريك قوة الضغط اليهودية في العالم، لإجهاض الجملة الأولى من النص الذي يقدمه إيلي برنابي.

إنني أتفهم قلق برنابي كثيراً. فهو خائف على إسرائيل من أمرين اثنين:
أولاً: الوصول إلى نقطة اللاعودة في مسألة المستوطنات، ما يجعل دولة ثنائية القومية مشروعاً حراً وأمراً واقعاً.
ثانياً: استمرار بقاء إسرائيل حيّة يستدعي قيام دولة فلسطينية إلى جانبها. إن أمن إسرائيل هو في عهدة الدولة الفلسطينية القابلة للحياة.

أجل. أتفهم ذلك... ولكن:
الدول الديموقراطية، منطقياً، لا تدخل في حرب مع دولة ديموقراطية

أخرى. فإذا كانت دولة فلسطين العتيدة ديموقراطية، فستكون إسرائيل في أمان. لقد أحصى السويسري بيار المارك، عدد الحروب التي نشأت في المئة وخمس وسبعين سنة الفائتة والتي اشتركت بتأليفها ٣٥٣ دولة وفق الترتيب التالي:

١٩٨ حرباً شنتها دول غير ديموقراطية على دول غير ديموقراطية.
١٥٥ حرباً شنتها دول ديموقراطية على دول غير ديموقراطية.
أي بلد ديموقراطي لم يشعل حرباً مع بلد ديموقراطي آخر.

ويحلل دان بابست الحربين العالميتين فيجد أن ٣٣ دولة مستقلة اشتركت في الحرب العالمية الأولى. عشر منها كانت ديموقراطية لم تشتعل بينها حرب أبداً.

٥٢ دولة شاركت في الحرب العالمية الثانية، ١٤ دولة ديموقراطية كانت في حلف واحد. باستثناء فنلندا، التي وقفت إلى جانب ألمانيا، فضغط ستالين على بريطانيا، كي تعلن الحرب عليها رسمياً، ولم تسجل أي معركة عسكرية بين فنلندا وأي دولة أخرى ديموقراطية بما فيها بريطانيا العظمى.

الديموقراطية تحمي إسرائيل من الخارج. ولكنها لا تحميها أبداً من الداخل. أليس هذا أمراً غريباً؟ بالفعل، نحن دولة غريبة جداً جداً.
سأبحث عن حل آخر.
يقترح طوني جُودت ثلاثة خيارات ممكنة أمام إسرائيل:

أولاً: تستطيع إسرائيل إخلاء المستوطنات اليهودية في الضفة وغزة والعودة إلى حدود العام ١٩٦٧. حيث يشكل اليهود في الدولة

أكثرية واضحة وحاسمة، ولو كان يعيش فيها مواطنون فلسطينيون من الدرجة الثانية.

ثانياً: أن تستمر إسرائيل باحتلال الضفة والقطاع، حيث يصبح عدد السكان الفلسطينيين أكثرية ملموسة في خلال ثماني سنوات. في هذه الحالة، إما أن تصبح إسرائيل دولة يهودية بأكثرية غير يهودية محرومة من حق الاقتراع، أو دولة ديموقراطية بلا هوية يهودية. لا تستطيع أن تكون إسرائيل ديموقراطية ويهودية معاً.

ثالثاً: تستطيع إسرائيل الاحتفاظ بالأراضي المحتلة، وتتخلص من الأكثرية العربية منها، إما بالطرد الجماعي، الترانسفير، أو القمع والضغط الحياتي الجهنمي، بحيث يصبح المنفى خلاصاً. وهكذا تحافظ إسرائيل على يهوديتها وعلى ديموقراطية خاصة بها فقط، ولكنها، ستكون الديموقراطية الأولى في العصر الراهن، التي تقدم على التطهير العرقي. أي، تكون إسرائيل دولة مارقة وخارجة على القانون. ديموقراطية سفاحة.

علينا أن نتخيل هذا الحل الثالث، اللا مفكر فيه، وكأنه خيار ممكن، وخصوصاً لدولة يهودية. فمن لم يتنبه بعد إلى النمو المتزايد للمستوطنات؟ من لم يحص بعد مساحة الأراضي المصادرة منذ ربع قرن؟ من لم يسمع جنرالات إسرائيل وحكومة الليكود، وريثة حزب حيروت الذي أنشأه مناحيم بيغن، التلميذ الغيور والصادق لفلاديمير جابوتنسكي؟ من لم يتأكد مما قاله إيهود أولمرت وزملاؤه الوزراء، ومعهم شارون، من أن بلاده اختارت أن تقتل الرئيس ياسر عرفات. أليس القتل السياسي سلوكاً فاشياً؟

يبدو أن هذه الخيارات الثلاثة كارثية جداً. لذلك يشدد جودت على أن الوضع الإسرائيلي وإن لم يكن ميؤوساً منه، فإن الأمل بعيد جداً جداً.

لا خطر وجودياً على إسرائيل من العمليات الانتحارية. إنها لا تمس الوجود الاستراتيجي لإسرائيل، والجيش يعرف ذلك. وبرغم وجود المتطرفين، فإن شعار إلقاء اليهود في البحر يبدو مضحكاً. ويؤيد جودت أبراهام بورغ، في أن إسرائيل، مع استمرار الاستيطان والضم، لن تكون يهودية ولا ديموقراطية.

الحل المتاح والمر، قبل فوات الأوان، يقتضي أن تنسحب إسرائيل من الضفة والقطاع وتفكيك كل المستوطنات بدون استثناء والعودة إلى حدود العام ١٩٦٧، مقابل اعتراف عربي بحدودها وحدود الدولة الفلسطينية النقية من أي منظمة إرهابية، والمعترف بها والمدعومة والمضمونة من قبل الهيئات الدولية والعربية.

ألم يتأخر هذا الحل كثيراً، بعدما أصبحت التجمعات الاستيطانية أمراً واقعاً؟ ألم تصل إسرائيل في هذا المضمار إلى نقطة اللا عودة واللا قدرة؟ فالمستوطنون لن يرحلوا. سيقاتلون. مائتان وخمسون ألف مستوطن، مزروعون في الضفة، لا يمكن اقتلاعتهم بالحسنى ولا بالقوة. هذا قد يؤسس لحرب أهلية يهودية ـ يهودية. آخر قائد إسرائيلي استعمل السلاح ضد اليهود هو بن غوريون، عندما قام بنزع سلاح الأرغون. وشارون لا يشبه بن غوريون. إنه مهتم بنزع سلاح الفلسطينيين فقط.

إذاً... لقد مات أوسلو. لقد قضي نهائياً على مشروع الدولتين.

وكل سنة تمضي يتقدم مشروع حل الدولة الثنائية القومية. هذا هو منطق التاريخ ومنطق الواقع. أحياناً يصنعنا التاريخ. لا نستطيع استعادة الفرص الضائعة. لقد ضاعت فرصة تنظيف كل فلسطين عام ١٩٤٨، كما قال بني موريس. وضاعت فرصة الانسحاب الأحادي الجانب. وقد تضيع فرصة الدولتين! إن الممكن والمتاح إقامة إسرائيل كبرى تضم الإسرائيليين والعرب والفلسطينيين. إنه الحل الوحيد الممكن لاستمرار إسرائيل على الحياة.

لا وجود في العالم الديموقراطي المتقدم لدولة دينية أبداً. لا محل لدولة ذات هوية دينية في العالم الديموقراطي المعاصر. ودفاع الفاتيكان وجيسكار ديستان عن «أوروبا المسيحية» في الدستور الجديد المقترح للاتحاد الأوروبي، اعتبر من مخلفات الماضي. هرطقة سياسية. فكيف سيكون هناك وجود لدولة دينية قومية وديموقراطية، وتمنع مواطنيها، من غير دينها، من ممارسة كامل حقوقهم؟ كيف نفسر ترشيح النائب العربي في الكنيست عزمي بشارة لرئاسة مجلس الوزراء في مواجهة نتنياهو وباراك؟ إنها محاولة للقول بأن مستقبل إسرائيل في ظل الديموقراطية والمساواة، سيؤول إلى زوال. فنسبة تزايد السكان العرب، ستفرض نفسها على الواقع. فالمستقبل في إسرائيل هو للعرب وليس لليهود.

يقترح جودت في ضوء ذلك، إقامة دولة متعددة الألوان والأعراق والمذاهب والديانات. أي إلغاء الصفة اليهودية للدولة، لأنه لا مكان، في عالم اليوم والغد، لدولة ديموقراطية على قواعد ومعتقدات دينية. فإذا كانت الولايات المتحدة الأميركية تطالب دولاً إسلامية بدخول عصر الديموقراطيات، أكانت تلك الدعوة سليمة أم مضللة، فإن ذلك يدل على أن روح العصر القادم، هو روح انتشار

الديموقراطية الحقيقية، المؤمنة بالتنوع والتعدد والمذاهب والأعراق، والتي يخضع فيها الجميع للقانون، حقوقاً وواجبات من دون استثناء. فلا أفضلية ليهودي على عربي أو العكس.

لا وجود في عالم الديموقراطيات المعاصرة امتيازات خاصة لفئة مذهبية أو دينية أو عرقية. إسرائيل تضع اليهود أولاً... والآخرون أخيراً. والخطر على إسرائيل، كدولة يهودية، ليس من العمليات الانتحارية، بل ذلك النمو السكاني الطبيعي للعرب، المطالبين بالمساواة التامة مع مواطنيهم اليهود.

ألا يعني ذلك أن دولة اليهود إلى زوال بالديموقراطية؟
كي تبقى إسرائيل دولة يهودية، عليها أن تقبل باقتراحات اليمين المتطرف، وتنفيذ ما يطالب به، إن استطاعت وتأمنت لها الظروف الدولية، وذلك بطرد العرب من الضفة والقطاع وعرب إسرائيل أيضاً. من دون ذلك، إسرائيل إلى زوال كدولة خاصة باليهود.

ولكن، إذا كان يتعذر على إسرائيل تفكيك المستوطنات اليهودية، فهل تستطيع أن تفكك الحضور العربي في فلسطين؟ لقد احتاجت إسرائيل لتفكيك المستوطنات في سيناء، إلى قوة عسكرية، واجهت حوالي ٢٥٠٠ متطرف. فهل تستطيع إخلاء ربع مليون مستوطن... وغداً نصف مليون؟ هذا مستحيل. من المستحيل أيضاً ترحيل ثلاثة ملايين فلسطيني. هذا الترحيل يحتاج إلى حرب أبوكاليبتية، بشّرنا بها نذير بني موريس.

إذاً إسرائيل دولة مضرة باليهود. وهذا شيء خطير، فهي وضعت اليهودي في فلسطين في مواجهة مأزق لا حل له حتى الآن بعد

١٢٠ سنة من الجهد، و٥٤ سنة من الاستقلال أو من نصف الاستقلال. وهي سيئة ليهود الشتات الذين يعانون موجة لا سامية جديدة، أحد بواعثها، السياسات الإسرائيلية القائمة على استعمال العنف الأقصى، ضد انتفاضة، سلاحها المتفوق كناية عن قسطل سخيف يسمونه «القسام».

إن معظم الاعتداءات التي يقوم بها عرب ومسلمون في أوروبا، هي عقاب بالنيابة ليهود مؤيدين لإسرائيل. إن اللعنة الإسرائيلية تلاحق اليهود، عوضاً عن حمايتهم. إنها تعرضهم لتجربة قاسية لأنها تتصرف معهم وكأنهم رهائن متطوعون لديها. وهذه هي المرة الأولى التي يتعرض فيها اليهود، بسبب إسرائيل، للاعتداءات، فيما كانت الاعتداءات السالفة من تدبير دول مسيحية.

لذلك، حتى ولو كان ذلك صعباً للغاية، فإن الوقائع تفرض قيام دولة ثنائية القومية، كما يقول ميرون بنفنستي. على أن هذه الدولة تحتاج إلى رعاية ودعم أميركي شجاع. فالأمن للعربي واليهودي يجب أن تضمنه قوة دولية.

سياسة إقامة الجدران تؤكد سقوط إسرائيل أخلاقياً. لن يسكت على برلين أخرى في قلب الشرق الأوسط.

ثلاثة مستحيلات إذاً:

١ ـ يستحيل العودة إلى حدود العام ١٩٦٧، بسبب استمرار الاستيطان.

٢ ـ يستحيل إجلاء ٢٥٠ ألف يهودي، لأنه كان مستحيلاً إجلاء ٢٠ ألف مستوطن في العام ١٩٨٠.

٣ ـ يستحيل قيام دولتين: واحدة لليهود وأخرى للفلسطينيين.

لذلك، ليس أمام إسرائيل إلّا مستحيل أخير:
قيام دولة ثنائية القومية، تزول فيها يهودية الدولة، وتصبح دولة مثل كل الدول الديموقراطية المعاصرة.

يرفض المفكر اليهودي ران هاليفي هذه الاستحالات، ويبحث في استحالات سابقة. فالدولة الثنائية غير قابلة للتحقيق، وهي مستحيلة:

أولاً: لا أحد يطالب بهذه الدولة، لا إسرائيل ولا الفلسطينيون.

ثانياً: عمر هذه الفكرة أكثر من مائة عام، فقد نشأت لدى مجموعة «بيريت شالوم» (Alliance de la pais) المتحلقة حول الرائد بوبر. واستعادت هذه الفكرة حيويتها بعد حرب يوم الغفران من قبل منظمة التحرير التي طالبت بدولة علمانية وديموقراطية، ثم عادت الانتفاضة الثانية وأحيتها قليلاً.

ثالثاً: فكروا بهذه الدولة ولم ينفذوها. فحظوظها كانت دائماً معدومة ومخاطرها أكبر من الحلول المتوهمة.

رابعاً: إذا كان قيام دولتين تتعايشان من بعيد، ضمن حدود معترف بها مستحيلاً ومأساوياً، فكيف تتعايش جماعتان، أو شعبان، داخل فيدرالية كانتونات؟ هذه الدولة المقترحة، هي دولة قابلة للاشتعال والسقوط في لعبة الدماء. وستكون الحرب الأهلية مشروعاً مدرجاً على جدول أعمال كل جماعة.

خامساً: إن الذين يدعون إلى هذه الدولة الثنائية، لا يعتبرون المشروع حلاً، بل يعتبرونه شراً لا بد منه.

سادساً: من قال إن إسرائيل لا تستطيع إخلاء المستوطنات إذا اتخذ الكنيست قراراً يلتزم به، وإذا تقدم مشروع السلام بجدية وحزم، فإن الكنيست قادر على الالتزام بقرار صعب. وتستطيع إسرائيل إخلاء المستوطنات في هذه الحالة، علماً أن المفاوضات توصلت إلى تبادل الأراضي، وضم المستوطنات المتاخمة مقابل نسبة معينة من أرض إسرائيل، تعوض الأراضي الفلسطينية.

سابعاً: من هو المجنون الذي يوافق على تشكيل قوة دولية لتحضر إلى إسرائيل وفلسطين، وسط جو من الاحتقان الأسود، حيث العمليات الانتحارية رائجة والمستوطنون المتعصبون على أسلحتهم؟ من يجرؤ على إرسال جنوده لمساندة مشروع دولة فاشل، محاط بسياسات عدائية، وشعبين لم يتفقا بعد كامب ديفيد، إلّا على التدمير المتبادل، بنسب متفاوتة؟

ثامناً: إن دولة ثنائية القومية تعني بكل وضوح تحويل اليهود إلى أقلية أجنبية. وبالتالي، لن تبقى الدولة ثنائية، بل ستصبح أُحادية، بقيادة فلسطينية، ويضطر اليهود إثر ذلك إلى الهرب منها، إذا سمحت لهم «حماس» و«الجهاد» و«كتائب الأقصى» بالرحيل.

يختم ران هاليفي استحالاته بحل يطول مخاضه دون ولادة، يفترض أن الحل السياسي المتاح لإسرائيل اليوم ليس إملاء إلهياً، وليس نتيجة تفوقها العسكري، ولا هو وليد الاستعداد الفلسطيني لذلك ولكنه حل تفرضه الوقائع الديموغرافية.

إذا كانت إسرائيل تصر على الاحتفاظ بالدولة ـ الأمة ـ كما تصورتها منذ البداية، فليس أمامها إلّا الانسحاب من طرف واحد من كل الأراضي المحتلة بما فيها الأحياء التي احتلتها في القدس العربية.

ولكن إسرائيل لن تنجو من الثنائية في واقعها، بسبب ٢٥٪ من العرب الفلسطينيين الذين من حقهم ممارسة الحياة السياسية في ظل نظام ديموقراطي، والدولة الإسرائيلية مدعوة لبدء حوار جدي مع هذه الشريحة. لقد انقطع الحوار منذ ثلاث سنوات ولكن الوقت لم يفت بعد. وبإمكان إسرائيل تعويض هذه الفترة بعدد من الحلول.

ما هي هذه الحلول؟ من أين نبدأ؟ ليس أمامي إلا المجهول.
ها أنا الآن معلق أكثر مما كنت.
كل الحلول متوقفة عند محطة التنفيذ.
يبدو لي أنني عدت إلى نقطة الصفر.
يبدو أننا بحاجة إلى إرميا يرثينا ويرثي أورشليم.
لا حل مؤقتاً... ولا حلول نهائية.

الحرب؟

ولدنا في ثكنة عسكرية. تربينا في مواقع حصينة ومسلحة. خضنا المعارك باستمرار. سلاحنا لم يهدأ عن النطق. مارسنا التفوق. أطعمنا الأعداء خسائر مرة... ولكننا الآن، لا نملك إلّا هذه القوة التي تقتلهم وتفتك بنا. نحن لم نوفر مالاً وسلاحاً ورجالاً ومؤسسات، لخوض حروب البناء. غزونا سيناء مرتين. دمشق على مرمى نيراننا. الجولان في قبضتنا. يهودا والسامرة معنا. نهر الأردن

ضفة الوطن الأخرى. دخلنا بيروت. تعتبرنا الدول المتقدمة النموذج العسكري القوي والجهاز الأمني الفعال. ومع ذلك، فإننا لم ننعم بسلام قصير النفس. إنهم اليوم بيننا. رحلوا من بيروت إلى تونس، ومنها عادوا وأقاموا عندنا. لن يهزمونا، ولن نهزمهم. نحن وهم في هذا الجحيم. علماً، أن سلاحهم حجارة وبنادق وقسطل يسمونه مدفع.

الحرب؟
نستطيع أن نخوضها ونربحها مراراً. ولكننا لن نربح السلام. العرب يزدادون قبضات. شعوبهم التي طلّقت حكامها يُزنّرون كلامهم بالعمليات الانتحارية. دينهم تحول إلى جهاد وقتال مقابل جنة. إنهم يبيعون السماء من أجل فلسطين. ٢٦٠ مليون عربي، مليار و٢٠٠ مليون مسلم، تجتاحهم حمى الانتقام. لم يصلوا إلينا بعد. ولكن قد يصلون. فالحروب تعرف بداياتها ولكن خواتيمها ليست بأيدي من يبدأها.

الحرب؟
ليس في جعبتنا غير الحرب... وهذا هو سبب بؤسنا.

الاحتلال؟
إننا دولة محتلة بامتياز. حتى إذا لم نقبل بنعت الدولة الاستيطانية، لأن هذه البلاد وطننا، فإن ما يطبق علينا، هو قانون الاحتلال. قطّعنا فلسطين. جزّأنا غزة. كل بيت مشبوه دمرناه. كل معمل حديد أو تصليح دواليب اعتبرناه مصنعاً لصناعة الأسلحة والذخيرة دمرناه. كل رأس يتنطح لمحاربة إسرائيل اغتلناه. يدنا طاولت القادة في أوكارهم. الشيخ ياسين، الرنتيسي، الـ .... وكل من لم يقتل

بعد، إما هو مطارد، أو هو في السجن.

إننا نتمسك بالاحتلال... ولكننا فقدنا أمننا، والآن نسيّج احتلالنا بالجدار. أقفلنا سطح الأرض. نملك الفضاء. فمن يضمن لنا عدم حفر الخنادق؟ ديان بيان فو من يتذكرها؟

استمرار الاحتلال ليس حلاً. إذاً، فليكن الانسحاب هو الحل.

الانسحاب؟
انسحبنا من سيناء بصعوبة بالغة. انسحبنا من جنوب لبنان بعد حرب استنزاف مع مقاتلين يملكون فقط عبوات وكاتيوشا. انسحبنا من شريط أردني محتل، مقابل استئجار أرض.

إن أي انسحاب يعتبر ضعفاً، وضرباً في بنية الفكر الصهيوني الذي تربينا عليه. أن نصف صهيونية، خير من صهيونية كاملة غير قابلة للتحقيق ومدمرة لنا. ومع ذلك، فلن ننسحب. لم ننسحب عن أرض وبلدات وقرى وقّعنا على الانسحاب منها. الغريب أننا مطالبون بالانسحاب ونحن أقوياء، فماذا سيطلب منا إذا ضعفنا؟ قد يطالبوننا بعكا وحيفا.

الانسحاب؟
انسحاب أحادي الجانب! انسحاب متفق عليه! تبادل أراض! تفكيك مستوطنات! تهجير اليهود من إيمانهم وعقيدتهم! إعادتهم إلى داخل الخط الأخضر! ليس على جدول أعمالنا، إلّا إعادة انتشار. نخرج من قرية لندخل جارتها، أو لنحيط بها ونخنقها. إننا لا نطبق الانسحاب. إنه الدواء المر، حتى ولو كان شافياً بعض الشيء.

ثم، هو انسحاب مقابل ماذا؟ إن الانسحاب مسألة معقدة جداً، احتاجت إلى عدد من المندوبين الأميركيين، وأوراق، ومحادثات. كما احتاجت إلى عدد من الحكومات الإسرائيلية والانتخابات كذلك. الانسحاب خرابنا في المستقبل. التبادل لعبة دبلوماسية رخيصة.

التهجير؟
مرغوب، ولو كان غير أخلاقي، ولكننا نعجز عن مثل ذلك. سيطردنا العالم من حرمته. سيسمينا برابرة نازيين. سيلحق بنا العار. لو كان ذلك ممكناً لقمنا به. هذا الباب مقفل. إننا محكومون بأن نعيش مع الفلسطيني وضده.

كيف؟

دولتان؟

دولة ثنائية القومية؟
أن نطلِّق الصهيونية ونصير كغيرنا من البشر في هذه المنطقة. أم نحمل حقائبنا ونعود إلى بلاد ديموقراطية نستطيع من خلالها أن نندمج كغيرنا من الكاثوليك والبروتستانت واليهود المندمجين. أم نبقى يهوداً في إيماننا الديني، ونتخلى عن عقيدة الشعب اليهودي؟

إننا لا نستطيع أن نتبنى أي خيار... حتى ولو ساعدنا العالم، فإننا شعب المأساة الكبرى. شتاتنا كان مأساة. ودولتنا صارت مأساة.

أنا الآن أمام بندقية أرفض أن أصبح ظلاً لها. لن أقاتل بعد الآن.

أمامي بطاقة سفر لأعود إلى بلاد أخرى، سأمزقها. فأنا ابن الـ«هنا» بالروح.

أمامي طريق فارغ لا يقود إلى مكان. سأسلكه، لأنني أعرف أنني لن أبحث عن شيء فيه. لأن هذا الشيء غير موجود.

أنا اليهودي هنا في إسرائيل، سأدرس كيف سقطت غرناطة العرب، فهجرناها معاً. وساقرأ كيف اندحر الصليبيون حملة حملة، وعادوا. أقرأ ما كتبه أراغون عن غرناطة وأهلها:

«المقصلة كانت عفواً عني
أسوأ ما في قدري وجودي
أي عذاب يليق بجريمة الميلاد

رعبي مني ناب تنهشني
لم تنفعني كلُ اعترافاتي
تركتموني حيا يا قضاة بلا رحمة»

لن ينجح أحد في قتل المرأة يا بورخيس، لن نقتسم المكان نفسه بعد الطلاق يا أموس أوز. لن تقوى على المقاومة إلى الأبد يا يرمياهو. لن نوفق في طرد الفلسطيني يا بني موريس. لن نصل إلى مكان يا بنفنستي. لن نقلدك يا برنار هنري ليفي في اقتراحاتك الكاريكاتورية. لن نمحو الخطيئة الأصلية يا أبراهام بورغ. ستقتلنا الديموقراطية يا ران هاليفي، سنعصى على العالم يا إيلي برنابي. لن نتعلم يا تانيا رينهارت من أخطائنا. لن يصدق العالم أننا، ضحية كنا، وضحية سنصير؟

سامحوني... سأذهب إلى ملاقاة أصدقاء لي. مارست معهم ذات يوم قتالاً مريراً دفاعاً عن بقاء إسرائيل... سأقول لهم: لقد خسرنا كل شيء، يوم كنا ننتصر دائماً.

أين الخطأ؟؟!
في البدء كان الخطأ.

لعل غيري يعيد النظر بالصهيونية ويقول لها: «سقط الجميع... أغلقوا الستارة... كفانا دماً منا ومن سوانا... يلزم أن نعيد ترتيب هذه القاعة مرة أخرى... يلزم أن نعيد انتماءنا إلى العالم، كل العالم، فهذا الكوكب يتسع للجميع، وفلسطين لا تتسع إلّا...».

يا إلهي! ماذا أقول؟
استعاد اليهودي اسمه وجسده وعقله، وقرر أن يصير مواطناً بلا حدود، بالمخيلة على الأقل. فهذا الأمل خير من التشبث بالجحيم.

القسم الثاني

ولكنني فلسطيني

«لا ينظرون وراءهم ليودّعوا منفى،
فإن أمامهم منفى، لقد ألفوا الطريق
الدائري، فلا أمام ولا وراء، ولا
شمال ولا جنوب...
ويرحلون من البيوت إلى الشوارع
راسمين إشارة النصر الجريحة. قائلين
لمن يراهم:
لم نزل نحيا، فلا تتذكرونا».

محمود درويش

لا تعتذر عما فعلت

I

من يشبهني؟

ولدت ولم تكن أمي معي.

كانت تبحث عن مكان إقامة أخي. فشمل العائلة ملتئم داخل السجن.

ولدت ولم تكن أمي بقربي.
كانت تودع أبي. توضب رحلته الأخيرة، وتقمط جسده بالتراب.

ولدت ولم تكن أختي معي.
كانت تدرس آثار أقدامها لتهتدي إلى طريق العودة إلى بيتها المقتول. إلى النجوم المشتاقة إلى إشارة سبابتها.

ولدت ولم أكن هناك.
لا المكان يعرفني. ولا أمي تلدني. ولا أبي يهبني اسمه، ولا أختي تسرح شعري بأصابعها. ولا أخي يومىء إليّ من خلف القضبان.

ولدت من دون حَبَل جميل، ولا جنس شهي، ولا شهوة لأجناس الثمر. كنت ثقلاً. فوقعت كدمعة تسجنها أم لحظة افتضاض الأرض. حاولت البكاء، فلم يعرفني أحد. فكل من حولي في نشيج وغناء حزين وأحاديث ذكريات مصابة بطلقات في القلب، وكلمات تتوزع عن وطن لم يعد، وأرض تحدق بالسراب، وعائلات ترتجل أسماء جديدة لتتعرف على هوية أمكنتها.

هكذا ولدت ... فمن يشبهني؟
كان يمكن أن أولد بطريقة أخرى. كأن أتدحرج على باب مخيم يتلو أقداره وناسه وعذاباته منذ الفجر حتى دعاء اليوم الغائب. كان يمكن أن تقذفني أمي على عتبة «الأونروا»، فأتبوأ مكانة دولية بصفة لاجىء، ويصير لي أب أممي، وأم مشرعة للصدقات، وبطاقة تموين

لطعام مؤقت، ومدرسة أهرّب منها الحروف الحسنى، لأرسم جملة، تليق بي كلاجيء غير مرغوب فيه لدى الأعداء ولدى الأصدقاء.
كان يمكن أن أولد بشكل ارتجالي، بين حرب وحرب وما بينهما من حروب كثيرة، فأتدرب على حياة تبدأ بطلقة الولادة وتنتهي بطلقات تودع في الصدر. الرصاص وشمنا الأبدي، إما نحمله على خصورنا، أو، غالباً، يدسونه عنوة في صدورنا.

كان يمكن أن أترجل من رحم، على حاجز شائك، وسط شمس قائظة، وطريق عابسة، وتراب قاسٍ، وأقدام جنود تطأ رجالاً بلا هوادة، وتلبط الحصى والحوائج والبقج والصحاحير والرؤوس والأرحام والأعناق المسكونة بوجل التحدي.

كان يمكن أن أولد متسللاً بهدوء، داخل الحصار، وفي ساعات منع التجول. فمثلي يعرف الطريق إلى فراش من حَجَر حنون، وغطاء من لمس السنابل، وهواء من برتقال، وملامسة من نرجس، وثدي من غيمة، ونوم على قارعة السماء. مثلي يعرف العبور من هنا إلى الهناك البعيد.

كان يمكن أن أولد ببشاعة أكثر، وذلٍّ مضاف، وأحزان شاهقة، ومقت فائق.

هكذا كنت أولد، أنا الفلسطيني، ولا أزال، فمن يشبهني؟

كان يمكن أن أولد ولم أفعل، لأن صبرا وشاتيلا كانت تشرب دمي وتسد الرحم بحراب البنادق وتقتل النطفة في سرير الشهوة... فمن يشبهني في حضوري وغيابي؟

II

إلى آخري وإلى آخره

كان يجب أن أولد على يدي طبيب، فتستقبلني أمي، صاحبة المعجزات في مزج آلام العودة، بفرح الإبداع، فتضعني على بطنها العاري، فأنتسب إليها، باللحم والصوت والجسد.

ثم تضمني إليها، وتسميني اسماً شغوفاً بالأجداد، لحمل الإشارة والبشارة. ثم تمنحني ثديها فأستسلم لمشهد الحياة ولذاتها المتصلة.

كان يجب أن أوضع في ملاءة بيضاء، داخل غرفة بيضاء، مع أطفال صغار نبتت لهم أجنحة ملائكية بيضاء.

كان يجب أن أحاط بالهدايا. أتصور أبي قادماً وفي شفتيه قبلة يطبعها على جبين أمي المعروق، ويختلي بي ويهمس في أذني اسم العائلة، ورجاءات الحياة، أو الحظ الجميل، والسمعة الطيبة، وزينة البلد.

كان يجب أن تشاهدني أختي وتلثم أناملي وهي تعبثُ بالهواء، كان يلزم أن يتخلى أخي عن حَسَده الطبيعي ويقدم لي باقة من حبه ويرسم حول أذني صوته لأتعرف إليه بين الصبيان.

كان يجب أن أعود إلى المنزل، فتستقبلني الجارة، بزغرودة، وتضع لي الجدة خرزة زرقاء، ويصلي عليّ كاهن القرية، ويلبسني ثوب المعمودية، تمهيداً لقربانة الإيمان. كان يجب أن يقدموا الزبيب والجوز واللوز والمغلي وحساء الأينر، وحبوب الملبس البيضاء.

كان يجب أن أسمع الجميع وهم يحدثونني، أو يتحدثون عني...

ولكن ذلك لم يحدث أبداً.
فلقد ولدت، ولم تكن أمي معي،
ولقد ولدت، ولم يكن أحد معي،
ولقد ولدت، ولم أجد مكاناً يخصني أضع فوق مسامه جسدي.

حدث ذلك منذ أكثر من نصف قرن. لأنهم أخذوا منا فلسطين، وطردوا العريس من بيته الزوجي، وطاردوا المرأة خارج فراشها، وأنجبت هذه الأرض دولة. منعت عنا النوم والولادة والجنس الطيب، وعوّضت علينا بالشتات واللجوء والاغتراب والقتال والمنافي.

كان يجب أن أكون مولوداً مبتسماً. ولكنني ولدت عبوساً. لم أتعرف على أرضي. لأن من لا يعرفها، وعاش بعيداً عنها، قدم إليها وأقام سريره فوقها، وحرسه بالبنادق، ومنعنا من ممارسة الأحلام.

كان يجب أن أولد في فلسطين...
فولدت في مخيم اليرموك، أو في خيام اللجوء في لبنان، أو في مدن التنك في الجنوب أي في الطرقات. ولدت في المنافي. ومن أتيح له أن يولد في فلسطين، فقد كان عليه أن يتخلى عنها منذ الولادة، وأن يحزم حقائبه، ويسافر، قسراً أو طرداً.

حدث ذلك، لأن يهوداً جاؤوا من خلف البحار، وحذفونا من المكان، وأقاموا فيه. ومنعونا عنه.

كان يجب ألا يحدث ذلك.. ولكنه حدث. وكبرت، أنا الفلسطيني، حاملاً على كتفي، ما حمله أبي.

«إلى أين تأخذني يا أبي؟
إلى جهة الريح يا ولدي...
ـ ومن يسكن البيت من بعدنا يا أبي؟
ـ سيبقى على حاله مثلما كان يا ولدي؟

تحسَّسَ مفتاحه مثلما يتحسَّس أعضاءه، واطمأن. وقال له وهما يعبران سياجاً من الشوك:
يا ابني تذكرا هنا صَلَبَ الإنكليزُ أباك على شوك صُبَّارة ليلتين، ولم يعترف أبداً. سوف تكبر يا بني، وتروي لمن يرثون بنادقهم سيرة الدم فوق الحديد...

ـ لماذا تركت الحصان وحيداً؟
ـ لكي يؤنسَ البيتَ يا ولدي
فالبيوت تموت إذا غاب سكانها...
وتفتح الأبدية أبوابها، من بعيد،
لسيارة الليل، تعوي ذئاب
البراري على قمر خائفٍ، ويقول
أب لابنه: كن قوياً كجدك!
واصعد معي تلة السنديان الأخيرة

يا بني تذكر: هنا وقع الانكشاري
عن بغلة الحرب، فاصمد معي
لنعود

ـ متى يا أبي؟
ـ غداً، وربما بعد يومين يا ابني!

وكان غد طائش يمضغ الريح
خلفهما في ليالي الشتاء الطويلة
وكان جنود يهوشع بن نون يبنون
قلعتهم من حجارة بيتنا ...

ـ هل تكلمني يا أبي؟
ـ عقدوا هدنة في جزيرة رودس
يا ابني!
ـ وما شأننا نحن يا أبي؟
ـ وانتهى الأمر.
ـ كم مرةً ينتهي أمرنا يا أبي؟
....
ـ هل سنبقى، إذاً، ههنا يا أبي؟
تحت صفصافة الريح
بين السموات والبحر؟
....
ـ هل كنت تحلم في يقظتي يا أبي؟
ـ قم، سنرجع يا ولدي!
....

ـ هل تعبت من المشي يا ولدي
هل تعبت؟
ـ نعم يا أبي
طال ليلك في الدرب،
والقلب سال على أرض ليلك
ـ ما زلتَ في خفة القط
فاصعد إلى كتفيَّ
سنقطع عما قليل
غابة البطم والسنديان الأخيرة
هذا شمال الجليل
ولبنانُ من خلفنا
والسماء لنا كلها من دمشقَ
إلى سور عكا الجميل
ـ ثم ماذا؟
ـ نعود إلى البيت
هل تعرف الدرب يا ابني
....
ـ يا أبي، هل تعبت
أرى عرقاً في عيونك؟
ـ يا ابني تعبتُ ... أتحملني؟
ـ مثلما كنتَ تحملني يا أبي
وسأحملُ هذا الحنين
إلى أولي وإلى أوَّلِهْ
وسأقطع هذا الطريق إلى
آخري ... وإلى آخره».

(محمود درويش)

فلأنني ولدت في المنافي البعيدة، فَإننا عائدون.
نعرف بيتنا. مفاتيحه في عب جدتي، أورثته لأمي، ولما ماتت أمي، حفظته أختي، ووضعته فوق كتب الصلاة ومواعيد الغزل المشتهى.

نعرف قريتنا. أعرف قرانا. حتى تلك التي أبادها الصهاينة في إسرائيل، ونعرف حكاياتها، وعدد أشجارها وكم قلَّة من الزيتون تُغْدق، وما طعم البرتقال، وكيف تنسج الغيوم غزلها في التلال، وماذا يكشف الليل عندما يختبىء خلف نوايا الصبايا.

لأنني ولدت بعيداً... لأننا ولدنا ومتنا بعيداً.... لأن الذين سيولدون يوماً، مشتاقون لملاءة فلسطينية، فإننا نحمل آباءنا وأجدادنا، وأمهاتنا معنا، ونعود.

أنا هو هذا الذي ولد على صليبه ... وعليه أن يصنع قيامته مراراً.
فمن يشبهني؟

III

خبزنا لا يكفي يومنا.

الأمر الطبيعى أن أولد، وكان يجب أن أوأد، أو أن لا أوجد. لأن نجاح الصهيونية يقضي بأن يكون الفلسطيني بعيداً عن فلسطين. أي، أن لا يكون. ولكنني كنتُ، إنما بطريقة مختلفة.

كبرت. صرت طفلاً كامل الرجولة. يطلب مني أن أقوم بأعمال جدية. كان بودي أن أجد لعبة للتسلية، أن أخضب شعري بالعطور، أن أمتطي دراجة، أن أقتني كرة قدم، أن أمارس القراءة

بمتعة، أن أكتب شعراً فرحاً، وأتلو قصائد غزلية، بدل التمرُّن أتمرن على مراثي الأنقاض والأطلال، ومدح الرصاص والقتال.

كبرت. كانت طفولتي متلعثمة. ألا تصلح أصابعي لتعلم العزف على البيانو؟ ألا أصلح لتمثيل «عطيل» أو «الأمير الصغير» أو حكاية «إبريق الزيت»؟ أليس قوامي صالحاً للرقص والدبكة وإيقاع الروح؟ هل بإمكاني أن أكون طبيباً في المستقبل؟ عالماً رياضياً، يتقن النسبية، ومعرفة اللاوعي، وأكون فرويد فلسطينياً، وأنشتاين عربياً؟ ألم يكن من الأفضل أن أكتشف مواهبي في التأليف والبناء والعمران والحضارة كما فعلت سلالات سبقتني؟ لماذا خصوني بالفقر والبؤس والمرض والهزال؟ وظفوا أصابعي في خدمة الزناد، ويدي في توزيع البضائع والخضار والعُتالة، وأطلقوا العنان لقدمي لممارسة التشرد والتسكع، ووظّفوني في حمل الرصاص، والتدرب على القتال.

سموني شبلاً في مخيمات التدريب. طلبوا مني أن أناضل، أي أن أحمل السلاح وأقاتل، كي أعدو إلى بلدي.
من سمح بتشويه طفولتي وصباي وشبابي؟

كان يجب أن أدخل المدرسة بطريقة منتظمة. مدرسة أتدرج فيها من الحضانة إلى الابتدائي والتكميلي والثانوي والجامعي وما بعد الجامعي. هذا حدث لبعضنا، إنما بطريقة عجائبية. وصل بعضنا إلى المنافي. إلى مستويات عالية. ولكن هذا الشواذ لم يصب الأكثرية، فظلت ترضع أيامها بؤساً وتعاسة وتشرداً... وملاحقة.

كان يجب أن يكون لي بيت من حجر. لا كومة من تنك وزنك

أسميها بيتاً. كنت أحب أن أرى بلادي التي أتخمت بالحديث عنها. أعرف تاريخها عن ظهر قلب، ولم أرَ حبة تراب منها. لا زرت بيت لحم، لأصلّي إلى جانب يسوع، ولا عرفت القدس، وبيت حنانيا. لم أتمتع برؤية البحر في عكا، ولا تلال الجليل. المخيم كابوس لا يمكن الاعتياد عليه. كلنا كنا نحب كتاب التاريخ، وما كنا نبيع كتاب الجغرافيا. خريطة فلسطين مقدسة. ولكن، أليس بائساً أن تشتاق فقط إلى فلسطين، وتراها معلقة على خريطة. من يعبد خريطة؟ من يتزوج صورة الحبيبة؟

عشنا في المنافي، ونحن نشتهي وجودنا الحقيقي، ففي المخيم، أنت موجود بالإعارة، موجود بالمذلة. موجود لأن وجودك في أي مكان آخر، غير وطنك، ثقيل ثقيل. نصف قرن من اللجوء، وأكثر. نصف قرن من الشوق وأكثر. هل زرتم مخيماتنا في لبنان؟

ولما عاد قليلون منا إلى ما تيسّر من فلسطين بعد اتفاقيات أوسلو، ظنوا أنهم عادوا إلى وطن. يا حرام. عادوا إلى أمكنة محاصرة، لا يستطيعون الخروج منها، إلّا بإذن ذليل من الاحتلال. ظنوا أنهم عائدون إلى الحرية وفوجئوا بأن حريتهم سجينة الحراب والحصار والسلاح الإسرائيلي... ظنوا أن سلاماً سيأتي على صهوة التوقيع والمفاوضات. وصدموا عندما عرفوا أن المفاوضات هي سياسة لتغطية الاحتلال وتأييده.

كانوا يحسدوننا في مخيماتنا، لأننا نملك من الحرية أكثر منهم. ولعلهم شعروا بالخيانة عندما اضطروا، بسبب الفقر المدقع، إلى أن ينضموا إلى قافلة العمال في قطاع البناء.

بناء ماذا؟

بناء المستوطنات.
إنهم يبيعون قوة زنودهم لبناء قبور لهم ولوطنهم. ليس في اليد حيلة. الفلسطيني موظف مغلوب على أمره، مضطر كي يأكل أن يخدم الإسرائيلي في المطعم والمصنع والمتجر وكنس القاذورات، و... حمل المعول الحديث والسريع، لحفر قبره بيده.

ترحموا على حياة المخيم. رأوا إلى جحيمه نعيماً. كان الفلسطيني كي يبقى على قيد الحياة، عاملاً مزرياً، أن يشتري بطاقة عمله في إسرائيل، في وطنه السابق، بإذن يدفع ثمنه من كرامته.

وكان ينتظر على الأبواب، من الفجر... حتى يأذن الدكتاتور الصغير، بفتح بوابة العبور، بالقطارة... ليعمل، من «أجل خبزنا لا يكفي يومنا».

IV

لا أحد يشبهني

كان يجب أن أعيش بشكل طبيعي، لا أن أتعلم فنون الكرّ والفرّ، لا أن أتلعثم في الانتقال من الاثنين إلى الثلاثاء، لا أن تكون وظيفتي اليومية، البحث عن اسم اليوم الذي ينازلني من الصباح حتى أذان الفجر. كان يجب أن أكون مواطناً يعشق ويتأمل ويتسلّى ويذهب إلى المقهى ويتأبط أحلامه. كان يجب أن أكون إنساناً عادياً جداً، كغيري من الناس. لكن حياتي لم تكن كذلك.

أي حياة هذه التي تستقر فيها الأحزان وتتوارث كأنها واجب مقدس وهدية ثمينة؟ أي حياة أن تكون جدران بيوتنا مساحة

لوجوه أجداد وآباء وأمهات وأخوة استشهدوا، أي قتلوا، أي قتلهم الإسرائيلي، بعدما انتزعت منهم أرضهم وشردتهم، وكدستهم في بؤس المخيمات، وعذبتهم على الطرقات الملتوية والشائكة، وأهانتهم أمام الحواجز، ومرنتهم على العيش في السجون؟

أي حياة أن يتدرج الفلسطيني في حياته، من مولود بالصدفة في مكان ما، إلى فتى يتجول في الطرقات بحثاً عن عمل أو لقمة، أو يتدرب في مخيم على فنون رمي الحجر والمقاومة؟ أي حياة أن لا ينجو أحد من سجن أو عقوبة أو رصاصة أو شهادة؟

عندما أقرأ عن جحيم الإسرائيلي، بسبب الانتفاضة، أسخر من طاقته على الاحتمال، فما يراه جحيماً، أراه مترفاً وباذخاً. موتي يختلف عن موته، ودمي من فصيلة منحطة، فيما هو من رتبة نقية بيضاء. يا للعار! يا لهذه البشرية العفنة!

قليل من نسيج حياتنا يوضح أي مأساة خلّفها الإسرائيلي. إنهم يأكلون من لحمنا. يشبهون البرابرة بربطات عنق، ويخططون لمجازرهم في صالونات جميلة، ومقاهٍ فخمة، ويلبسون الثياب المعنونة، فيما اعتدنا على الوقوف ساعات بانتظار لذة مرة، وشهوة قاتلة، وتسلية مميتة. ولم تتعرف أجسادنا إلّا على الثياب المرقطة، فكأنها صنعت لأجسادنا.

كيف أنا؟ كيف نحن؟
سأروي:

كان يمكن أن يكون اسمي صلاح الفقيه:

«ولدت في القدس، والتحقت بالجامعة المفتوحة. جدي استشهد بعبوة في القدس الغربية. خالي استشهد في اللد. بيتنا مزدان بالأحزان. ومع ذلك حاولت البحث عن فرحي وسط ركام وحطام حياتي المتوارثة. شكلت فريقاً رياضياً، شاركت في عدة مباريات. ثم أحببت وخطبت رباب، طالبة في كلية القدس، قسم الصحافة، وهممت بالزواج، إلّا أنني أجلت الموعد لشهور قليلة، كي يتسنى لقريبي أن يسبقني في طريق السعادة. بعد أيام أصبت برصاصة في الرأس. استشهدت. حملوني إلى أمي. كيف ستعيش أمي؟ فقدت زوجاً وابنة في السادسة عشرة وشقيقاً لي»؟؟!

سأروي: كان يمكن أن يكون اسمي محمود العمواسي:

«ولدت في عمّاوس في منطقة اللطرون التي أقيمت عليها حديقة «كندا بارك» بعد تدميرها سنة ١٩٦٧. يومها طرد أهلي وأقاربي وسكان القرية جميعاً. كنت أحب زيارة قريتي وما تبقى من فضائها وشمسها وذكرياتها. ورغم المعوقات الإسرائيلية، والعذابات المذلّة، كنت أصرُّ على الزيارة. إنه حج مريح إلى مقام مسقط رأسي ومسقط رأس عائلات، فقدت صلتها بهذه الرحم. شاركت في الانتفاضة الأولى. كان لي من العمر ١١ سنة فقط. اعتقلوني ثلاث مرات. وغرمت بمبالغ مالية كان على أهلي أن يجهدوا لدفعها للإفراج المؤقت عني. وأذكر أنني أصبت في الانتفاضة الأولى، برصاصة في الرأس، فنقلني أحد العملاء إلى المستشفى وقام بالتبليغ عني، لكن أصدقائي هربوني وأحضروا لي طبيباً للعلاج في البيت. في الانتفاضة الثانية استشهد رفيقي عماد العاني، فخرجت في مظاهرة وداعه. انتظرتني امرأتي في البيت. كانت قادمة من دمشق. ولم يمر على زواجنا غير يومين اثنين. ولكني لم أعد أبداً. زوجتي لم تعش الحياة الزوجية إلّا يومين».

أي عذاب؟
كان يمكن أن أكون عمر عابد... أقتل بعد زواجي بثلاثة أشهر برصاصة من طائرة في رأسي، وأن تبكي زوجتي الحامل وأن تصاب بحالة هستيرية. كان يمكن أن أدعى رائد حموده، أقضي أربع سنوات في السجون الإسرائيلية، وأستشهد مخلفاً أحزاناً. كان ممكناً أن أكون كل الذين سبقوني إلى منصة الحجارة، لأطلق العنان لغضبي وانتفاضاً لكرامتي. ولكنني أكثر بؤساً من ذلك.

وبالرغم من كل ذلك، فإن إسرائيل والمنظمات الصهيونية تحاربنا في فقرنا. وتمنع الجمعيات الخيرية المحايدة من التعاطف معنا، لتزويدنا ببعض ما يجعلنا بشراً.

حقيقة، هذه البشرية تحتاج إلى كثير من الإنسانية، لتصير لائقة بنا. إزاء ما عانيناه، منذ النكبة الأولى، تمنع إسرائيل أي تضامن معنا، على المستوى الإنساني، للتخفيف من عذاباتنا. وتتهم من يقف إلى جانب أحزاننا، بأنه معادٍ للصهيونية ولا سامي.

قامت حملة في الولايات المتحدة الأميركية باسم لجنة الطوارىء للأرض المقدسة، (H.E.L.P) غايتها توجيه أنظار الأميركيين إلى حالة اللاجئين العرب لمساعدتهم والتخفيف من حدة الشقاء الذي يعانون. ويروي ليلنتال أن رئيس هذه المنظمة الدكتور هنري سلوين كوفن، كان يرأس اتحاد مدارس اللاهوت. وقد جمعت هذه اللجنة حوالى ثلاثين شخصية من رجال الدين والقضاء ورؤساء الكليات والدبلوماسيين والكتّاب والمحسنين. وفي بيانها الأول دعت لإيجاد حل سريع لمشكلة اللاجئين العرب. ولئلا تؤول غاية المنظمة إلى أهداف سياسية معينة، أو ضد إسرائيل، فقد أذاع القائمون على

المنظمة ما يلي: «لا يهمنا كيف أو لماذا نشأت قضية اللاجئين العرب، وكل ما يهمنا أن هناك مئات الألوف منهم، وواجب منظمتنا ينحصر في توجيه أنظار الرأي العام الأميركي إلى حالتهم التعسة».

ونالت هذه اللجنة من الصحافة الأميركية فتوراً ونقداً مبطناً. بينما استشرست الصحافة الصهيونية ضدها، ودفعت حاكم ولاية ماستشوستس كريستيان هوتر إلى الاستقالة من نيابة رئاستها.

هذا نموذج بسيط من الاضطهاد والقمع والترهيب الذي مارسته الصهيونية ضد وجودنا البائس في أماكن اللجوء المزرية، والمخيمات الجائرة.

ولكم أن تتعرفوا إلى وجع آخر. كيف يدافع الفلسطيني عن فقر، ويرفض تحسين وضعه، في المدن والبلدات التي سقطت عام ١٩٤٨. من يتصور إنساناً بائساً فقيراً معدماً مضطهداً، يرفض تحسين أوضاعه على يد مغتصبه، ويفضل البؤس لأن هذا البؤس يشده ويربطه بمكان إقامته.

سأروي:

يقدم ليلي غاليلي وأوري نير وصفاً لمدينة حيفا نشر على موقع صحيفة «هآرتس»:

«عرضت الحكومة الإسرائيلية بعض الحلول السكنية لسكان يافا العرب في إطار مشاريع معينة. إلّا أن العرب ينظرون إليها بارتياب، على الرغم من إدراج حي العجمي (أكثر الأحياء فقراً وبؤساً) وحي ليف يافا في مشروع التجديد، إذ إنهما لا يزالان مهملين. وينظر الكثيرون من سكان يافا العرب إلى مشروع إعادة التأهيل على أنه يهدف إلى تحويلهما إلى مركز جذب لليهود»...

فمقابل إمكانية تهويد المدينة بكامل أحيائها، يصر العرب على البقاء في القدس خاصة، إذ لا مكان آخر يذهبون إليه.

سأروي عن اللد: «في قلب إسرائيل تقع مدينة مختلفة يبدو أنها ما زالت جزءاً من منطقة حرب، وفي الواقع، هناك علامات من حرب ١٩٤٨ ما زالت ماثلة للعيان؛ بنايات مهدمة لم تتجدد، أجزاء من هياكل أبنية لم يعد بناؤها: أحياء لعائلات من اللاجئين لو قوبلت بمخيم جباليا في غزة لبدا قياساً بها حياً مزدهراً... وفي اللد، ما زالت الحرب مستمرة بين السلطات المحلية ضد المواطنين الأصليين من العرب».

«ويعيش العرب في اللد في أحياء منعزلة عن الأحياء اليهودية. وفي بعض الأماكن، يفصل بين الأحياء العربية واليهودية جدر مرتفعة، ويطالب اليهود بمزيد من الجدر... وفي اللد يجري بناء جدر وحواجز أخرى تفصل بين حي وآخر. والآن يطالب أيضاً سكان موشاف تسفي نير بإقامة جدار يبلغ طوله كيلومتراً وارتفاعه أربعة أمتار لفصلهم عن الحي العربي المتاخم للموشاف... اللد هي أكثر المدن المختلطة في إسرائيل إهمالاً وتخلفاً. جميع الأراضي التي تتميز بها المدن المختلطة متوفر فيها: لاجئون. أغراب. إهمال. تمييز عنصري. جريمة. مخدرات... اللد هي مزبلة البلد... التي ألقت الدولة فيها بالفئات ذات المشكلات الأعقد من سكانها».

تماماً، كما فعل المهاجرون البيض عندما غزوا أميركا. صارت اللد، محطة لبيع المخدرات، وعلى عينك يا تاجر.

ومع ذلك، يصر العربي على عدم تحسين موقع إقامته الموبوء، كي لا يصير مطرحاً لقدوم اليهود إليه. لأن المقاولين اليهود، لن يقبلوا بإقامة مساكن، يقيم فيها عرب، ما يجعل المدينة بكاملها، عرضة

للتهويد التام وتهجير العرب إلى لا مكان.

ماذا أقول؟!
أنا الفلسطيني، لا أحد يشبهني.
ماذا تريدون أن أعدد لكم؟ إننا في الذروة من المأساة وتتجمع عندنا كل المشكلات التي تعاني منها البشرية، في مناطق عذابها.

لا وطن لدينا. لا إقامة دائمة.
بطالة مستشرية.
فقر فوق طاقة الاحتمال.
سجن، وقمع، واضطهاد وإذلال على مدار الثواني والدقائق والساعات والأيام والسنوات والعقود وصولاً إلى قرن من الزمن.
عندنا تمييز عنصري مفضوح ومدعوم دولياً.
عندنا قتل واغتيالات مدبرة ومهندسة ومبررة دولياً.
عندنا مخيمات ولاجئون ومهمشون.
وعندنا، برغم كل ذلك، أمل عنيف. أمل لا نكذب عليه. أمل يقاوم كل يأس، بأننا سوف نعود، وأن لنا وطناً سنستعيده، وأن الصراع مفتوح، إلى يوم قيامة فلسطين.

V

أقوال وأفعال مأثورة

١ ـ أقوال مأثورة:

«فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض». التوقيع، إسرائيل زانغويل.

«صدف أن بلداً اسمه فلسطين، وهو بلد بلا شعب». وثمة من ناحية أخرى، شعب يهودي وهو لا يملك بلداً. إذاً، لا يبقى سوى وضع الفص في الخاتم وجمع الشعب والأرض». التوقيع: حاييم وايزمن.

«الأرض الخالية، لا تعني أنها خالية من السكان فعلاً، بل خالية من الحضارة، الأمر الذي يبرر الاستيطان والتعامي عن مصير السكان الأصليين». من خطاب السيد روبين.

«سنسعى لتهجير السكان المعدمين عبر الحدود من خلال تدبير الوظائف لهم في بلاد الانتقال لأننا سنمنعهم من القيام بأي عمل في بلدنا. إن أصحاب الأرض سيلتحقون بنا. وعلينا الاستيلاء على الملكية-وترحيل الفقراء. ينبغي أن يجريا معاً بصورة متكتمة وحذرة». التوقيع: تيودور هرتسل، في يومياته.

«إذا أردنا أن نعطي بلداً لشعب بلا بلد، فمن الحمق بمكان أن نسمح بأن يصبح في هذا البلد شعبان.. لا يمكن أن نسمح للعرب بمنع حدوث مثل هذا الحدث التاريخي العظيم لإعادة البناء... من هنا علينا أن نقنعهم بلطف بأن يرحلوا نحو البادية. أليست جزيرة العرب كلها لهم؟ ليس ثمة ما يدعو العرب إلى التمسك بهذه الحفنة من الكيلومترات». زنغويل أيضاً.

إن عرب فلسطين «يشبهون» صخور منطقة يهوذا، فهم عوائق يجب إزالتها عن هذا الدرب الصعب». حاييم وايزمن مرة أخرى.

«العربي يجب ألا يصبح، ولا يمكن أن يصبح صهيونياً. ولا يمكنه

أبداً أن يأمل بأن يرغب في أن يصبح اليهود أغلبية في البلد. وهذا هو العداء الحقيقي بيننا وبين العرب. كلانا يود أن يصبح الأغلبية». بن غوريون كذلك.

«إن السكان الفلسطينيين الأصليين يحاربون لإبقاء فلسطين بلداً عربياً. إنهم يحاربون ضد خسارة كل ما يملكون... فالخوف ليس من فقدان الأرض بل من فقدان وطن الشعب العربي، الذي يسعى آخرون لتحويله إلى وطن للشعب اليهودي. إن العربي يحارب حرباً لا يمكن تجاهلها. فهو يشارك في الإضراب ويقدم التضحيات الجسام». بن غوريون أيضاً وأيضاً.

«إذا أردنا خلاصاً يهودياً ١٠٠٪ فلا بد لنا من استيطان عبري ١٠٠٪، ومزرعة عبرية ١٠٠٪، ومرفأ عبري ١٠٠٪». بن غوريون، «النبي المسلّح».

«عليّ أن أدافع عما قمت به من تبشير ربات البيوت بأن لا يشترين من الدكاكين العربية، وأن أمنع العمال العرب من الحصول على عمل هناك... وأن أسكب الكاز على البندورة العربية، وأهاجم ربات البيوت اليهودية في الأسواق، وأحطم البيض العربي الذي اشترينه.. إن شراء دزينات من الدونمات من شخص عربي أمر مسموح به، لكن بيع دونم يهودي واحد، إلى شخص عربي، أمر ممنوع». التوقيع: زعيم حزب الماباي دافيد هاكوهين.

«نحن اليهود، والحمد لله، لا شأن لنا بالشرق... يجب تكنيس أرض إسرائيل من الروح الإسلامية... العرب رعاع يزعقون، ثيابهم رثة ذات ألوان صارخة متوحشة». التوقيع: جابوتنسكي.

«ليس العرب أمة، بل إنهم خلد ولد في فلوات الصحراء الأبدية. إنهم مجرد قتلة». التوقيع: يائير شتيرن.

«أنا سأحارب من أجل ذلك، وسأتأكد من أننا سنصبح أصحاب الأرض.. لأن هذه الأرض لنا وليست لهم». التوقيع: مناحيم أوسيشكين.

«لقد توصلت إلى اقتناع واستنتاج بأن ليس ثمة وسيلة للوصول إلى اتفاق سلام مع العرب من دون التخلي عن مطالبنا الصهيونية الأساسية». التوقيع: روبين مرة أخرى.

«أين يذهبون؟ على ماذا يحصلون في المقابل. إن الأمر يتضمن اقتلاعاً وصدمة لم يحدث مثلها، وقد يغرق البلد في أنهار من الدم. وعند هذا الحد دعنا لا ننجرّ وراء أوهام المقارنة مع تبادل السكان بين تركيا واليونان. العرب الذين سيبقون سيثورون». التوقيع: شرتوك.

«إني أرى قبل كل شيء صعوبات جمة في اقتلاع نحو مائة ألف عربي من قرى الجليل بقوة أجنبية، بعد أن عاشوا فيها مئات السنين... علينا أن نطرد العرب ونحتل أماكنهم، وإذا اضطررنا إلى استخدام القوة. لا لاقتلاعهم من الأرض في النقب وشرق الأردن، بل لضمان حقنا في استيطان هذه الأماكن، فإن مثل هذه القوة في تصرفنا». بن غوريون طبعاً.

«إن موضوع ترحيل السكان أثار النقاش في صفوفنا: هل مسموح به أم محرّم؟ إن ضميري مرتاح جداً في هذا الخصوص. فالجار

البعيد أفضل من العدو القريب». التوقيع: زعيم عمالي معارض ـ بيرل كاتسنلسن.

«أنا لا أعارض حقنا الخلقي في اقتراح ترحيل السكان. ليس ثمة خطأ خلقي في اقتراح يرمي إلى تركيز نمو الحياة الوطنية... هناك رؤية إنسانية نبيلة». التوقيع: أهارون زيسلنغ.

«سأوافق على أن يغادر العرب البلد. وسيكون ضميري مرتاحاً تماماً». السيدة غولدا مئير سون... مائير فيما بعد.

«هذا الترحيل، حتى ولو تمَّ بالقوة ـ المشاريع الخلفية تنفذ كلها بالإكراه ـ فسيكون الحق إلى جانبنا بكل معاني الكلمة... يزعمون هنا أن الترحيل استفزاز سياسي، ليس من استفزاز في الأمر. إنه برنامج عادل، ومنطقي، وخلقي، وإنساني، بكل ما في هذه الكلمات من معنى»، التوقيع: إلياهو هكرملي.

«إنني مقتنع بأن من المستحيل أن ينفذ الترحيل من دون القسر. ولا أرى في ذلك أي إجراء غير خلقي. أريد أن أساعد اليهود على المجيء إلى الدولة اليهودية وأن أساعد العرب على العبور إلى الدولة العربية». توقيع شموئيل دوخوفتسكي.

«إني أصر على الترحيل القسري لسكان الريف العرب كافة عن الدولة اليهودية إلى الدولة العربية. وهذه خطوة تمهيدية نحو بناء الدولة اليهودية». من خطة سيلغ أوجين سيسكين.

«يجب أن يكون من الجلي بيننا أن لا سكان لشعبين في هذا

البلد... ليس من مجال للحلول الوسط في هذا الصدد. إنني مصاب بيأس متزايد. إن الفكرة الصهيونية هي الرد على المسألة اليهودية في أرض إسرائيل، وفي أرض إسرائيل وحدها، ولكن، لا لكي يبقى العرب أغلبية فيها. إن تهجير البلد، البلد بكامله من سكانه الآخرين، وتقديمه إلى الشعب اليهودي، هما الرد». توقيع: يوسف فايتس.

«أرحب بتدمير يافا، مدينة ومرفأ، فليحدث هذا الأمر، إذ سيكون ذلك من الأفضل. إن هذه المدينة سمنت من الهجرة اليهودية والاستيطان. تستحق التدمير لأنها رفعت الفأس في وجه من بناها وجعلها تزدهر. إذا ذهبت يافا إلى الجحيم فلن أحسب نفسي من الباكين عليها». من أقوال بن غوريون.

إنها أقول مأثورة لقادة ورواد وكتّاب ومسؤولين ورؤساء مراكز وأحزاب إسرائيليين.

إنها تؤرخ للمأساة الفلسطينية بالأقوال، فكيف إذا سجلنا أفعالهم المأثورة، كما كتبها يهود، منذ أحاد هعام حتى بني موريس.

٢ ـ أفعال مأثورة

«إن اللغة الوحيدة التي يفهمها العرب هي لغة القوة... (الرواد) يتصرفون تجاه العرب تصرفاً عدائياً شرساً ويعتدون على حدودهم من دون حق، ويضربونهم على نحو مشين من دون سبب، بل ويتباهون بذلك. ولا أحد يقف لمنع هذا النهج الحقير والخطر»، ويرى هعام أن من أسباب الموقف العدواني حيال الفلاحين

الأصليين، أنهم كانوا «حانقين، حيال من يذكرهم بأن ثمة شعباً آخر في أرض إسرائيل وأنه يعيش هناك ولا ينوي مغادرتها».

إن أول عملية تهجير فعلية جرت سنة ١٩٠٥، عندما تآمر المستوطنون مع بعض الإقطاعيين من لبنان لشراء أراضٍ في قرية المطلة في الجليل الأعلى، وتهجير الفلاحين. وكان أحد المستوطنين الصهيونيين قد كتب في حينه عن شدة تعلق الفلاحين بأراضيهم: «لقد بكت حتى دوابهم» عندما أجبروا على الرحيل. بتوقيع سكرتير جمعية الدفاع عن حقوق المهجرين في إسرائيل ـ واكيم واكيم.

«لقد جئنا إلى هذا البلد الذي كان العرب قد توطنوا فيه. ونحن نبني دولة يهودية. لقد أقيمت القرى اليهودية مكان القرى العربية. أنتم لا تعرفون حتى أسماء هذه القرى العربية. وأنا لا ألومكم لأن كتب الجغرافيا لم تعد موجودة. ليست كتب الجغرافيا وحدها لم تعد موجودة، بل القرى العربية نفسها زالت أيضاً. فقد قامت تهلال (مستعمرة دايان) في موقع معلول، وكيبوتز غفات في موقع جباتا، وكيبوتز ساريو في موقع خنفيس، وكفار يهوشع في موقع تل الشوهان، وما من موقع بني في هذا البلد إلّا وكان فيه أصلاً سكان عرب». التوقيع: موشي دايان، في خطبة له، سنة ١٩٦٩.

ومن أفعالهم المأثورة، تطبيقاً لأقوالهم المأثورة ما يلي:

- تفجير مقهى عربي على من فيه في قرية بجة: التوقيع. الهاغاناه.
- إطلاق نار عشوائي في عرب السوارقة: توقيع الهاغاناه.
- تدمير محل عربي في سوق حيفا. توقيع عبوة ناسفة.

- إضرام النار في سينما ركس في القدس. توقيع الهاغاناه.
- قتل ١٢ فلسطينياً في بلدة الطيرة. توقيع الأرغون.
- إلقاء قنابل على مجمعات عربية في باب العمود. توقيع الأرغون.
- تفجير منازل في كرتيا. تفجير وحرق عدد من الحافلات في حيفا وتفجير وحرق ١٥ حافلة في الرملة. وحرق عدد آخر في طريق بيسان وطبريا. التوقيع مشترك.
- الهجوم شاحنات محملة بالحمضيات، وقتل من فيها على طريق اللد ـ قلقيليا. التوقيع: نحن.
- قتل امرأة وخمسة أطفال في هجوم على قرية الخصاص. توقيع موشي دايان.
- قتل خمسة أطفال في بلدة قزازة وتفجير بيت المختار على من فيه. توقيع الهاغاناه.
- قتل ١١ مدنياً في باب العمود في القدس وجرح ٣٢ عربياً.
- حرق جماعة من العمال العرب أمام مصفاة النفط في حيفا. وقتل ستة وحرق ٤٦. توقيع الأرغون.
- إلقاء قنبلة على عرب مجتمعين في شارع مكتظ في القدس. ومقتل ١٥ مدنياً وإصابة ٤٢ آخرين. توقيع الهاغاناه.
- تفجير شاحنة ملغومة في مركز الإنعاش في بلدية يافا. دمّر المبنى. قتل ١٧ مدنياً، وجرح ١٦ آخرين. بين الضحايا نساء وأطفال. التوقيع: ليحي.
- تفجير فندق سميراميس في القدس. مقتل ١٢ عربياً والقنصل الإسباني. توقيع الهاغاناه.
- إلقاء قنبلة وسط حشد من باعة الفواكه العرب والمتسوقين في باب يافا في القدس. توقيع الهاغاناه.
- تفجير مطحنة عربية في قرية بيت صفافا عند تخوم القدس.

وتفجير مصنع عربي للصودا مجهول التوقيع.
- اغتيال ١١ عربياً كانوا في سيارة قرب مدرسة مكفية يسرائيل جنوب يافا. توقيع الأرغون.
- إطلاق رصاص عشوائي على مقهى في الصرفند.

ثم ... للاختصار:
تفجير سيارات. اغتيال سائقين وعمال. شاحنات ملغومة. إلقاء قنابل. إطلاق نار عشوائي على مدنيين في أسواق ومقاهٍ ودور سينما وملاهٍ. إحراق مزروعات. إتلاف مواسم. تخريب جسور. تدمير محطات ومطاحن ومصانع. إرهاب مستمر. اغتصاب واعتداءات. والأمكنة المصابة، كل قرية أو بلدة أو مدينة فلسطينية: الرملة ـ حيفا ـ سوق حيفا ـ المطار ـ طريق يافا ـ يازور ـ اللطرون ـ بيت دجن ـ السافرية ـ وادي النسناس ـ الحسينية ـ (مجزرة متوسطة) الفالوجة ـ شارع العراق ـ المجدل.

ثم ... للتوضيح:
في ٣١ آذار/ مارس ١٩٤٨، وعند الساعة ١٣,١٠، فجرت عصابة شتيرن قطار ركاب القاهرة ـ حيفا في أثناء مروره بين مستوطنتي بنيامينا وزخروف يعكوف. قتل أربعون راكباً وجرح ستون آخرون.
هذه الأعمال، وسواها، لم تعاقب. لأنها ليست أعمالاً إرهابية. بل اعتبرت أعمالاً عسكرية.

وقد نفذت أقوالهم المأثورة، بالطرد، والإرهاب، والمجازر، ومصادرة الأراضي الزراعية، وإعلان حرب اقتصادية على الفلسطينيين. فمن لم يهجر طوعاً، تهجر خوفاً أو طرداً.

أنا الفلسطيني هكذا نفذ بي حكم الإعدام حيّاً مع بقائي على قيد الحياة المتاخمة للعذاب والموت والمنافي.

حدث هذا قبل نشوء دولة إسرائيل. أما ما حصل لي بعدها، فهو أشد فظاعة. صبرا وشاتيلا، بتوقيع آرييل شارون وجماعته اللبنانية المتصهينة، وغريب أن محاكمتها لم تصل في بلجيكا إلى نهاياتها. فقد بترت أقوالها وبتر شهودها، قبل أن تندلع المرافعات. وتمَّ تطويب شارون بعد ذلك، بطلاً للسلام.

حدث هذا بعد نشوء دولة إسرائيل. كفرقاسم. السموع. ولائحة طويلة من الانتهاكات والاغتصابات والمجازر. فماذا أقول؟

قيل لنا أن تكون أعمالنا المأثورة ما يلي:

١ ـ أن نلجأ إلى المحافل الدولية. ففعلنا وحظينا على حقائب كبيرة من القرارات المؤيدة لقضيتنا. أعطونا حبراً على ورق، بما لا طاقة لنا على قراءته. ومع ذلك صدىء الحبر، وبال الورق، وما زلنا نتصيد القرارات التي لا تنفذ. وبينما أنا أكتب يومياتي هذه فزنا بقرار من محكمة العدل الدولية، يدين جدار الفصل العنصري.. حسناً فعلنا. ولكن إسرائيل حثت أميركا على منع إصدار قرار من مجلس الأمن. أميركا أدانت حكم المحكمة الدولية. الفيتو الأميركي كان يقتل منا أحياناً، أكثر مما كانت تفتك بنا أسلحتها المدربة على الطلقات الإسرائيلية.

٢ ـ نصحونا بالتخلي عن البندقية والتفاوض مع الإسرائيلي. ففعلنا، وحصلنا على خديعة أوسلو، التي اغتالتها إسرائيل.

٣ ـ قيل لنا: اذهبوا إلى واي ريفر، وكامب ديفيد ـ وطابا و... فذهبنا وحصلنا على كارثة الاستيطان والجدار، وورقة الطريق،

ومحاصرة الضفة والقطاع، وإعادة احتلالها لعشرات المرات.
وتدمير رفح وجنين و.و.و... مراراً وتكراراً.

٤ ـ طلب منا أن نتخلى عن الحجر. ففعلناها في المرة الأولى، بعد عقوبة تكسير العظام، التي تفتقت عنها عبقرية رجل السلام، إسحق رابين.

٥ ـ حرّضونا أن نغير قياداتنا... أن نتغير كشعب.. ويكاد يطلب منا أن نصبح إسرائيليين فكراً وروحاً، من دون عقوبة الدولة. والكل يعرف أن ذلك مستحيل جداً.

إنهم يطالبوننا بالبقاء تحت أقدام الإسرائيلي مسبحين بحمده، لأنه لم يقتلنا. إنهم يطالبوننا بقبول الخطيئة الأصلية، وممارسة الغفران، وتأليه هذه الدولة القاتلة.

فما العمل؟
أنا الفلسطيني مقتنع بمنطق دافيد بن غوريون حرفياً:

«لو كنت عربياً ذا وعي قومي وسياسي... لقمت ضد هجرة من شأنها أن تسلم البلد وأهله أجمعين إلى الحكم اليهودي».

وبما أنني فلسطيني جداً، وقومي جداً، وسياسي جداً، وواعٍ جداً، فإني ساقاوم.

إلى متى!
أنا الفلسطيني، سأتبع طريقة جابوتنسكي:
«إن الصراع على فلسطين تحسمه القوة الأقوى. فلا استيطان ولا دولة من دون قوة حديدية وستار حديدي».

صح. «إن القوة هي القول الفصل في إثبات الحق القومي أو إنكاره». كما قال أنطون سعادة.
ولكنني لا أملك من القوة إلّا موتي.
فليكن...
إن موتي يخيفهم أكثر من حياتي. والبقية تأتي.
إن حريتي تقيم على قارعة موتي، فبكل فرح، أيها الأعداء، أنا ذاهب إلى حريتي. وسآتي بها.

ملحق

شهود وشهادات

I

يوجين يونيسكو:
أنا إسرائيلي ولا حاجة للتذكير بذلك

س: ما كانت ردة فعلك عندما علمت أن جائزة القدس أُعطيت لك هذه السنة؟

ج: سررت جداً بالطبع، لأن جائزة كهذه ليست كيفما اتفق، هذا وقد كان لي أوائل ممن سبقوني إليها أمثال فريش وبورخيس الذي أجلّه وأحترمه جداً.

وبرأيي، إذا كانت هذه الجائزة أقل شهرة من جائزة نوبل الممنوحة من السويد، غير أنها أكثر أهمية منها لأن مَنَحَة نوبل من الأوروبيين لم تعانِ بلادهم بعد من مساوىء الشيوعية (...).

س: بالنسبة إلى كاتب **Rhinocéros** حيث وصفت صعود الفاشية، ماذا يعني لك تسلّم الجائزة في القدس؟

ج: أنت تعلم أنني لن أحظى بمثلها مطلقاً في أي مكان آخر. فأي بلادٍ كانت ستميزني لتمجيدي مفهوم الحرية الذي بات قديماً ورثّاً في أيامنا هذه؟

إنه لمن الرائع أن تثبت إسرائيل في المنافحة عن هذا المفهوم وأملي أن نراه يتألق يوماً ما في أوروبا.

س: أنتم تتحضّرون لتسلّم الجائزة في إسرائيل التي لا تنعم بسمعة إعلامية نظيفة في كل مكان...
ج: سؤالك يذكرني فوراً بإحدى صديقاتي اليهوديات التي لا تنفك تردد عساها تُسمِعُ صوتها: «أنا لست يهودية إنما فرنسية». كثر قالوا هذا الكلام ودفعوا ثمنه غالياً. ففي محصلة الأمر نرى هؤلاء بالتحديد يرزحون تحت نير الاضطهاد الذي يفلح في نهاية الأمر بالكشف عن أقنعتهم.
لهذا السبب تراهم مضطرين للتوحّد في منظمات داخل بلدٍ ما، وهذا البلد ليست سوى إسرائيل.

أما إذا اقترفت الدولة أحياناً، وبعد تأسيسها أعمالاً مستنكرة كإراقة الدماء، فهذا ما يدعو إلى الأسف. غير أن إسرائيل مهدّدة في كل لحظة بالاندثار وسكانها مهدّدون بالإبادة تماماً كما كان الأمر بالنسبة للأمة اليهودية في المنفى.

أما في ما يتعلق بموقف فرنسا من إسرائيل، فهو موقف فرضته أسباب سياسية بديهية، لأن الحاجة إلى البترول تقتضي ألّا يُساء إلى العرب. أليس كذلك؟

س: هل سبق لك أن زرت إسرائيل؟
ج: نعم، عدة مرات، في الأعوام ١٩٦٣، ١٩٦٥، ١٩٦٧ ولكن قبل اندلاع الحرب. وأنا أتشوّق لرؤية القدس موحّدة لأني لم أرها إلّا من قبة نوتردام في فرنسا.

س: وماذا كانت انطباعاتك عن إسرائيل حين زرتها؟
ج: أنا إسرائيلي الموقف، وهل لي حاجة للتذكير بذلك؟ لهذا الشعب الحق بالحياة وحيّزه ضيّق، وبما أن للعرب أراضي شاسعة، فلا ضرر في أن يقولوا لهذا الشعب «خذوا قليلاً مما لدينا». بالنسبة للعرب هذا العطاء لا يقيم فرقاً، والإسرائيليون سيكتفون بما أُعطي لهم ولن يطلبوا المزيد عما أُعطوا.
هذا ما كنت فعلته لو كنت مكان العرب.

س: هل بالإمكان إقامة الربط بين مسرحك والفكاهة اليهودية؟
ج: بالطبع، هناك بعض الأوصاف المشتركة بين الفكاهيين الناطقين بالـ Yiddish وبين كتاباتي، وهذا لا ينطبق عليّ فحسب، بل أيضاً على بعض الكتّاب التشيكوسلوفاكيين والبولونيين والرومانيين، ففي النهاية الإطار الجغرافي واحد، كما المناخ الثقافي أيضاً.

وبالنسبة لي، فقد اكتشفت المسرح اليهودي وبالتحديد مسرح الـ «Ibbuk» الذي شاهدته يلعب على الخشبة بأداء مميّز، وأنا أعتبره تحفة من تحف المسرح العالمي، ففيه مشاهد حول تطهير الأرواح وهي في عرفي مسرح محض، لأن المسرح في محصلة الأمر ليس سوى تطهير للأرواح، على النحو الذي نراه بوضوح جداً في الـ NÔ اليابانية أو في التراجيديا الإغريقية الكلاسيكية التي تركز على تطهير النزعات، هذا المفهوم الذي قال به معلّمنا أرسطو (...).

* * *

إسرائيل وأبعد أيضاً

(...)
من اليقيني أن الإسرائيليين لا يستطيعون ولا يريدون تدمير العرب. أنا أظن أن إسرائيل تشكل نموذج بلدٍ حر، يمتلك حكومة، معارضة (...).

لكن العالم المسيحي لا يستطيع الاستغناء هو أيضاً عن اليهود، ومن البديهي أن شعباً مضطهداً يمتلك حقاً في رقعة أرضٍ صغيرة ليحيا فيها بسلام، لهذا السبب أراد اليهود بلدهم: لقد هددوا بتحويله إلى مقبرة جماعية!

ولقد سمعت خلال مقابلة تلفزيونية أن المسألة بالنسبة للعرب ليست سوى عملية رفضٍ بيولوجية، ومدير إحدى المجلات الأسبوعية كان يقول إن الإسرائيليين لا يستطيعون التأقلم في هذا الحيّز الجغرافي الذي أُعطي لهم وأنهم لا يعدون سوى أجسام غريبة في هذا الحيّز، أجسام استيطانية (وإني لأتساءل: هل يعتبر القيام بمهام البستاني عملاً استيطانياً؟!) أوروبية وغربية، وأن الإسرائيليين لا يملكون سوى خيار أن يتشرقوا (أي ن يتلبسوا الشرقية هوية حضارية وثقافية). يا له من تناقضٍ فاضح!

أنا عرفت بيروت منذ عقد من الزمن، والصور التي رأيت تظهر لي مدينة شاهقة وغربية. القاهرة ودمشق والكويت في طريقها هي الأخرى إلى اتباع النموذج الغربي، ربما أسرع مما يظن قاطنوها، ومنذ ردح من الزمن سحق المسلمون روحانيّتهم وصوفيتهم، ومن المشروع أن نتساءل عما إذا كانت الديانة الإسلامية ما زالت

واقعية، وأن نتساءل أيضاً عما إذا كانت تداعيات العقلية الجديدة ستمحوها من الوجود.

ولقد كان يُظنُّ منذ ثلاثين سنة أن تلاقي الغرب بالشرق سيكون مثمراً وأنه سيساعد الغربيين على إعادة اكتشاف التقاليد الروحيّة المفقودة والمنسية، أما الحقيقة فعكس هذا الظن حيث إن الشرق هو الذي تغرّب وبتغربه هذا انقلب ضد الغرب نفسه(...).

* * *

إساءة استعمال الكلام

(...) بحسب تصريحات ممثل أحد بلدان العالم الثالث، «فإن مئات الآلاف من الفلسطينيين الذين هُجّروا من وطنهم إلى لبنان هم ضحايا عملية إبادة».

من الواضح للأسف أنه في هذا البلد، هناك أناس يتقاتلون ليبيدوا بعضهم البعض، ولكن حين يُقال لنا أنه يُراد طرد الفلسطينيين من وطنهم، فإني أتساءل أين تراه وطن الفلسطينيين: في لبنان؟ في إسرائيل؟ في الأردن؟ ... نسأل لأن الفلسطينيين الأخر، أعني بهم قاطني فلسطين القديمة، هم أيضاً في وطنهم، أوليس المسيحيون اللبنانيون في هذا الوطن الفلسطيني أيضاً؟ أسأل ذلك لأني علمتُ أن مئات آلاف الفلسطينيين وفدوا إلى لبنان واستقبلوا كأنهم في وطنهم، بالحبور والقبول والعيشة الهنيّة بالرغم من أعدادهم المتزايدة. لكننا نعرف أيضاً أن هؤلاء الفلسطينيين لم يلتزموا الهدوء فحاولوا السيطرة على لبنان وزرع الفوضى في هذا البلد، وذلك عبر تحالفهم مع مسلميه الذين كانوا قبل مجيء الفلسطينيين يعيشون في وئام

وحسن جوار مع المسيحيين، وكلنا نعلم كيف أنهم شيّدوا الدشم المنيعة والمخيمات العصيّة كما هي الحال في مخيّم تل الزعتر، محاولين عبر ذلك تحويل لبنان إلى قاعدة قتالية متقدمة ضد إسرائيل (...).

وعندما تيقن اللبنانيون غير المسلمين أن الحياة مع المسلمين لم تعد ممكنة، أرادوا أن يحفظوا لأنفسهم مساحة جغرافية حيث بإمكانهم أن يحيوا، وحيث يصبح بمقدورهم أن يمنعوا دخول الزوار غير المرغوب بهم إليهم؛ ولم يريدوا ذلك ليطبقوه في كل لبنان، بل في جزء منه هو ما اعتبروه مساحتهم الحيوية الضرورية، نقول هذا الكلام لأن الواقع هو التالي: لقد أعلن الفلسطينيون الحرب على اللبنانيين ما أن دخلوا لبنان! (...).

لم يتنبه أحد كم أن «المسيحيين المحافظين» من اليمينيين (في لبنان) يتكلمون الفرنسية بتألق وإبداع، وهذا لا يدعو إلى العجب لأن ثقافتهم فرنسية وروحهم فرنسية. هم بكل بساطة فرنسيون، وهم أولاً وأخيراً يدافعون عن فرنسا أو عن جزء منها حين يدافعون عن أنفسهم (...) ولكن أن يقول الفرنسيون: إذا سُحق «الفلسطينيون التقدميون» أو طردوا اللبنانيين المسيحيين وبعدهم الإسرائيليين، فلن يتكلم اللغة الفرنسية أحد في هذه المناطق، فهذا كلام مردود لأن اللغة الفرنسية ستبقى متداولة في فرنسا (...).

Antidotes - Gallimard

مقتطفات من ص: ٤٦ ـ ٦٣

II

ناديا تويني:
الرواية الإسرائيلية لنتالي ساروت

عادت السيدة «ساروت» من إسرائيل وقد أمضت فيها حوالى شهرين. جيد، وماذا يعني ذلك؟ هل وجدت هناك مادة لرواية جديدة؟ أو لمسرحية جديدة؟ بالطبع لا!

ها هي تخترق مجالاً جديداً ونوعاً أدبياً متميزاً، إنه كتابة «الشهادات» حيث أقل ما يقال فيه هو أنه لا يشهد على شيء يقيني لأن ما يحتويه لا يمت إلى الجدية بأي صلة.

من المؤلم دائماً أن كاتباً نحبه ونحترمه لما هو عليه من صفات، أي بما يتحلّى به من موهبة لفبركة الأحلام، من المؤلم أن نراه يحشر أنفه بشكل سافر وغير موزون، لا بل بطريقة دوغماطيّة بأمور لا يفقه منها شيئاً.

وليس من الضروري أن أكرّر نقطة البراهين والمبرّرات التي أوردتها السيدة ساروت، لتظهر بساطتها لا بل سذاجتها، وآخرون كثر تولّوا هذه المهمة ويستمرون في توليها رداً على مئات من أمثال السيدة ساروت، آخرون أمثال ليلنتال وفريد لاندر وورودنسون وهيلل وآنيا فرانكوس وغيرهم كثير.

مرة جديدة، تعود السيدة ساروت من إسرائيل، وباندفاع حار ومنافح، تطلق بين السطرين التاسع والعاشر من شهادتها هذه الصرخة المدويّة: «بربكم أين الفتح الاستعماري وأين العنف؟».

بالنسبة للفتح الإستعماري، أطالب ساروت بالعودة إلى تعريف كلمة «مستعمرة» في أي قاموس تختاره، وأنصحها أيضاً بالعودة إلى مقالة لأندريه شيماما نشرها في صحيفة «لوموند» الفرنسية في عدديها الصادرين في الثاني والثالث من شباط/ فبراير عام ١٩٦٤، وفي هذا المقال يذكر الكاتب تقريراً أودعه المطران حكيم، أسقف الجليل للروم الكاثوليك، عناية البابا في الفاتيكان. وأنصح الكاتبة أيضاً بالعودة إلى تصريحات بعض القادة الإسرائيليين، وبالاطلاع عن كثب على سياسة «الإخلاء المنهجي» للمدن والقرى العربية التي ما تلبث أن تمتلىء بعد تفريغها من الفلسطينيين بمهاجرين جدد، هذه السياسة تتتابع منذ حوالى عشرين سنة وبعد إعلان الهدنة، بحيث إنه «لا يمكن اعتبارها نتيجة طبيعية للنزعات التي تطلق الحروب عنانها عادة» (ناتان وينستوك).

إني أسأل: هل تعلم ناتالي ساروت أن «السياسة الزراعية التي تتبعها إسرائيل منذ العام ١٩٤٨ حيال العرب تتلخص بكلمتين: تدمير ممنهج؟».

من الغريب ألا تكلف كاتبة «الشهادة» نفسها، بعد شهرين من الإقامة في إسرائيل، وتسأل الجنرال دايان وكل أولئك الذين يريدون في إسرائيل زرع «المستوطنات اليهودية» حتى داخل المراكز المدنية الأساسية للعرب، مستوطنات تهدف إلى تطبيق خطة تهدف لا إلى محاصرة ومراقبة الأراضي العربية فحسب بل أيضاً إلى ضمّها.

وهكذا «سيتشرّف» الفلسطينيون بملاقاة مصير مشابه لمصير الأفارقة الجنوبيين الذين حكمتهم لعنة القدر باللون الأسود فكانوا ضيوفاً غير مرغوب في إقامتهم بالرغم من كونهم أسياد الأرض ومالكيها الحقيقيين(...).

أما بالنسبة للعنف، فكنت أتمنى ألا أراك (والمخاطَب هو الكاتبة ناتالي ساروت) تتمنين ألا تجبري على التحدث بشأن كهذا بالخفة، وأنا أيضاً كنت أتمنى لو أني لم أضطر إلى ممارسة واجب الإجابة على النحو الذي أفعله اليوم. وإني لأسألك، ألا تعني لك الحرب العالمية الثانية والاحتلال والمقاومة شيئاً؟

هل سألتِ نفسك كيف مارست إسرائيل قمعها في الأراضي المحتلة؟ هل تعلمين عدد البيوت المنسوفة، والعائلات المهجّرة، وعدد عمليات الابتزاز والضغوطات الممارسة لدفع السكان الأصليين إلى ترك أرضهم «بإرادتهم» كما يحلو لإسرائيل أن تسوّق؟ والتوقيفات الاعتباطية، ومصادرة المحال التجارية والبضائع، والتحقيقات المطوّلة، والإذلال، والمعتقلات... كل هذه الممارسات ألا توقظ في ذاكرتك يا سيدة ساروت شعوراً بمشاهد سبق أن رأيتها؟

تتحدثين عن وزنين ومقياسين؟ حسناً، ولكن ليس على ما تقصدينه أنتِ؟

كوني منحازة يا سيدة ساروت ولكن في حدود الواقعية (...) كوني محايدة ولكن بالله عليك لا تخبري أن الإسرائيليين المساكين لم يستغلوا سوى الرمال والحجارة على أراضي فلسطين، إلّا إذا كانت كلمة «رمال» في مفرداتك الشاعرية والروائية تعني المستعمرات الفسيحة والزراعات المتنوعة والجنائن المخضوضرة، وإلا إذا كانت كلمة «حجارة» تعني في قاموسك الخاص الأبنية والأثاث ومظاهر البنيان الشاهق.

وحول هذا الالتباس، دعيني أعلمك أن البرتقال والحامض في يافا كانا من الفاكهة المفضلة لأجداد أجدادنا في فلسطين، وحدث هذا قبل وقت طويل طويل من ولادة تيودور هرتزل (...).

وأضفتِ أن السلام هو بين أيدي العرب وبين أيديهم وحدهم. فاسمحي لي بالتشكيك، فالسلام هو بين أيدي أولئك الذين يعرفون أنه لم يعد من المجدي إنكار الواقع الفلسطيني، وأن الجملة الشهيرة المنسوبة إلى ليفي أشكول («لوموند» في عددها الصادر في ٢/٧/ ١٩٦٤) «ليستقر اللاجئون حيث هم» ليست سوى وهم يدحضها الواقع ويكذبها في كل لحظة.

السلام بين أيدي أولئك الذين يعرفون أن الصهيونية لا يمكن أن تُفرض في الشرق الأوسط بالأسلحة والعنف، وأنها وبالرغم من محاولات الحفاظ على ديمومتها فهي لا مناص منذورة للاندثار والزوال على المدى الطويل، وآمل سيدتي أن نتقن سوياً لعبة انتظار هذا الاستحقاق (...).

وإني لأعترف مغمورة بقبسٍ من ألم، أني أحب ناتالي ساروت

ككاتبة، وبالرغم من محبتي لها فإني أعتبر «شهادتها» هذه خنجراً مغروزاً سبَّب في نفسي الجراح.

(من نص لم ينشر قبل. جُمِعَ في: «الآثار الكاملة: النثر»، ١٦٧ - ١٧٤).

III

جابوتنسكي:
طبيعي أن يرفض العرب دولة إسرائيل

جابوتنسكي لم يبتدع نظرية العدائية العربية من ألفها إلى يائها ليضفي على مواقفه معنى.
هذه العدائية الحقيقية جداً لم تنتج، لا من مزاج تعصبي ولا من شهية للحرب يختص بها العرب دون سواهم.

جابوتنسكي لم يكن ليندهش من هذه المعارضة العربية، وبالمطلق، نستطيع التساؤل: هل كان باستطاعته ألا يندهش؟
من هم العرب وسط هذه المأساة، يستطرد جابوتنسكي بهدوء، إن لم يكونوا سكاناً أصليين مقتنعين تمام الاقتناع بحقهم المشروع؟

ومن هم اليهود بنظرهم، أولئك الوافدين من أوروبا، سوى غرباء يرغبون بالاستقرار؟

وجابوتنسكي يكتب، إنه خلال التاريخ الإنساني برمّته لم ولن نشهد على شعب يتشكّل من السكان الأصليين يتأهّل ويرحِّب بمحبة وفرح بأناس غرباء الثقافة والدين والتقاليد، يودون الاستيطان في أرضه.

إن العرب، وبعيداً عن نعتهم بالملائكة أو بالشياطين، وإسوة بكل الأمم الباقية لا يستطيعون إلّا أن يواجهوا بكل الوسائل، ومن ضمنها القوة، إرادة اليهود للاستقرار في فلسطين ولتأسيس دولة يهودية على أراضيها.

لا شيء يستطيع تعديل هذا القانون الإنساني: لا الطابع المتمدن أو البدائي للسكان الأصليين ولا حسن النوايا لدى المستوطنين. فمهما تحلّت مستوطناتهم بالمبررات السلمية والتعايشية، أو على العكس من ذلك، مهما تحلّت بالوحشية والقساوة، فإن كلا الأمرين لن يغيّر في واقع أن الاستيطان يعزّز مشاعر الاغتراب والقمع في نفوس السكان الأصليين.

وبقي جابوتنسكي مقتنعاً أن كل المبرّرات المستعملة لتبرير الفعل الصهيوني بقيت ممجوجة وستبقى كذلك: فلا الحيز الذي يشيع اليهود أنه سيغدق على العرب مباشرة أو بطريقة غير مباشرة، ولا المراجع التاريخية والتوراتية التي تبرّر الخيار السياسي لأرض فلسطين، لا هذا ولا ذاك سيؤدي إلى إقناع العرب بالاستيطان ومفاعيله التدميرية.

ويستطيع المرء أن يشرح مطولاً أن قدوم اليهود إلى فلسطين يشكل عودة إلى أرض هجّروا منها منذ القدم، كما يستطيع أن يضيف أن

إسرائيل كانت موضوع وعد إلهي لا ينكره أصلاً أولئك الذين يوحّدون الله من أبناء الديانتين الإسلامية والمسيحية، كما يستطيع المرء أيضاً أن يؤكد أن المساحة الجغرافية التي وُضعت تحت تصرف اليهود كافية لإشباع رغباتهم وحاجاتهم الحيوية في الاستقرار، كل هذه القرائن ستؤدي إلى فشل ذريع وستضيف صلابة متراكمة على صلابة الرفض العربي لإسرائيل.

والتاريخ مليء بهذه النماذج، الـ Aztèques ضد الإسبان، والهنود ضد الأميركيين... إلخ، فالشعب المتشكّل من سكان أصليين يواجه أولئك الذين يريدون الاستقرار في أرضه وسلب مكانه، وهو سيستمر في مواجهته وصراعه مع الغرباء حتى آخر بارقة أمل مهما خبا نورها، في محاولة منه لدرء خطر هذا الاستيطان.

وجابوتنسكي، ودون أن يعتبر الصهيونية إيديولوجية استعمارية، يعي تماماً البعد المُقارن للأوضاع، فهو لا يتفادى الإشكالية الأخلاقية التي يطرحها تحقق الصهيونيّة، ويدعو بكل بساطة إلى مقاربتها بواقعية مفرطة يمكن أن نترجمها بالعبارة التالية: «لقد عُتّق الخمر وحان موعد احتسائه» ولِمَ لا يُحتسى إذا لزم الأمر حتى الثمالة!

بعبارة أخرى، جابوتنسكي يرى أنه من الضروري الإقرار وبدون عقَد أن الدولة اليهودية تتعرض إلى الحقوق الوطنية والقومية للعرب الفلسطينيين. ويضيف أنه، ومن أجل تحقيق عدالة عليا (يرى جابوتنسكي أنها عدالة إنصاف شعب منفي ومهجّر) يجب القبول بالتعرّض للحقوق الوطنية التي يتنعم بها الأقوياء (ويضع في خانة الأقوياء الفلسطينيين محاولاً إضعاف الاستعطاف الطبيعي الذي

يجب أن يلقاه الفلسطينيون نتيجة للاستيطان اليهودي وممارساته الشاذة).

ويضيف جابوتنسكي معتبراً أنه إذا احتار البعض بين تحقيق المصالح القومية والوطنية للشعب اليهودي من جهة، وبين احترام حقوق عرب فلسطين من جهة أخرى، يجب الحسم بلا تردّد باتجاه الخيار الأول، بحجة أنه لا يمكن إيجاد تناغم وحلٌ توفيقي يأخذ بعين الاعتبار الخيارين معاً.

هذا ويشدّد جابوتنسكي من جهة أخرى: خارج فلسطين لا خلاص البتة! فهو يقول ما حرفيته:

«انقرضت الجزر المهجورة عن سطح كوكبنا منذ أمد طويل. وحيثما ذهبتم، وعلى أديم أية واحة صحراوية وطئتم، ستجدون حتماً سكاناً أصليين يقطنون المكان منذ عتمات التاريخ، ولا يرغبون أبداً في رؤية أغلبية من الغرباء، ولا حتى أقلية منهم تحاول الاستيلاء على الأرض التي يعيشون في أفيائها آمنين».

وانسحاباً على ما ذكر، فإن اختيار أوغندا مثلاً مكان فلسطين كان سيولّد المشكلة عينها، لا بل أي مكان آخر على الأرض، وعليه فجابوتنسكي، وعلى خلفية هذا المنطق يتساءل عما إذا كان تقاسم الحصص الجغرافية في العالم بين شعوبه شكّل واقعاً مانعاً لاستيطان شعب مهجّر في إحدى بقاعه. وعلى خلاف المعترف به عموماً، فإن جابوتنسكي لم يحاول نفي القومية العربية، فهي كانت بالنسبة إليه تطلعاً مشروعاً ولكن مناقضاً للمخطط الصهيوني بسبب تطابق الطموحات الجغرافية للشعبين الفلسطيني واليهودي، لذلك يرى جابوتنسكي أن لا أفق لهذه المأساة سوى الانتصار أو الهزيمة،

فالمطلوب إما التراجع أمام تحدي الحرب وبالتالي خسارة معركة الاستيطان، وإما التحضر للمعركة تمهيداً لكسب الاستيطان في فلسطين.

ومهما يكن من أمر، فإن الدولة اليهودية ستخضع لامتحان القوة وتداعياتها، وفي كباشها هذا لن تحظى طبعاً برضى وموافقة الشعب العربي المعني بهذه المعركة حتى ولو حصلت الدولة اليهودية على رضى المجتمع الدولي بأسره.

ويعتقد جابوتنسكي أن مستقبل دولة إسرائيل مرهون بقدراتها القتالية في ساحات الحرب، لذا فمن الواجب أن تكون قوية لتتفادى الاندثار الذي يعتبر أول تداعيات الضعف وآخرها.

وهذا التحضير في سبيل تحقيق القوة لا يطال العتاد فقط بل يطال العقل أيضاً، فعلى الشعب اليهودي أن يقاوم أولاً وهم التسوية التي يمكن أن يقبل العرب بها يوماً، حيث إن هؤلاء وإن قبلوا بها مرحلياً فإنهم لا يتمنون استمرارها.

هل يعني ذلك أن السلام طار أدراج الرياح؟ يجيب جابوتنسكي بالنفي، لكنه يضيف أن السلام الحقيقي مرهون بقبول العرب بأزلية وأبدية دولة إسرائيل، وأنه طالما أن هناك شكوكاً عربية تطال ديمومة هذه الدولة واستقرارها، فالسلام سيبقى وهماً من الأوهام.

دنيس شاريت

Le sionisme expliqué à nos potes.

Ed. de la Martinière.

Union des étudiants Juifs de France.

p. 140-144

IV

أميرة هاس:
أفرح لموته

أبو مصطفى: شيء ما يذكرني كل يوم وكل لحظة بالسجن. كنت أشاهد التلفزيون منذ بضعة أيام مع بناتي، ورأينا عبر شاشته رجلاً يضرب حماراً، وفجأة شعرت بالتوتر دون أن ألحظ ماذا يحدث لي. سألتني بناتي عن الأمر، أما أنا فتذكرت واقعة التحقيق. في المراحل المتقدمة صرفوا النظر عن استعمال العصي، إلّا في العام ١٩٧٣ حين أوقفوني لثلاثة أيام وضربوني، لا بالسوط وبالعصا بل بالأسلاك الكهربائية.

كان هذا منذ ثلاث وعشرين سنة. وأنا حين رأيت ما رأيت اليوم على شاشة التلفزيون تذكرت الواقعة على نحو مباغت.

أبو ماجد: هل تعلم إلامَ تعرّضت مرة في سجن غزّة؟ رمى بي أحد عناصر الشين بيت عام ١٩٨٨ تحت الدوش. كان ذلك نهار

جمعة، فتح العنصر حنفية الدوش وهطلت عليَّ مياه باردة. ربط العنصر بعدها يدي في موزّع المياه فوق رأسي وقفل راجعاً إلى بيته ليعيّد السبت. وخلال عطلة نهاية الأسبوع برمّتها، وفي حين كان الرجل يتمتع بدفء عائلته، كانت يدي معلّقة في الهواء وكان الماء البارد يهطل فوقي دون انقطاع.

اليوم، أعاني من عطل دائم في يدي. عادة، كانوا يعلقون الذراع ساعة أو ساعتين، أو خمساً إذا بالغوا، أما سجّاني هذا فكان ضابطاً ليلياً ولم يعتبر أن صلاحياته تتيح له تحريري ذلك المساء قبل أن يعود إلى عائلته سعيداً. أما أنا فبقيت على ذراعي المعلّقة فوق رأسي حتى مساء السبت. عند منتصف الليل لم أعرف ماذا حدث لي بالضبط لأني لم أستردّ وعيي إلّا في مستوصف السجن، وبقيت ذراعي مشلولة لمدة سنة كاملة؛ كان زملاء الزنزانة يدلكونها لي واستطعت تحريك أصابعي بعد سنة تقريباً، أما اليوم فما زلت أشعر بها تؤلمني في فصل الشتاء، وفي مطلق الأحوال فإن ذراعي بغير ذي فائدة لأني لا أستطيع أن أستعملها لأحمل أي شيء على الإطلاق.

أبو مصطفى: وهل كان ذلك التحقيق الأول الذي خضعت له؟
أبو ماجد: كلا، كان السادس أو السابع. خلال التحقيق الأول بقيت ستة أشهر وكان لي من العمر آنذاك خمس عشرة أو ست عشرة سنة.
أبو مصطفى: أنا أمسكني أحد المحققين مرة وبصق في فمي. عام ١٩٧٩؛ لا أحب أن أروي ما جرى... لكنه جرى ولا أستطيع نكرانه أو الهروب منه. كان بالتحديد محققاً تابعاً للشين بيت، وقد نسيت اسمه اليوم، على الأرجح أبو إسحق أو أبو إبراهيم حيث

إنهم كانوا يستعملون أسماء علم عربية للتمويه، وأذكر أيضاً أنه قُتل في لبنان، وبالتحديد في مدرسة تمَّ تفجيرها عام ١٩٨٢ أو ١٩٨٣.

أبو ماجد: وهل راق لك حينها أنه قُتل؟

أبو مصطفى: أتريد حقاً أن تعرف؟ لقد فرحت جداً، فرحت جداً جداً.

أبو ماجد: وكم من الوقت دام التحقيق؟

أبو مصطفى: اثنين وسبعين يوماً.

أبو ماجد: هذه مدة طويلة... عن ماذا كان يبحث بالتحديد؟

أبو مصطفى: أوقفت وقتذاك بسبب صندوقة قنابل يدوية، أوقع بي أحدهم وأخبر الشين بيت أن الصندوقة في حوزتي.

أبو ماجد: وهل قلت لهم أين خبأتها؟

أبو مصطفى: لكنني لم أعرف شيئاً، وأمر الصندوقة لم يكن سوى خبر ملفّق!

أبو ماجد: قل لي: هل استبدلوا ضربات العصي بالبصق؟

أبو مصطفى: أخذت نصيبي من ضربات العصي، والضاربون بها كانوا يتفنون في استعمالها لسحق الخصيتين، وكانوا يفعلون ذلك بالجميع، كانوا يعذّبونني لكني لم أشعر يوماً بالإهانة، إلّا حين كانوا يبصقون في فمي... كنت معصوب العينين، وكانوا يطلبون إليَّ أن أفتح فمي وكنت أطيع، ولم أكن أنتظر أن يبصقوا في فمي، وعندما كانوا يفعلون، كنت أشعر برغبة في التقيؤ.

أبو ماجد: وكيف عرفت أن هذا المحقق قُتل في لبنان؟

أبو مصطفى: عبر التلفزيون، كانوا يعرضون صور القتلى وأسماءهم ورأيت صورته... حدّدوا تاريخ دفنه، وأذكر أني قفزت فرحاً لدى رؤيتي لصورته. فرحت إذ عرفتُ أنه بين عداد القتلى وأنه لاقى حتفه على النحو الذي لاقاه فيه، لأن الذلّ والإهانة اللذين ذقتهما بين يديه أكبر من أن تصفهما الكلمات.

أبو ماجد: وما رأيك على أية حال بهؤلاء القوم؟
أبو مصطفى: يربونهم ليقوموا بمثل هذه الأعمال، وحتى يصيروا ما يتحوّلون إليه، وأنا أظن أنه بمعنى ما فهو لا يختلف عنا، فهو إنسان مثلنا وله أولاد وزوجة ويعرف الحب والحنان، ولكن بعرفي فهو أشبه بالحيوان لا بالإنسان، حيوان يقوم بعمل غير إنساني... هذا هو رأيي به وبأمثاله.

Boire Le mer à Gaza

La Fabrique

p. 365-377

إيريت غال ـ إيانا هامرمان:
جنين... بيروت أخرى

أي شيء يبرّر القصف الجوي لبيروت؟
ماذا يعني أن يتم تحميل طائرة حربية بأربعة أطنان من القنابل، أي ما يعادل خمس عشرة أو ست عشرة قنبلة زنة ٢٥٠ كلغ؟ اليوم، عندما يقدم أحدهم على تفجير حمولة من المواد المتفجرة تزن خمسة كيلوغرامات في أحد مطاعمنا نعتبره قاتلاً، فماذا عنا نحن وعن قنابلنا زنة المئتين وخمسين كيلوغراماً؟

هم إرهابيون لأنهم يسحقون الأطفال، أما حين يتعلّق الأمر بما نفعله، فيُقال: «إنهم رجال في مهمة وقد أنجزوها» ويقال أيضاً: «فليقم جيش الدفاع الإسرائيلي بعمله». بمعنى آخر، نحن نقوم بأعمالنا أما هم فيسحقون الأطفال! أين المنطق في كل هذا؟ لهذا السبب قبلت التحدث إليكم ولأن للأمر صلة بما يحدث اليوم.

منذ مدة، يعتبر كل أولئك الذين يلتزمون باليمين، بمن فيهم ضباط القوى الجوية، أن هذه القوى يجب أن تضرب. هذا ما قالوه بشأن جنين، وهذا ما حدث بالضبط مع بداية حرب لبنان... هناك صلة مباشرة بين بيروت وجنين.

أن نقصف مدينة وندكّها بأكملها، كان جزءاً من أوامرنا العسكرية. نركب طائراتنا، ونصوب باتجاه المنزل الآمن، وبالتحديد طابقه السفلي، حيث قيل لنا إن إرهابيين يختبئون فيه، ونرمي قنابلنا من الجو. ينهار المنزل على من فيه ويُقتل الإرهابيون ومعهم عشرات ومئات المواطنين العزل!

هذا ما كان يحدث بالضبط. في بيروت كانت طائرة الفانتوم تغير على بناية مؤلفة من أربعة عشر طابقاً وتهدمها بالكامل، وكان الجميع يشاهد هذا المشهد المروّع من على شاشات التلفزة، وكان الموت في كل مكان، وبعدها كانت قياداتنا تدّعي أن البناية انهارت بسبب عيب في هندستها وبنائها، وكانت الملامة تلقى على المهندسين والبنّائين، وكان يقال بكل وقاحة أنه من غير الجائز أن تهدم قنبلة واحدة مبنى بأكمله... نعم، كان يقال أي شيء من أجل تفادي الاعتراف بالمسؤولية الأخلاقية عن هذه الجرائم المخيفة.

ولنفترض الآن، أنني وبدل أن أكون في طائرتي الحربية مدججاً بالمعدّات، كنت في شوارع بيروت أنفذ أمراً بقتل الناس. كنت لأجن بلا شك، وما كنت استطعت أبداً أن أغتال الناس على النحو الذي أُمِرْتُهُ. لكن ربان الطائرة الحربية يقتل مئتين وخمسين شخصاً في غضون ربع ساعة من الوقت. يقتل أناساً لم يتعرضوا له بأذى.

يقتلهم دون أن يدري أنهم يشكلون هدفاً حقيقياً لقصفه المركّز، فما يفصله عنهم هو ستارة أو جدار من المعدات المتطورة. هو موجود في حجرة التكنولوجيا، يصوّب، يضغط على زر ويقوم بعمله نظيفاً وينفذ التعليمات دون أن يؤنبه ضميره.

وإني أرى قاسماً مشتركاً بين الكيمياء والأخلاق، فمع التحلل الكيميائي الناتج عن القصف الأعمى الذي نقوم به، نتحلل نحن أيضاً في أخلاقنا ونتدمّر تدميراً ذاتياً.

وأسأل: هل مسؤولية قائد الطائرة الحربية أقل من مسؤولية الجندي الذي يقتل بالسلاح الأبيض؟ ولماذا لا يتحمل ربان الطائرة الذي يكبس على زر القتل والتدمير مسؤولية أخلاقية موازية أو حتى أكبر وأخطر من تلك التي يجب أن يتحملها أي جندي آخر من المشاة؟ هل نعطيه أسباباً تخفيفية لأنه يكتفي بكبسة زر؟ والموتى هؤلاء أليسوا بشراً؟ أمهات وأطفال وأعمام وأقارب من كل صنف يقتلون، وبحجة أن الطيران الحربي يقتلهم ببعدٍ تجريدي لا احتكاكي، نقول إن ما نفعله واجب!

هذه التكنولوجيا الحربية أعفتنا من كل حسٍّ أخلاقي وروحي، وإلّا، فكيف نفسّر تصريحاً أدلى به أحد ضباط سلاح الجو الكبار واعتبر فيه أن تدخل الطيران الحربي كان يجب استعماله بغزارة في جنين لأن من حسناته أنه يقلل عدد الجرحى؟

هذا الرجل يختبىء داخل تكنولوجيته المقيتة. هذا الرجل سافل ومنحط لأنه يقترح قتل أناس يجهلهم، ويجهل عنهم أي شيء. هذه هي المأساة، مأساة أن ترمي قنبلة من على ارتفاع ثلاثة آلاف

قدم في الجو، وأن تنحرف القنبلة ملليمترات عن مسارها القاتل ثم تسقط على منزل مجاور وتتلقى أنت ما حدث بالأسف فتعمد إلى تبرئة نفسك واتهام القنبلة وزجرها لأنك أردت إدخالها عبر النافذة فدخلت عبر الباب...

من شهادة الكولونيل الطيار غيورا بن دوف
كتاب «من بيروت إلى جنين»
ص: ١٨٢ ـ ١٨٥
منشورات La fabrique

أهارون شبطاي:
الحسوا ط.... ي

إذا ما طلبتم إليَّ
اصطياد فتى
على بعد مائة وخمسين متراً
ببندقية مزوّدة بنظارات
وإذا ما طلبتم إليَّ
أن أجلس داخل دبابة
ومن على مرتفعات الأخلاقية اليهودية
إذا ما أمرتموني
بإسقاط قذيفة
في شباك منزل مسالم

سأخلع نظارة التصويب
ولكم سأقول بكل تهذيب:
«أيها السادة!
أرفض التعري
وأرفض التحمم معكم
في برك الدماء»
وإذا ما طلبتم إليَّ
أن أعيركم أذنيَّ
لتشخوا فيها
سأعتذر قائلاً: «لا شكراً!
كلماتكم تنز قيحاً
وأنا أفضل الجلوس
على استدارة المرحاض»
الأفضل لكم إذاً أن ترتدعوا
لأنكم إذا أصريتم على غيّكم
وعلى انضمامي إلى طاغوتكم المقيت
لنجعّر معاً
ولنقحم معاً
نوايانا المستذئبة
في نهش الأجسام البريئة
عندها سأفقد صبري
وسأجيبكم بجزم:
«حضرة رئيس الوزراء

سيدي الجنرال
سعادة النائب
قداسة الرابين
الحسوا .. طه، ياء، زين، ياء»(*).

Tanya Reinhart
Détruire le Palestine
La fabrique

(*) ترجم نصوص الملحق روني ألفا.

المراجع

I ـ مراجع أجنبية:

1- Abraham Yehoshua,
Quelle paix au proche - orient?
Imaginer la paix. Académie universelle des Cultures
Grasset - France - 2003.

2 - Alain Gresh,
Israèl, Palestine. vérités sur un conflit.
Fayard - France - 2001.

3 - Amira Hass,
Boire la mer à Gaza. Chronique 1993-1996.
La Fabrique - France - 2001.

4 - Amnon Kapeliouk,
Arafat L'irreductible.
Fayard - France - 2004.

5 - Amos OZ
Aidez - nous à divorcer! Israèl Palestine: Deux Etats maintenant.
Gallimard - France - 2004.

6 - Breyten Breyten Back.
«Lettre ouverte au général Sharon».
Le Monde, 16 Avril 2002.

7 - Charles Enderlin.
Le Rêve brisé. Histoire de l'échec du processus de paix au proche - orient. 1995 - 2002.
Fayard - France - 2002.

8 - Elie Barnavi.
Israèl ou en est - il?
Le Débat. No. 128. Gallimard - France - 2004.

9 - Eugène Ionesico.
Antidotes, Gallimard - France - 1977.

10 - Furio Colombo.
Existe - t - il une culture de paix?
Imaginer la paix, Grasset - France - 2004.

11 - Georges Friedmann.
Fin du Peuple Juif?
Idées - nrf. Gallimard - France- 1965.

12 - Ilena Hammermann - Irit Gal.
De Beyrouth à Jenine.
temoignages de soldats Israéliens sur la guerre au Liban.
La Fabrique - France - 2002.

13 - Ilan Pappé.
La guerre de 1948 en Palestine.
La Fabrique - France - 2000.

14 - Jacobo Tinerman,
Israèl au Liban, la guerre des consciences.
Liana Levi - France - 1973.

15 - Jacques Attali,
Le Juif le Monde et l'Argent
Histoire économique du peuple Juif.
Fayard - France - 2002.

16 - Jacques Dalloz,
La création de l'état d'Israèl.
La documentation Française.

17 - Jean Daniel,
La Prison Juive.
Adile Jacob, 2003.

18 - Joss Dray et Denis Giffert.
La guerre Israélienne de l'information.
La découverte - France - 2002.

19 - Lance Selfa,
Le combat pour la Palestine.
Parangan - France - 2003.

20 - Nadia Tuéni,
La Prose - Oeuvres complètes.
«Dar An-Nahar» - Liban - 1986.

21 - Pierre Hassner,
La violence et la paix.

de la bombe atomique au nettoyage ethnique
Seuil - France - 2000.

22 - Ran Halèvi,
Israèl ou la question de l'Etat - Nation.
Le Débat. No. 128 Gallimard - France - 2004.

23 - Stephen Zunes,
Le Poudrière.
Parangan - France - 2002.

24 - Union des étudiants Juifs de France.
Le Sionisme expliqué à nos potes.
La Martinière - France - 2003.
(Bernard Henry Levi). Discours.

25 - Tanya Reinhart,
Détruire la Palestine ou comment terminer la guerre de 1948.
La Frabrique - France - 2002.

26 - Tony Judt.
Israèl: l'alternative
Le Débat. No. 128 Gallimard - France - 2004.

27 - Yaron Ezrahi
«Quand instaurer deux états sera trop couteux...,»
Le courrier international, Janvier - 2004.

28 - Yermiyahu yovel,
«Nous sommes dans la pire situation..».
Le Monde, 11 Fevrier - 2002.

29 - textes d'Ammesty international B'tselam - Fédération internationale de ligues des droits de

l'homme - Human Rights watch - torture en Israèl - Repoters sans frontières...
Israèl, Palestine
Le Livre Noir.
La Découverte (2002).

II ـ مراجع بالعربية:

١ ـ أبراهام بورغ، «وداعاً للصهيونية». **هيرالد تريبون أنترناشيونال**، ترجمة صحيفة **النهار**، البيروتية.
٢ ـ أساف عنبري، «جيل الانهيار» (**معاريف**، ٢٠٠٣/١٠/٥، ترجمة حلمي موسى، **السفير**، ١٣ تشرين الأول، ٢٠٠٣).
٣ ـ أسعد رزوق، **إسرائيل الكبرى**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
٤ ـ إلياس سعد، **الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة**. مركز الأبحاث الفلسطينية.
٥ ـ أنطوان شحلت، «ماذا يتعلم أطفال فلسطين»؟ **وجهات نظر** القاهرية. ٢٠٠٣.
٦ ـ بني موريس، «عدم طرد العرب كان خطأ»، ترجمة حلمي موسى. **السفير**، ١٢ كانون الثاني ٢٠٠٤.
٧ ـ دومنيك فيدال، **خطيئة إسرائيل الأصلية**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
٨ ـ رامون بنفنستي وحاييم هنغبي «الثورة الصهيونية ـ انسوها». **هآرتس**، ترجمة حلمي موسى، **السفير**، ١١ آب ٢٠٠٣.
٩ ـ د. رشاد عبد الله الشامي، «إشكالية الهوية في إسرائيل». **عالم المعرفة**، الكويت.
١٠ ـ روبرت فيسك، **ويلات وطن**، شركة المطبوعات العربية.

١١ ـ نصري الصايغ، «الصهيونية بلغت سن اليأس»، **الانتقاد**، ٢٠٠٣/٩/٢٦.

١٢ ـ د. نور الدين مصالحة، «**طرد الفلسطينيين**» و«**أرض أكثر عرب أقل**»، مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

١٣ ـ نيكوس كازانتزاكي، **رحلة إلى فلسطين**، مؤسسة خلدون ١٩٨٩.

١٤ ـ .... كتاب إسرائيليون: **من الفكر الصهيوني المعاصر**. مركز الأبحاث الفلسطيني.

صدر للمؤلف

الطائفية على ضوء تاريخها ونتائجها، دراسة ١٩٧٦

حواشٍ على القيود، مقالات سياسية ١٩٨٠

رابندرانات طاغور، دراسة وتعريب ١٩٨٠

غابرييلا ميسترال، دراسة وتعريب ١٩٨١

أول الموت، شعر ١٩٨٢

الخراب ـ يوميات شاعر في بيروت ١٩٨٣.

وطن وعصافير، قصص ١٩٩٣.

بولينغ في بغداد، رياض الريّس للكتب للنشر ٢٠٠٣.

Bowling à Bagdad, Fayard 2004.

نصري الصايغ

لو كنتُ يهودياً

«سأقتل عربياً أو عرباً. أنا اليهودي في إسرائيل، لديَّ عشرات الأسباب لأقتل أول فلسطيني ألقاه في أي مكان. لديَّ عشرات الأسباب لقتله عشرات المرات دفعة واحدة...».

من شهادة إسرائيلي

... ورغم ذلك قررت أن أنتقل إلى اليهودي في إسرائيل. عبرت إليه، بعدما نزعت عني مقدساتي السياسية. كنتُ عدوي فيما أنا أبحث عن خلاصي الفلسطيني. ذهبت إليه، من خلال قناعاته وأفكاره ومشاريعه وانفعالاته وأحاسيسه وقلقه وبحثه عن الخلاص، فوجدته على حافة الانهيار. يودع الصهيونية، وقد يخونها.

كنتُ يهودياً إسرائيلياً... وعدتُ فلسطينياً، وعلى يقين، أن ما بيننا، ليس سوء تفاهم، بل سوء تواجد، وفلسطين لا تتسع لشعبين.

نصري الصايغ

Bibliotheca Alexandrina
0708280

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

ISBN 9953-21-186-8
9 789953 211862